بسم الله الرحمن الرحيم

ذو الحجة ١٤٣٥ هـ

السنة : ٢١ ـ العدد : ٤٢

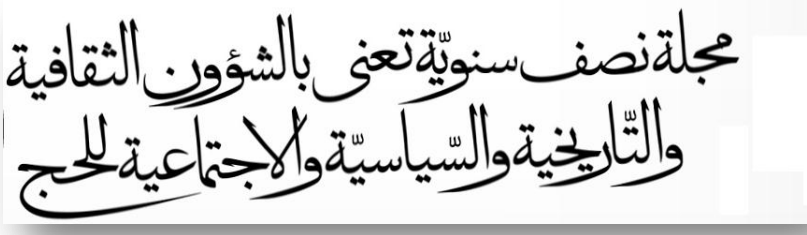

الهيئة العلمية :

١. سماحة الشيخ جعفر السبحاني

٢. سماحة الشيخ محمدمهدي الآصفي

٣. سماحة الشيخ محمد القايني

المدير المسؤول :

السيد علي قاضي عسكر

مدير التحرير :

محمدعلي المقدادي

ملاحظات :

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

١. أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيل.
٢. أن لاتتجاوز المقالة ٤٠ صفحة وأن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أو أن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.
٣. أن تكون المادّة المرسلة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.
٤. تقوم المجلة بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إليها، ولها الحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.
٥. يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أسسٍ فنيّة وليس لأسباب أخرى.
٦. تعتذر المجلة عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.
٧. المقالات والبحوث التي تنشر على صفحات المجلة تمثّل وجهات نظر وآراء كتّابها.
٨. ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة.
٩. ترحّب إدارة التحرير في مجلة «ميقات الحج» بملاحظات القرّاء الكرام ومقترحاتهم.

الفهرس :

أسئلة حول البسملة و أجوبتها

آية الله الشيخ جعفر السبحاني / ٧

مع آية : ﴿إنما المشركون نجس﴾

الأستاذ : محسن الأسدي / ٢١

طريق نجد وجبل شمّر في المصادر الإيرانية ...

الأستاذ: رسول جعفريان / ١٠٥

فضائل الحرمين الشريفين (٦)

محمد علي المقدادي / ١٥٩

دور الحج في التواصل الثقافي ...

د: عبدالعزيز صالح الغامدي / ١٨١

شخصيات من الحرمين الشريفين (٣٥)

محمد سليمان / ٢٢٥

أخبار الحرمين الشريفين إدارة التحرير /٢٦١

أسئلة حول البسملة وأجوبتها

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

* * *

بما أنَّ البسملة لها فضل عظيم، وهي زينة كلِّ ما نقوم به، عبادةً كان أو معاملةً، فعلاً كان أو قولاً، وبما أنَّ «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُبْتَدَأْ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ».[1] لهذا ينبغي أن نفتتح جميع ذلك بتسمية الله تعالى.. وفريضة

---

١. وسائل الشيعة ٧ : الباب ٧١ من أبواب الذكر، ح٤؛ كنز العمال ١ : ٥٥٥ برقم٢٤٩١.

الحج وكذا العمرة مناسك عباديّة، تتضمن أقوالاً وأفعالاً، تُؤدى من قبل المسلمين في مواقع مباركة مختارة يتنقلون بينها؛ فهم أولى بالإكثار من قراءة البسملة؛ لكي يحظوا بذلك الفضل وبالتزين المذكور؛ إضافةً إلى ما لها من عطاء واسع وبركة دائمة.. فلهذا ولغيره غدت البسملة تحتلُّ مفاصل حياتنا، فنطمع في قراءتها، وبالذات في ابتداء كلّ فعل أو كلام، عملاً بالسنّة. والاستزادة مما يترتب عليها من أجرٍ جزيلٍ وثوابٍ وفيرٍ، وصارت موضعَ اهتمامٍ دائمٍ، ومورِدَ أسئلةٍ عديدة، ها نحن نقف لنجيب عنها، بعد أن قدمنا في العدد السابق دراسة حول معنى الإله في الذكر الحكيم، علماً بأنّ البسملة تعدُّ جزءاً من كلّ سورة، من غير فرق بين سورة الحمد وغيرها، عند الإمامية. نعم أكثر الجمهور يعتبرونها جزءاً من سورة الحمد دون سائر السور؛ وللبحث فيه موضع آخر.

* * *

١. ما معنى الباء في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾؟

الباء في قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للاستعانة، مثل قولك: كتبت بالقلم. وكأنّ المؤمن يستعين باسم الله الذي هو جامع للأسماء. ويشهد على ذلك قوله سبحانه في ثنايا سورة الحمد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويؤيده أيضاً قول النبي صلى الله عليه وآله: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُبْتَدَأْ بِبِسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ».

وجه الدلالة: أنّ المؤمن الواعي الذي ينظر بعين المعرفة، يعلم أنّ لكلّ شيء أسباباً وعللاً، فهو يهيّئها وعندما يبدأ بالعمل يستفتحه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، أي أستعين باسمك في إنجاز عملي باستعمال هذه المقدمات والأسباب للحصول على مرادي.

٢. ما هو سبب حذف الهمزة عند الكتابة؟

قد دخل حرف الجرّ على الإسم، والهمزة فيه همزة وصل تسقط عند التلفظ، ولكنّها تكتب شأن كلّ همزة وصل؛ فعلى ذلك يجب أن تكتب بالنحو التالي: ﴿باسم اللّه الرحمن الرحيم﴾، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾[١] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.[٢]

ولذلك نرى أنّ الأدباء يكتبون البسملة عند تجرّدها عن الرحمن الرحيم بالنحو التالي: «باسمه تعالى»، وأما غيرهم فيكتبون «بسمه تعالى»، فالتلفّظ عند الفريقين واحد، والإملاء مختلف.

وقد اعتذر عن حذف الألف عند الكتابة في التسمية بوجهين:

الأول: أنّ كثرة استعمال تلك الآية المباركة فوق كلّ رسالة، وبداية كلّ عمل، صار سبباً لحذف الهمزة كتابةً مثل حذفها تلفّظاً، ولذلك نرى

---

١. العلق:١.

٢. الواقعة: ٧٤.

أنّ سليمان عليه السلام كتب إلى بلقيس ملكة سبأ بالنحو التالي: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾،[1]

الثاني: أنّه لو كان متعلّق الجار مذكوراً تكتب الهمزة، كما في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.[2]

وقوله: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾،[3] حيث إنّ الجار متعلّق بـ «سبّح» أو «إقرأ».

وأمّا إذا كان متعلّق الجار محذوفاً، كما في المقام، فتحذف الهمزة تلفظاً وكتابةً، والمفروض أنّ الجار في الآية متعلّق بالمحذوف، نحو: أستعين، وأشباهه.

---

١. النمل: ٣٠.
٢. الواقعة: ٩٦.
٣. العلق:١.

٣. كيف نستعين بالاسم لا بالذات؟

هنا سؤال وهو: كيف نستعين باسم الله، مع أنّ المستعان هو الله لا اسمه، فيجب على كلّ مسلم أن يلتجئ إليه لا إلى اسمه، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾،[1] فالمسؤول هو ذاته لا اسمه؟

ربّما يقال في الجواب عن ذلك: إنّ لفظة اسم زائدة، فكأنّ القارئ يقول: بالله أستعين، مكان: باسم الله أستعين.

يلاحظ عليه: أنّ القول باشتمال القرآن على الحروف الزائدة أمر غير صحيح حتى في قوله سبحانه: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾،[2] كما حقق في محله،[3] فكيف القول باشتماله على كلمة زائدة وهي: «اسم»؟!

ويمكن أن يجاب بأنّ الاسم على قسمين:

١ـ علَم للشخص إذا أطلق ينتقل الذهن إلى المسمّى الخارجي دون أن يدل على أمر زائد. مثلاً إذا سمّي رجل باسم حسن أو جميل، فإذا أطلق يتبادر منه نفس المسمّى، سواءٌ أكان حسناً، جميلاً أم لا. والغاية كون الاسم سبباً للانتقال إلى الفرد الخارجي.

---

١. البقرة: ١٨٦.

٢. البلد:١.

٣. راجع: آلاء الرحمن في تفسيرالقرآن، للعلامةالبلاغيﷺ ١ : ٣٨ـ٣٩، طبعة صيدا.

٢ـ علَم للشخص، وفي الوقت نفسه بمنزلة الوصف الذي يحكي عن صفات الجمال والجلال؛ لأنه لم يوضع للذات فقط بل للذات الجامعة للصفات العليا، فإذا قلنا (باسم الله) فكأنّا قلنا: باسم العالِم القادر السميع البصير، إلى غير ذلك من الصفات العالية.

فهذا النوع من الاسم الذي هو الوصف الحاكي عن صفات الجلال والجمال، قابل للاستعانة به؛ لأنّ الاستعانة به كأنّها استعانة بالذات، فكأنّ الإنسان يستعين بالموصوف بصفات الجلال والجمال.

وبالجملة الاسم بالمعنى الأول علَم محض لادور له سوى إحضار المسمّى في ذهن المخاطب.

وبالمعنى الثاني اسم، لكنه في الوقت نفسه لايفتقد معنى الوصفية، ولذلك يحكي عن الصفات الجمالية والجلالية المندرجة تحت ذلك الوصف. فالاستعانة بهذا الاسم استعانة بذاته تبارك وتعالى.

نعم، السؤال والجواب متعلقان بما إذا قلنا بأنّ الباء للاستعانة، والمتعلق هو «أستعين»، دون ما إذا كان الجار متعلقاً بـ (أبتدئ)، وتقدير الكلام: أبتدئ قرائتي بتسمية الله، أو أقرأ مبتدئاً بتسمية الله.

قال الطبرسي: هذا القول أقرب للصواب، لأنا أمرنا أن نفتتح أمورنا بتسمية الله، كما أمرنا بالتسمية على الأكل والشرب والذبائح، ألا ترى أنّ الذابح إذا قال: بالله، ولم يقل: باسم الله، لكان مخالفاً لما أمر به.[١]

فالمؤمن في كلّ حال يذكر الله سبحانه، بخلاف المنافق؛ قال سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾،[٢]

٤. ما هو المراد من الاسمين: الرحمن الرحيم؟

قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾، كلاهما من صفات الله سبحانه، وأسمائه الحسنى، والكلام يأتي في معنى الرحمة، فالظاهر من الطبرسي أنها بمعنى النعمة، فقال عند تفسير البسملة وبيان لغتها: ﴿الرحمن الرحيم﴾، اسمان وضعا للمبالغة، واشتقا من الرحمة، وهي النعمة، إلا أنّ (فعلان) أشدّ مبالغة من (فعيل).[٣]

وعلى هذا فكلا اللفظين بمعنى المنعم مع تفاوت بينهما، كما سيوافيك.

وأمّا على القول بأنّ الرحمة بمعنى رقّة القلب وتأثره بما يطرأ عليه من الحوادث المؤلمة، كما لو سمع ببكاء يتيم جائع، فيرقّ له قلبه ويقوم

---

١. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي ١ : ٢١.

٢. الحشر:١٩.

٣. مجمع البيان ١ : ٢٠، ط صيدا.

بإطعامه، والإنعام عليه، فلو كان هذا اللفظ بمعنى رقّة القلب فلا يمكن وصف الله سبحانه به؛ لأنّ رقّة القلب وتأثره بالحوادث محال على الله سبحانه، لتنزّهه عن الأنفعال.

ونظير ذلك وصفه سبحانه بالغضب، فإنّ الغضب عبارة عن فوران الدم في القلب يوجب تشنّجاً في أعضاء الإنسان، تهيّؤاً للانتقام، والله سبحانه فوق ذلك؛ لأنّ الانفعال من صفات المادّة، والله فوقها.

ومع ذلك فقد ورد في الذكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.[1]

والجواب عن الموردين ـ الرحمة بمعنى رقّة القلب، والغضب بمعنى فوران الدم ـ ونظائرهما واحد، وهو مايقال: خذ الغايات واترك المبادئ.

توضيحه: أنّ رقّة القلب تكون مبدءاً للتفضّل والإحسان، كما أنّ الغضب يكون سبباً لإيقاع العقوبة والتعذيب، فوصفه سبحانه بهما لأجل الغايات، وهو أنّه متفضّل بالإحسان بالنسبة إلى عباده، أو آخذ بالعقوبة لمن خالفه وجادله.

فكلّ وصف يكون فيه مبدءٌ مادي وانفعالي، ومع الوصف يكون له غاية تناسب الله تبارك وتعالى، فوصفه به إنما هو لأجل النتيجة، لا لأجل المبدء.

---

١. الممتحنة : ١٣.

ومنه يعلم الجواب عن كثير من الأوصاف التي هي من شؤون الإنسان، كالمكر والمخادعة والاستهزاء، ولايمكن وصفه بها سبحانه، ومع ذلك فقد أطلقت عليه سبحانه في غير واحدة من الآيات، منها:

قوله سبحانه: ﴿وَمكرُوا وَمكرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.[١]

وهكذا قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.[٢]

وقوله سبحانه حاكياً عن المنافقين: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اَللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.[٣]

ومن المعلوم أنّ المكر والخديعة حرفة العاجز، والاستهزاء عمل النوكى، غير أنّ وجه وصفه سبحانه بهذه الأفعال إنما هو لأحد أمرين:

١ـ إمّا رعاية للمشاكلة في الكلام، حيث إنّ القائل وصف عمله مكراً واستهزاءاً، والله يعبّر عن ردّ مكرهم وابطال استهزائهم بنفس عبارة القائل، وهذا من المحسّنات الكلامية؛ قال الشاعر:

---

١. آل عمران : ٥٤.

٢. النساء : ١٤٢.

٣. البقرة : ١٤ ـ ١٥.

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخُه	قلت اطبخوا لي جبّةوقميصها.[1]

حيث عبّر عن خياطة الجبّة بالطبخ، رعاية للمشاكلة في الكلام.

٢ـ ما تقدم منا حول وصف فعله سبحانه بالمكر والغضب، هو حذف المبادئ والأخذ بالغايات، فإذا مكر المنافقون فالله يجعل فعلهم عقيماً من حيث لايشعرون، ولذا وصف فعله بالمكر أخذاً بالغايات دون المبادئ، وهكذا الاستهزاء فإنّ المستهزئ يريد الحطّ من النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين في أعين الناس، والله سبحانه يجعل فعله بلا أثر على نحو يكون المستهزئ ذليلاً في أعين الناس.

٥. ما هو الفرق بين الرحمن والرحيم؟

إذا كان الوصفان مشتقين من الرحمة، فما هو الفرق بينهما، خصوصاً على القول بأنّ كليهما على وزان صيغة المبالغة، نظير فعلان وفعيل؟

أجيب عن ذلك بوجوه، نذكر منها وجهين:

---

١. هذا البيت لأبي حامد أحمد بن محمد الأنطاكي، المعروف بأبي الرقعمق، نادرة الزمان وجملة الإحسان، وممن تصرف بالشعر الجزل في أنواع الجدّ والهزل، وأحرز قصب الفضل، وهو أحد المداحين المجيدين والفضلاء المحسنين، وهو بالشام كابن الحجّاج في العراق، وكان شاعراً فكهاً، وأقام بمصر طويلاً، يمدح ملوكها ووزراءها، وتوفي فيها سنة ٣٩٩هـ. لاحظ: يتيمة الدهر، للثعالبي١: ٣٧٩؛ سير أعلام النبلاء ١٧ : ٧٧، برقم ٤٢؛ الأعلام١ : ٢١٠؛ وفيات الأعيان١ :١٣١برقم٥٤؛ أعيان الشيعة ٣ : ٧٦برقم ٢٨٢؛ الغدير ٤ : ١١٣.

١ـ أنّ الرحمن من صفاته المختصة به سبحانه، ولايستعمل في حق الغير، فلايصح أن يقال: زيد رحمان، بل الصحيح عبد الرحمن، بخلاف الرحيم فيمكن أن يوصف به غيره سبحانه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[1]

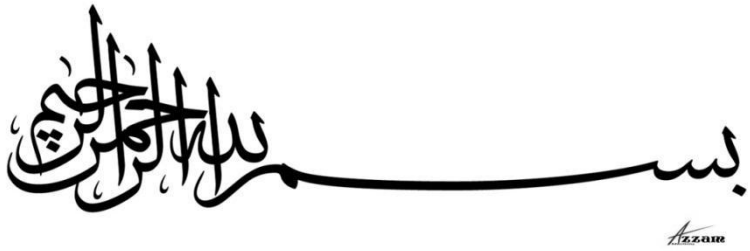

٢ـ أنّ الرحمن أوسع من الرحيم، وذلك أنّ (فعلان) أشدّ مبالغة من (فعيل)، ولعل وجه الأشدّية هو أنّ كثرة المباني تكون غالباً دليلاً على كثرة المعاني، فالرحمن يعمّ جميع الخلق، والرحيم بالمؤمنين خاصة.

ووجه عموم الرحمن بجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، هو إنشاؤه إياهم، وجعلهم أحياء قادرين، ورزقه إياهم.

---

١. التوبة : ١٢٨.

ووجه خصوص الرحيم بالمؤمنين، هو ما فعله بهم في الدنيا من التوفيق، وما يفعله بهم في الآخرة من الجنّة والإكرام وغفران الذنوب؛ وإليه يشير ما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة».[1]

فقوله عليه السلام: «الرحمن اسم خاص»؛ لأنه لا يطلق إلا على الله سبحانه، وقوله: «بصفة عامّة»: أي تعمّ رحمته الكافر والمؤمن.

وقوله عليه السلام: «الرحيم اسم عام»؛ لأنه يطلق على غيره سبحانه، وقوله عليه السلام: «بصفة خاصة»، لأنه يختص بالمؤمن فقط.

٦. لما ذا تقدّم الرحمن على‌الرحيم؟

لما ذا تقدم وصف الرحمن على الرحيم، مع أنّ الضابطة في الكلام البليغ هي التدرّج من الضعيف إلى القوي، ومن القليل إلى الكثير، فيقال: فلان عالم بالفقه بل مجتهد، أو يقال: إنّ هذا المسجد يكفي لألف مصلٍّ بل لألفين، وعلى هذا فالمناسب أن يقول: الرحيم الرحمن؟

وأمّا الجواب عن ذلك فهو أنه يمكن أن يقال: بما أنّ الرحمن يختص بالله سبحانه وشاع استعماله في ذاته القدسية، فقد خرج عن معنى الوصفية وأصبح اسماً له سبحانه، فلفظ الجلالة اسم والرحمن اسم آخر،

---

١. مجمع البيان ١ : ٢١.

وبما أنه اسم فلا يُشعر بشيء من المعاني، على خلاف لفظ (الرحيم)، فإنه باقٍ على وصفيته.

ومهما يكن، فإنّ مفاد البسملة، هو: أنّ الإنسان الضعيف غير القادر على شيء إلاّ بعون الله عزّوجلّ، يجب أن يستعين على جميع أموره بالله سبحانه، وأن يبتدئ جميع أموره باسم الله، ولا يغفل عن الله سبحانه حتى لا يكون ممّن: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾.[1]

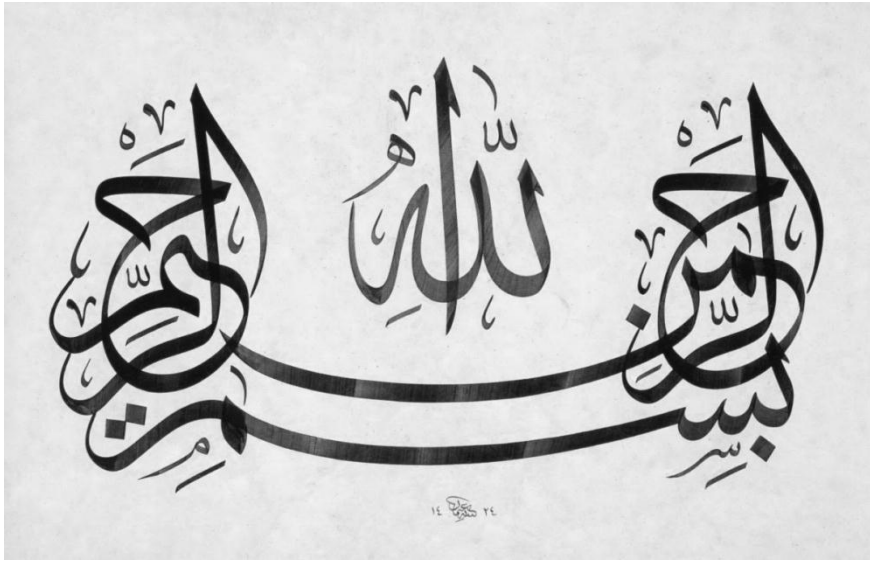

* * *

١. الحشر : ١٩.

مع آية:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾

الأستاذ: محسن الأسدي

﴿ يَـأَيُّـهَا الَّـذِيـنَ ءَامَنُـوا إِنَّمَـا الْمُشْـرِكُونَ نَجَـسٌ فَلاَ يَقْرَبُـوا الْمَسْـجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[1]

هذه الآية هي خاتمة المقطع الأول من سورة التوبة (١-٢٨) التي أنزلت أواخر العهد النبويّ المبارك، في موسم الحجّ في السنة التاسعة من الهجرة النبوية، وحملها الإمامُ عليٌّ عليه السلام، وبلّغها حين بعثه

---

١. التوبة : ٢٨.

رسول الله صلى الله عليه وآله عامئذ، وأمره أن ينادي بها في منى وعرفات ومكة.. فكانت أربعة أمور، و بصيغ متقاربة، منها: أن «لا يحجّن بعد هذا العام مشرك ...».

لقد جاءت تحمل خطاباً للمؤمنين أن يمنعوا أو ينفوا المشركين عن المسجد الحرام أو الحرم كلّه بأن لا يقربوه .. وهذا المنع متفرع على نجاستهم؛ ليختم مقطعاً قرآنيّاً جاءت آياته؛ لتحدد العلاقات النهائية بين المجتمع الإسلامي الذي استقر وجوده في المدينة وفي الجزيرة العربية ـ بصفة عامة ـ وبين بقية المشركين في الجزيرة: الذين لم يدخلوا في هذا الدين.. سواء منهم:

من كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله حينما لاح له أنّ مواجهة المسلمين للروم ـ حين توجهوا لمقابلتهم في تبوك ـ ستكون فيها القاضية على الإسلام وأهله، أو على الأقل ستضعف من شوكة المسلمين وتهد من قوتهم..

ومن لم يكن له عهد ولكنه لم يتعرض للمسلمين من قبل بسوء..

ومن كان له عهد – موقوت أو غير موقوت – فحافظ على عهده، ولم ينقص المسلمين شيئاً ولم يظاهر عليهم أحداً، فهؤلاء جميعاً نزلت هذه الآيات وما بعدها لتحدد العلاقات النهائية بينهم وبين المجتمع المسلم...[1]

---

١. أنظر في ظلال القرآن، للسيد قطب؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ وتفسير القرآن الكريم، لابن كثير: الآية.

لقد سبقت هذه الآية، آيات عديدة، كانت تتضمن أموراً كلّها تعالج مسألة هؤلاء المشركين.

وهذه الآيات هي: ١٧- ١٩ التوبة؛ التي جاءت بعد أن أمر الله سبحانه بقتال المشركين وقطع العصمة والموالاة عنهم؛ لتسجل رفضاً لوجودهم في المسجد الحرام، عمارةً له أو سقايةً للحاج، أو ولايةً عليه، وهي بلا شك تعدُّ مكارمَ لأهل مكة، راحوا في الجاهلية وحتى نزول سورة براءة وتبليغها، يتشرفون ويتفاخرون بها، لكنها مناقب يستحقها المؤمنون دون غيرهم، وهو ما بيّنته الآيات القرآنية وغيرها؛ ولتصرح أنَّ المشركين غير مؤهلين حتى مجرّد القرب من حدود الحرم، فضلاً عن دخوله والمسجد الحرام والقيام عليه؛ ولهذا منعوا عنه، وقد تحقق هذا كلُّه عبر أساليب اتخذها التنزيل العزيز، منها:

أولاً: بنفي عمارتهم له: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.[1]

العمارة :

لغةً: من الفعل عَمَرَ، وعَمَرَ المنزلُ بأهله، وعَمَرَ فلان الدارَ: بناها .. والعمارة: البنيان، وما يحفظ به المكان، فهي نقيض الخراب، يقال: عمر أرضه يعمرها عمارةً، عمرته فعمر فهو معمور..

وتفسيراً: اختلف في العمارة المذكورة في الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ ... وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ..﴾ فهي:

إما من العمارة التي هي حفظ البناء. أو من العمرة التي هي الزيارة. أو من قولهم: عمرت بمكان كذا أي أقمت به؛ لأنه يقال: عمرت المكان وعمرت بالمكان، والعمارة أخصّ من القبيلة، وهي اسم لجماعة بهم عمارة المكان، قال الشاعر: لكلّ أناس من معد عمارة.. من قصيدة الأخنس بن شهاب الثعلبي:

«لِكلِّ أُناسٍ من مَعَدٍّ عِمارَةٌ ـ عَرُوضُ إليها يَلْجَؤُونَ وجانِبُ»

قالوا: هي بدخوله ونزوله كما يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا أكثر غشيانه؛ لأن المسجد تكون عمارته:

بطاعة الله وعبادته.

---

١. التوبة: ١٧ - ١٩.

باستصلاحه ورَمّ ما استرم منه؛ لأنه إنما يعمر للعبادة.

بأن يكونوا من أهله، أي لاينبغي أن يترك المشركون، فيكونوا أهل المسجد الحرام ..

إذن فهناك معنيان لغويان «للعمارة» وهما: البناء، والتردد والزيارة.

ثمَّ راحت هاتان الآيتان تبيّنان من هو الجدير بعمارة مساجد الله؛ مواضع عبادته سجوداً فيها وركوعاً وتضرعاً..، وبالذات المسجد الحرام، وما يتبعه من منازل الحج والعمرة: المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجَمَرات، والمَنْحر من منى...

فنفت الآية الأُولى أن يكون للمشركين حظٌّ في عمارتها؛ وليس لهم إلا حبوط أعمالهم، والإقامة المؤبدة في النار؛ لكفره، وقد شهدوا به، ولكن اختلف في كيفية شهادتهم على أنفسهم بالكفر على معانٍ:

إنَّ النصراني يُسأل ما أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي. وكذلك المشرك إذا سئل ما دينك؟ يقول: مشرك، لا يقولها أحد غير العرب.

إنَّ كلامهم يدل على كفرهم كما يقال: كلام فلان يدل على بطلان دعواه.

إنَّ قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

سجودهم لأصنامهم مع إقرارهم بأنها مخلوقة، وطوافهم بها، ووضعهم إيّاها في جوف الكعبة وحولَها وعلى سطحها..

شهادتهم على أنفسهم بأفعالهم وأحوالهم ومن أظهر شيئاً وبيَّنه يقال: قد شهد به.

إذن فالشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله. فيما منحت الآية الثانية شرف هذه العمارة، وأثبتته للذين آمنوا، فهم المُهيّؤون لعمارتها بكلّ معاني العمارة أعلاه! لأنهم المقرّون بوحدانية الله تعالى، والمعترفون بيوم القيامة، والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة، ولأنهم لا يخشون إلا الله سبحانه وتعالى. فمن كانت هذه اعتقاداته، وهذه صفاته قولاً وفعلاً وسيرةً، فهم الذين يعمرون المساجد بحقٍّ .. [١]

وثانياً: برفض تفاخرهم بالسقاية والعمارة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. [٢]

---

١. أنظر المعجم الوسيط؛ ومفردات القرآن، للراغب؛ ومجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور. بتصرف.

٢. التوبة : ١٩ – ٢٢.

السِّقَايَةُ: لغةً: صاع، وفي التنزيل العزيز: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾.[1]

وقد يُكال به، وفي موردنا: السِّقاية: إناءٌ يُسقى به، وآلة تتخذ لسَقي الماء..

وفي مفردات القرآن: «السقي والسقيا أن يعطيه ما يشرب، والإسقاء أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء، فالإسقاء أبلغ من السقي؛ لأن الإسقاء هو أن تجعل له ما يسقى منه ويشرب، تقول: أسقيته...».

والسقاية: حرفة السَّقَّاء، وسِقاية الحاج: سقيهم الماءَ بنبيذ فيه الزبيب، وكانت من مآثر قريش.[2]

الشعراوي: وكلمة: ﴿سِقَايَةَ﴾ تطلق إطلاقات ثلاث: فهي المكان الذي يجتمع فيه الماء؛ ليشرب منه الناس والذي نسميه. السبيل. وتطلق على الإناء الذي نشرب منه الماء، والذي يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أو يسمى صواع الملك، وفي قصة يوسف عليه السلام يأتي القول الكريم: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

والسقاية: الحرفة نفسها؛ فنقول: هذه خياطة، وهذه حدادة، وهذه سقاية، أي أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية ـ إذن ـ هي المكان

---

١. يوسف : ٧٠.

٢ . مجمع البيان، للطبرسي؛ والمعجم الوسيط؛ ومفردات القرآن، للراغب.

الواسع الذي يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذي نستعمله في الشرب، أو الحرفة التي يقوم بها السّقّا..[١]

وكان مشروع سقاية الحجيج والمعتمرين بتوفير الماء لهم من الأمور المهمة، وتعدّها قريش شرفاً كبيراً حتى صار و عمارة المسجد الحرام موضعَ تفاخر بينهم، والمفاخرة من طبيعة كثير من البشر حتى في الأشياء التي ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عزّوجلّ مثل الشكل والنسب إلى آخره،..

ومن أوجه التفاخر عند العرب سقي الحجيج ورعاية البيت الحرام وعمارته والحجابة والسدانة .. ولهذا جاءت الآية الكريمة مستنكرةً ذلك؛ تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، وتجعلونهما في مقابل الإيمان: كفة سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام لا تتساويان بكفة الإيمان بالله واليوم الآخر، فهذه تعلو على كل شيءٍ، وتتفوق على الجميع مهما كانت منزلته!

وها هو الإمامُ عليٌّ عليه السلام ـ كما في أسباب النزول ـ قد مرَّ على طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب ووجدهما يتفاخران، أي: يفاخر كلّ منهما الآخر بالمناقب التي يعتزُّ بها:

---

١ . خواطر محمد متولي الشعراوي: الآية، بتصرف بسيط.

قال طلحة: أنا صاحب البيت وبيدي مفتاحه ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها. وقال علي عليه السلام: «ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد».

وقيل: إنّ علياً عليه السلام قال للعباس: «يا عم ألا تهاجر وألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ألست في أفضل من الهجرة أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله؟!».

وفي رواية عن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينا شيبة والعباس يتفاخران إذ مرَّ بهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤتَ أحد؛ سقاية الحاج! وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام! فقال علي عليه السلام: استحييت لكما فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا. فقالا: وما أوتيت يا علي؟! قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله! فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به عليٌّ؟ فقال: ادعوا لي عليّاً فدعي له فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمّك؟!

فقال: يا رسول الله صدمته بالحقِّ، فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض!

فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إن ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: أتل عليهم:

﴿أجعلتم سقاية الحاج ...﴾! فقال العباس: إنا قد رضينا ثلاث مرات!

وجاء في تفسير أبي حمزة، أنّ العباس لما أسر يوم بدر، أقبل عليه أناس من المهاجرين والأنصار، فعيَّروه بالكفر وقطيعة الرحم. فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟! قالوا: وهل لكم من محاسن؟! قال: نعم والله لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفكّ العاني، فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا ...﴾ إلى آخر الآيات.

وقد عدت هذه من أفضل مناقب الإمام عليٍّ عليه السلام، فقد جاء عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قيل له: يا أمير المؤمنين أخبرنا بأفضل مناقبك؟ قال: نعم كنت أنا وعباس وعثمان بن أبي شيبة في المسجد الحرام، قال عثمان ابن أبي شيبة: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله الخزانة، يعنى مفاتيح الكعبة؛ وقال

العباس: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله السقاية وهي زمزم، ولم يعطك شيئاً يا عليّ؛ قال: فأنزل الله الآيات.[1]

وثالثاً: بالنهي عن موالاتهم:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[2]

أَوْلِيَآءَ: والأولياء جمع ولي، وهو من كان مختصاً بايلاء التصرف في وقت الحاجة ... وكل من ولى أمر الآخر فهو وليه.. والولي هو الذي يدبر الأمر...

يَتَوَلَّهُمْ: من وَالَى الشيءَ: تابعه. وـ فلاناً: أحبّه. وـ نصره. وـ حاباه تَوَلَّى الشيءَ: لزمه. وـ فلاناً: نصّره. وـ أحبّه. وـ اتَّخذه وليًّا. وـ الأمرَ: تقلَّدَه وقام به...

هذا وقد ذكروا أنَّ الولاية بالفتح تأتي بمعنى المحبة والنصرة، فيما الولاية بالكسر تأتي بمعنى الإمارة والسلطان وأولوية التصرف، وأظنُّ أنّ

---

١. أنظر في هذا كلّه تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ وروح المعاني، للآلوسي؛ وخواطر محمد متولي الشعراوي: الآية؛ والبحار ٩ : ٣١٧؛ والبرهان ٢ : ١١٠؛ والصافي، للكاشاني ١: ٦٨٨؛ وتفسير العياشي..

٢. التوبة : ٢٣.

الولاية المحظورة والمنهيّ عنها في الآية لعلّها تحمل القسمين معاً، والله العالم ..

وهذا أيضاً خطابٌ للمؤمنين يحمل نهياً لهم عن موالاة المشركين أفراداً كانوا أو جماعات؛ وإن تولوهم فإنهم قد وضعوا الموالاة في غير موضعها، وبالتالي يظلمون أنفسهم ويبخسون حظها من الثواب...

وفي **سبب النزول**: روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حيث كتب إلى قريش يخبرهم بخبر النبيّ صلى الله عليه وآله لما أراد فتح مكة.. فيما ذُكر أنه كان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلاّ بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا: يا رسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه، فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدّوا ولحقوا بمكة، فنهى الله تعالى عن موالاتهم.

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحبّ في الله ويبغض في الله، حتى يحبّ في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه». لا ولاية بين المؤمنين والكافرين، فقد نهت الآية المؤمنين عن

موالاة الكافرين وإن كانوا آباءهم أو إخواناً لهم، إن اختاروا الكفر وآثروه على الإيمان.

يقول الطبرسي: وهذا في أمر الدين، فأما في أمر الدنيا فلا بأس بمجالستهم ومعاشرتهم؛ لقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾.

فيما يقول القرطبي: ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافَّةً، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. ورَوَت فرقة أنّ هذه الآية إنما نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب؛ خُوطبوا بألاّ يوالوا الآباء والإخوة، فيكونوا لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر. ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا﴾ أي أحبّوا؛ كما يُقال: استجاب بمعنى أجاب. أي لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخصَّ الله سبحانه الآباء والإخوة، إذ لا قرابة أقرب منها. فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ﴾.[1] ليبيّن أنّ القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان. وفي مثله تنشد الصوفية:

يقولون لي دار الأحبّة قد دنتْ	وأنت كَئيبٌ إنّ ذا لعجيب
فقلت وما تغني ديارٌ قريبة	إذا لم يكن بين القلوب قريب

١. المائدة : ٥١.

فكم من بعيد الدار نال مُرادَه	وآخر جارُ الجَنْب مات كئيب

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التَّبع للآباء. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية.

قالت أسماء: يا رسول الله، إنّ أميّ قدِمت عليّ راغبةً، وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «صِلِي أُمَّك».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأن مَن رضي بالشرك فهو مشرك.[1]

ورابعاً: بالنهي عن قربه:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[2]

فجاءت هذه الآيات إنهاءً لولايتهم على المسجد الحرام، ورفضاً لعمارتهم المسجد، ولما تتركه من إنعامهم على المسلمين ومنّتهم عليهم، فمنعاً لدخولهم المسجد، الذي ما دخلوه إلا لتحقيق مصالح لهم وجاهةً

---

١. المعجم الوسيط؛ كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم، للمصطفوي١٣: ٢٢٣-٢٣٠؛ ومفردات الراغب مادة ولي؛ ومجمع البحرين، للطريحي؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ والكشاف، للزمخشري؛ والتبيان، للطوسي؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي : الآية.

٢. التوبة : ٢٨.

وسيادةً وشرفاً ومالاً.. ولا يكون تعظيماً له، بل توهيناً وإغاضةً لأهله المؤمنين، خاصةً بعد أن منَّ الله تعالى على المؤمنين بفتح مكة وما حولها.. وهكذا هي سورة براءة نفسها التي تنتمي إليها هذه الآيات، جاءت إلغاءً لأي عهد مع المشركين في الجزيرة العربية؛ وإمهالاً لذوي العهود ممن لم ينقضوا عهداً أبرموه مع المسلمين ولم يظاهروا عليهم وإتماماً لمدتهم، وانتهاءاً لمبدإ التعاقد أصلاً معهم بعد ذلك، وإزالةً لكل عائق يحول دون مضي المسلمين في دعوتهم وعبادتهم، وبناء مستقبلهم الرسالي.. جاءت هذه السورة، وخاصةً في مقطعها الأول حتى نهاية الآية الثامنة والعشرين معلنةً البراءة المطلقة من المشركين، مستنكرةً أن يكون للمشركين عهد عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله حاثّةً لا فقط على مقاطعتهم بل على قتالهم، حاسمة الموقف معهم بعيداً عن حالة التخوّف والتردد التي اتصفت بها طائفة من المسلمين.

وقد ختم هذا المقطع بالآية: ﴿... إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ...﴾ وهي واحدة من أدوات حاسمة، لإرساء موقف جديد ضدَّ مشركي الجزيرة العربية، لا يتمثل فقط بفرض المقاطعة عليهم، بل بوضع جدار فاصل بين المسلمين وبينهم .. بأن تشير إلى عقيدتهم الفاسدة: الشرك، والذي بسببه نجست نفوسهم، وفيه من التعبير البديع المصور المجسم لهم، حتى لكأنهم بأرواحهم وماهيتهم وكيانهم: النجس يمشي على الأرض، فيتحاشاه المتطهرون، ويتحاماه الأتقياء من الناس.. عبر النهي الوارد في الآية؛

والذي وإن كان موجهاً إلى المشركين، إلا أنّ المقصود منه نهي المؤمنين عن تمكينهم من المسجد الحرام، بأن لا يحجّ المشركون، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو العام التاسع من الهجرة..[1] كما أنه نداءٌ للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليباشروا تنفيذ هذا التكليف بأنفسهم، زيادةً في رسوخه وتجذيره وفاعليته والتزامهم به؛ وبالتالي "يضع بين المسلمين والمشركين حاجزاً نفسيّاً، يبرّر كلّ التعاليم الشديدة في مقاطعتهم لهم، والبراءة منهم، ومواجهتهم بالقتال، فإنّ الشرك يمثل في إيحاءاته ونتائجه العملية القذارة المعنويّة، ويوحي بقذارةٍ روحية، تجعل الإنسان المشرك يعيش في وسخ الفكر والروح والشعور عندما تعيش روحه في آفاق الأصنام لتنسحق أمامها، وعندما يختنق فكره في داخل الصنميّة لينتن في مستنقعاتها، وعندما يتحرك شعوره في قوالب جامدةٍ من الحجر والخشب واللحم والدم، ليس فيها شيء من حيويّة الحياة، ونقاء السموّ، وحركة الإشراق".[2]

إنّ دراسة البعد التاريخي للوضع القائم يومذاك ينفع كثيراً، وقد يلقي الضوء على الحالة السائدة، وبالذات الاجتماعية، ومدى سعة الأواصر بينهم أفراداً كانوا أو أُسراً أو كيانات وقبائل، فقد كانت العلاقات بكلّ مفاصلها بدرجة واسعة بينهم.

---

١. تفسير الوسيط في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي (ت ١٤٣١ هـ).

٢. من وحي القرآن : الآية.

يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه: «إن إبتلاء المسلمين بالتعايش مع أصناف من الكفار في المدينة وغيرها على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله كان على نطاق واسع، واختلاطهم مع المشركين كان شديداً جداً، خصوصاً بعد صلح الحديبية، ووجود العلائق الرحمية وغيرها بينهم...».[1]

وبما أنّ المسجد الحرام يشكل مكاناً مقدساً ومباركاً، وموضع اهتمام عرب الجزيرة، حين هم موحدون، وحين انحرفت عقيدتهم فصاروا مشركين، وحين تمكن الإسلام منهم بعد الفتح، ظلَّ مركزاً ذا قيمة عالية وأهمية كبيرة؛ مَن يضع يده عليه تكن له مكانة بين العرب وقبائلهم، وقد منَّ الله تعالى على قريش بهذه المزية، أنّ أعظم شأنهم في عيون من حولهم من قبائل العرب وغيرهم، إلاّ أنهم لم يرعوا هذه العطية، فأشركوا وآذوا رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبعه من المسلمين أيما إيذاءٍ، ووقفوا بوجه رسالة الله تعالى بعنادٍ خطير، وبقوا على شركهم، فكانت عاقبتهم القتل وإلغاء أي علاقة معهم، واستبدالهم بمن يحمل ديناً طاهراً خالياً من مشاريع التسلط والظلم والتعسف، بمن يتوفر على عقيدة تمدُّ يدها إلى الجميع لانتشالهم من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الذل إلى العزّ... فمن اهتدى فقد حظي بخير عميم، وإلا فهم على معتقداتهم

---

١. شرح العروة الوثقى : ٢٤٢.

وسوء فعالهم نجسٌ كما وصفتهم الآية، أي: ليسوا إلاّ أنجاساً فاسدي الاعتقاد، يشركون بالله ما لا ينفع ولا يضر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدينون بالخرافات والأوهام، ولا يتنزهون عن النجاسات ولا الآثام، ويأكلون الميتة والدم من الأقذار الحسية، ويستحلون القمار والزنا من الأرجاس المعنوية، ويستبيحون الأشهر الحرم. وقد تمكنت صفات النجس منهم حسّاً ومعنًى حتى كأنهم عينه وحقيقته، فلا تمكنوهم بعد هذا العام أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم فضلاً عن دخول البيت نفسه، وطوافهم عراة فيه، يشركون بربّهم في التلبية، وإذا صلوا لم تكن صلاتهم عنده إلاّ مكاءً وتصدية...[1]

ومن كانت هذه معتقداته وسيرته، فهو ليس جديراً بالتقرب من الحرم المبارك، فضلاً عن دخول مسجده، وأداء أي شيءٍ فيه، أو القيام بأي شأن من شؤونه ووظائفه.. ولعلَّ وصفهم بأنهم: ﴿نَجَسٌ﴾، هو وسيلة مانعة وسدٌّ وضعته السماء بين طائفة الإيمان خاصةً وهي ما زالت في بدايتها وقد تكون ضعيفة التدين، وبين طائفة الشرك، وهو حاجزٌ نفسيٌّ بين الذين آمنوا وبين الذين استبد بهم الطغيان، فالتزموا بشركهم وعدائهم للساحة المؤمنة، وبالتالي ﴿نَجَسٌ﴾، هو نوع مقاطعة لهؤلاء، ويذكرني هذا ـ إن كنت موفقاً فيما أرى ـ بموقف النبيِّ موسى عليه السلام من

---

١. محمد رشيد رضا في تفسير المنار : الآية.

السامري، حين فرض تلك المقاطعة عليه؛ لخبث سيرته، وفساد معتقده، ولما قد يتركه مَن هذه صفاته من آثار على الساحة المؤمنة والجماعة المسلمة، وهي في أوليات بنائها الإيماني والروحي:

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾[1] أي ـ اذهب مطروداً لا يمسك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحداً ـ وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى. عقوبة العزل، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً. أن لا يخالطوه ولا يجالسوه ولا يؤاكلوه ولا يبايعوه وغير ذلك مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات تضييقاً عليه، وإبعاداً له عن الساحة ...

لقد عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته، وكلّ ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً...[2]

إنَّ اللفظ ﴿نَجَسٌ﴾ لم يرد ولا مشتقاته في غير هذه الآية من التنزيل العزيز. وفي هذه المناسبة فقط، ومع هذا فقد شكل مفهوم النجاسة وسيلة من تلك الوسائل لمعالجة ذلك الواقع في مكة وغيرها، حين قررت السماء عزل المشركين وإبعادهم عن مراكز الطهارة، التي يعتني به الدين ويحافظ

---

١. طه : ٩٧.

٢. في ظلال القرآن، للسيد قطب؛ تفسير الكشاف، للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ روح المعاني، للآلوسي : الآية.

عليها ويدعو لها، ففيما النجاسة ذكرت في التنزيل العزيز مرّةً واحدة لا غير، فقد وردت الطهارة إحدى وثلاثين مرّةً في القرآن الكريم، وهنا لا بدَّ لي من الإشارة إلى أنَّ مفردة النجاسة نادر ورودها حتى في الروايات، وهو ما ذكره السيد الشهيد الصدر رحمه الله: «... نلاحظ أنَّ مجيء لفظ "النجاسة" في مجموع الأحاديث المنقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله إما معدوم وإما نادر جدًّا، لا في طرقنا فقط، بل حتى في روايات العامة، التي تشتمل على ستمائة حديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله في أحكام النجاسة، ولم أجد فيها التعبير بعنوان النجس إلا في روايتين: في إحداهما نقل الراوي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الهر ليس بنجس»، وفي الأخرى: نقل أنّ صحابياً واجه النبيَّ وهو جنب فاستحى وذهب واغتسل واعتذر من النبيّ فقال صلى الله عليه وآله: «سبحان الله إنّ المؤمن لا ينجس». وهذا يكشف عن ضئالة استعمال لفظة النجاسة ودورانها في لسان الشارع، ...».[1]

ولعلّ هذا تأكيد واضح على مدى دقة الإسلام في التعاطي مع مفهومي الطهارة و النجاسة، وبقدر ما تعنيه الطهارة من سمو ونبل..، فإنّ النجاسة تؤكد على الخسّة والوضاعة.. ولهذا اعتبرت الطهارة هي المطلب الأساس للوقوف بين يدي الله تعالى، وقامت أسس البيت الحرام بل

---

١. شرح العروة الوثقى ٣ : ٢٥٩.

الحرم كلُّه عليها حين أمر الله تعالى إبراهيم وابنه إسماعيل وألزمهما بتطهيره:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[1]

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[2]

مما يعني أنَّ طهارة البيت وعمارته.. لا تتمّ إلاّ بأيدٍ نظيفة وقلوبٍ لا تحمل خبث الشرك وقذارته وكيده... وما يُؤدى فيه من أعمال عبادية كمناسك الحج والعمرة والصلاة، لا تصحُّ إلاّ من الموحدين، فهم الذين يتقربون بها إلى الله تعالى وحده لا شريك له، فيما المشركون عقيدتهم ملوثة بالشرك وهي بالتالي غير خالصة لأن تعبد الله وحده، دون أن تضع له شريكاً أو شركاءَ شرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله...

يقول ابن عاشور عن المقصود بوصفهم بهذا الوصف لهم في الإسلام هو: تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير.

ثمَّ يقول: ولا شكّ أنّ خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ...

---

١. الحج : ٢٦.

٢. البقرة : ١٢٥.

وقد فرّع على نجاستهم بالشرك المنع من أن يقربوا المسجد الحرام، أي المنع من حضور موسم الحجّ بعد عامهم هذا...[١]

ويقول سيد قطب: "وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصبّ النهي على مجرد القرب منه، ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور!".[٢]

حقّاً "إنّ للفكر طهارته التي تحوّل الإنسان إلى ينبوعٍ ثرٍّ متجدّدٍ يتفجر بروحيّة العطاء وحيوية الحياة، حتى لتشعر أمامه، وأنت تتمثل الكيان الذي يحتويه، بالانجذاب إليه، كما لو كان شيئاً يضمّ روحك بروحه، ويحتوي شعورك في شعوره، وتحس معه بأنّ كل شيء فيه نظيفٌ، لأنه يتحرك من موقع النظافة الداخليّة التي لم تقترب إليها أوساخ الأخلاق والمشاعر والحركات الخارجية، وأيّة طهارة أروع من نهر الإيمان عندما يتدفق في فكر الإنسان وقلبه، فيعيش الإنسان فيه مع الله؛ مصدر النقاء في كل شيء، وسرّ الطهر في كل حياة، وهكذا يتصل بالأشياء وبالحياة والإنسان، من مواقعها الفطرية الطبيعيّة التي تنطلق من أعماق الوجدان الحيّ الصافي، وكما هو الإيمان يمثّل عمق الطهارة وحقيقة النقاء وينبوع الصفاء، فإنّ الشرك يمثّل النقيض من ذلك، إنه يمثل قذارة

---

١. تفسير التحرير والتنوير : الآية.

٢. في ظلال القرآن : الآية.

الرواسب المتعفنة من خلال ظلمات السنين وأوحال التاريخ التي يعيش معها الإنسان عفن الفكر والروح والشعور".[١]

وهذا القشيري (ت ٤٦٥ هـ) في تفسيره لطائف الإشارات، والذي يمكن اعتباره أول تفسير صوفي كامل، يقول بعد أن يذكر الآية: فقدوا طهارة الأسرار بماءِ التوحيد؛ فبقوا في قذورات الظنون والأوهام، فَمُنِعُوا قُربانَ المساجدِ التي هي مشاهدُ القرب. وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما يُبَيِّنُهُ مِنَ الأمر ويُمضِيه من الحُكْم...[٢]

علتان أو ثلاث:

لهذا فقد ذكروا أنَّ لإبعاد المشركين وإقصائهم عن المسجد الحرام عللاً مستفادةً من التنزيل العزيز، وهي:

أولاً: الشهادة، أي أنّهم شهدوا على أنفسهم بالكُفر، كما في سورة التوبة:

---

١. من وحي القرآن، للسيد فضل الله : الآية.

٢. وانظر إشارةً أخرى في تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.[1]

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك، ومثل سجودهم للأصنام، وعبادتهم للأوثان، وطوافهم بها، ووضعهم إيّاها في جوف الكعبة وحولَها وعلى سطحها، وأيضاً بتكذيبهم للقرآن الكريم، وبإنكارهم لنبوة خاتم النبيين محمدﷺ وبمؤآمراتهم عليه وحربهم له...

ثانياً: النَجاسة، ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، إذن فلشركهم أولاً ولنجاستهم ثانياً، فهم ليسوا أهلاً لتعمير المسجد المبني أساساً للتوحيد، كما ليسوا أهلاً لأن يعمروا المسجد لطهارته.

فيما ذكر السمرقندي (ت ٣٧٥ هـ) ما قد يصلح أن يكون علّةً ثالثة وهي الحرب، حيث يقول: وهذه الآية نزلت في شأن أهل الحرب. أنهم لا يدخلون المسجد الحرام بغير أمان، ولا يكون لهم ولاية البيت، وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: لا يدخلون المسجد الحرام إلا برق أو عهد.[2]

---

١. التوبة : ١٧.

٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ وتفسير بحر العلوم : الآية.

من هم المشركون ؟

بعيداً عن البحث الكلامي، فهو المتكفل بحقيقة الشرك ومن هو المشرك، ومراتب الشرك، التي منها الشرك في الطاعة والعبودية، وأسوؤها وأقبحها أن ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، وهذا هو الشرك في الألوهية.. ونكتفي بإيجاز الشرك لغةً وشرعاً وفي التنزيل العزيز:

الشرك لغةً، من أشركه في أمره: أدخله فيه، وهو مأخوذ من المشاركة وهو ما كان اثنين فصاعداً.

وشرعاً يقال: أشرك بالله: جعل له شريكاً وندّاً ..

وفي التنزيل العزيز آيات؛ منها:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[1] أي لا تعدل بالله شيئاً في العبادة..

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[2]

تنبيه على أنه هو الذي خلقهم والذي رزقهم دون من جعلوه نِدّاً له من الأوثان، ثم زجرهم عن أن يجعلوا له ندّاً.. والندّ: الشبه، يقال: فلان ندّ فلان، ونديده: أي مثله وشبهه، قال ابن عباس: الأنداد: الأشباه. وكل

---

١. لقمان : ١٣.

٢. البقرة : ٢٢.

شيء كان نظيراً لشيء وشبيهاً فهو له ندٌّ حتى روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لمن قال له: ما شاء الله وشئتَ: «أجعلتني لله نداً؟!»؛ فكلا الآيتين تحملان نهياً وزجراً عن اتخاذ شركاء مع الله وأنداداً له بأي وجه من الوجوه، وهو بيان مع وجازته شاف واضح عن حقيقة الشرك في القرآن الكريم، لا لبس فيه ولا غموض... كما أنّ التنزيل العزيز في آيات عديدة بيّن عظمة وخطورة هذا الشرك، ومن هذه الآيات، الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. أنّ جعله ذنباً عظيماً فهو تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحقّ إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها. وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودل عليه الحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾.[1] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

---

١. الأنعام : ٨٢ .

٢. ابن عاشور، في التحرير والتنوير : الآية، ١٣ لقمان. وانظر الآية، ٤٨ النساء، والآية:٧٢ المائدة.

هذا، وقد عرف أهل مكة وغيرها بعبادة الأصنام والأوثان، وجاء قوله تعالى: مرّةً يسمي أوثانهم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.[1]

و لا تخلو هاتان الآيتان، وكذا الآيات: ٢١ ـ ٢٢ ـ٢٣ من سورة النجم، من تقريع للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مضاهاةً للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام.. فكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.. وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون: مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.. وأنهم قرأوا: اللات، بتشديد التاء، وفسّروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات، عكفوا على قبره، فعبدوه.. وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها؛ كما قال أبوسفيان يوم أحد: لنا العُزّىَ ولا عُزّىَ لكم! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»... حتى اعتاد بعض ألسنتهم ذكرها والحلف بها

---

١. النجم ١٩ ـ ٢٠.

وإن أسلموا، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله...».[١]

فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك؛ وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بئس ما قلت! قلت هجراً!. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وانفث عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لاتعد».

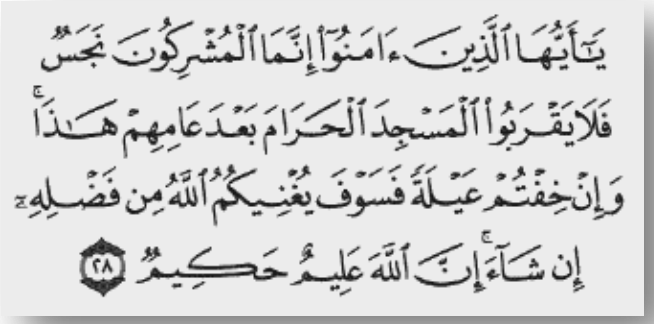
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ
إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

وأما مناة، فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة.

---

١. صحيح البخاري ٦ : ٥١.

وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نصّ عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر؛ لأنها أشهر من غيرها. قال ابن إسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده، فكانت لقريش، ولبني كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم،.. جميع هذا قبل أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بهدمها...[1]

وأخرى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة، فيقول لهم:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾، أي من تلقاء أنفسكم، ﴿مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة؛ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلأَنفُسُ﴾، أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظّ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَى﴾، أي ولقد

---

١. تفسيرالقرآن الكريم، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)؛ بتصرف وتلخيص.

أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

وثالثة يخاطب مشركي مكة مبيّناً عاقبة فعلتهم هذه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.[١]

الخطاب لأهل مكة وإنما كانوا يعبدون الأصنام حتى روي أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً...[٢]

هذه أقوال عديدة، لم يكتفِ بعضها بالوثنيين، بل وسع دائرة الشرك لتشمل غيرهم، وقد أوجزناها بالتالي:

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، هم عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار.

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، هم جميع أصناف الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى.

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، هم من ليس له عهد وهو مذهب الكوفيين، وهو أحد قولين يذكرهما النحاس في معانيه...[٣]

---

١. الأنبياء : ٩٨.

٢. مجمع البيان، للطبرسي؛ وتفسير ابن كثير: الآية.

٣. تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (ت ٧٢٥ هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيب، الرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ معاني القرآن ٣ : ١٩٥.

وقفة مع أهل الكتاب: اليهود والنصارى

فلقولٍ صدر منهم، وهو ما تحدثت عنه الآية: ٣٠ التوبة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتْ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

و ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ...﴾.[١] ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.[٢]

ولفعلٍ فعلوه، وهو ما تحدثت عنه الآية: ٣١ التوبة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ولما يشعر به قوله تعالى لعيسى بن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾.[٣] فهم مشركون!

هذه الآيات ضمن أدلة استدل بها من يذهب إلى إدخال أهل الكتاب في دائرة الشرك والمشركين، وسيأتينا قول السيد البجنوردي ضمن فقرة اختلاف آخر.

---

١. المائدة : ٧٢.

٢. المائدة : ٧٣.

٣. المائدة : ١١٦.

فيما راح فريق ثانٍ يُناقش ذلك، وأنَّ مفردة المشركين مختصّة بعبدة الأوثان دون غيرهم من أهل الكتاب؛ للمغايرة الحاصلة من عطف مفردة المشركين على أهل الكتاب في الآية:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

البينة :١، وكذا الآيات: ٦ البينة، ١٠٥ البقرة، والآية ١٧ الحج.

وللتبادر من معنى الشرك وهو من اعتقد إلهاً مع الله، وقد ورد في أخبارنا أنّ معنى اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله امتثالهم أوامرهم ونواهيهم لا اعتقادهم أنهم آلهة.

وكذا قال صاحب الجواهر رحمه الله في كلامه عن الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾،[1] «فيتوجه عليه منع دخول الكتابية في المشركة؛ لأن المتبادر من الشرك في إطلاق الشرع غير أهل الكتاب، كما يؤيده عطف المشركين على أهل الكتاب وبالعكس في كثير من الآيات...».

ثمَّ يقول: «وهذا لا ينافي اعتقادهم ما يوجب الشرك، إذ ليس الغرض نفي الشرك عنهم، بل عدم تبادره من إطلاق لفظ المشرك».[2]

---

١. البقرة : ٢٢١.

٢. جواهر الكلام ٣٠ : ٣٥.

كما احتمل **السيد الإمام الخميني** رضوان الله تعالى عليه، أنّ المراد من مفردة المشركين في الآية هم **مشركو العرب، أي الوثنيين**، جاء هذا ضمن كلام سماحته التالي: «... وكيف كان لا يمكن لنا إثبات الشرك لجميع طوائفهم، ولا إثباته لليهود مطلقاً. وليس في قول النصارى: "ثالث ثلاثة" إشعار بأنّ اليهود قائلون: إنه ثاني اثنين، ومجرد القول بأنّ عزيراً ابنُ الله لا يوجب الشرك وإن لزم منه الكفر، مع أنّ القائلين بذلك ـ على ما قيل ـ طائفة منهم قد انقرضوا».

وعن المجوس يقول السيد الإمام رحمه الله: «وأما المجوس فإن قالوا بإلهية النور والظلمة أو يزدان وأهرمن فهم مشركون داخلون في إطلاق الآية الكريمة، مع احتمال أن يكون المراد بالمشركين في الآية هو مشركو العرب أي الوثنيين، كما أنّ الطبيعيين من الكفار والمنتحلين إلى الإسلام خارجون عن الشرك، فالآية الشريفة غير وافية لإثبات تمام المدعى، أي نجاسة تمام صنوف الكفار...».[1]

اختلاف آخر: لقد وقع اختلاف آخر في المشركين، هل هم من سكنة مكة أو هم خارجها، أو منهما معاً؟ فقد ذهب الفقيه الشيخ الهمداني

---

١. جواهر الكلام، للشيخ محمد حسن الجواهري ٦ : ٤٢-٤٣؛ والقواعد الفقهية للسيد البجنوردي ٥ : ٣٣٣؛ و مدارك الأحكام، للسيد محمد الموسوي العاملي ٢ : ٤٤؛ وكتاب الطهارة ٣ : ٢٩٨، للسيد الإمام الخميني رحمه الله.

(ت.١٣٢٢هـ) إلى: «أنَّ المتبادر من الآية بشهادة سياقها مشركو أهل مكة التي أُنزلت البراءة من الله ورسوله منهم ومنعوا من قرب المسجد الحرام فلا يجوز التعدي عنهم إلا بتنقيح المناط، أو عدم القول بالفصل، ولا يتمُّ شيءٌ منهما بالنسبة إلى أهل الكتاب».[1]

لكن السيد البجنوردي ذهب إلى أنهم خارج مكة، ولم يكتفِ بعجبه في معرض ردّه على ما ذكره الهمداني:

والعجب من المحقق الفقيه الهمداني أنه قال في مصباح الفقيه: «إنّ المتبادر من الآية بشهادة سياقها مشركو أهل مكة التي أنزلت البراءة من الله ورسوله منهم ومنعوا من قرب المسجد الحرام». مع أنّ الآية في مشركي خارج مكة لقوله تعالى بعد هذه الجملة: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾، أي خفتم للفقر والنقص في معاشكم من ناحية عدم إتيانهم إلى الحج وإلى مكة، وعدم انتفاعكم بما يأتون به من الأجناس والأموال، التي كانت معهم للبيع والشراء معكم، وكان أهل مكة خافوا انقطاع المتاجر عنهم بمنع المشركين من دخول الحرم، فوعدهم الله تعالى بأنه جلَّ شأنه سوف يغنيهم من فضله، وهو تبارك وتعالى وفيٌّ بوعده، وكان يحمل الميرة إليهم من أنحاء العالم.

---

١. مصباح الفقيه ١ : ٥٥٨.

لم يكتف بهذا، بل وانطلاقاً من كون كلمة ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾، جمعاً معرفاً باللام، وأنّ العبرة بعموم الكلام لا بخصوصية المورد،... استفاد السيد من ذلك عنواناً عاماً وسّع به الدائرة؛ ليشمل لا فقط مشركي خارج مكة، بل كلّ من ينطبق عليه العنوان المذكور؛ من كان منهم في مكة وفي سائر القبائل العربية، الذين يأتون إلى الحج ويدخلون المسجد الحرام للطواف حول الكعبة، وأولئك كلهم كانوا عبدة أصنام، وكلّ أصناف الكفار والمشركين بما فيهم الكتابيّون...

وجاء هذا في ردّه على الإشكال الرابع الذي ذكره والقائل: إنّ المراد بالمشركين هم المشركون في ذلك الوقت أي مكة وسائر القبائل العربية الذين يأتون إلى الحج ويدخلون المسجد الحرام للطواف حول الكعبة، وأولئك كلهم كانوا عبدة الأصنام، والكتابيون لا يحجون في ذلك الوقت وإلى الآن هم كذلك،... وفيه أنّ العبرة بعموم الكلام لا بخصوصية المورد، فإذا كان المشركون له العموم من جهة ظهور الجمع المعرف باللام في العموم لجميع الأفراد التي يصلح للانطباق عليها، فورودها في مورد قسم خاص من المشركين لا يضر بالاستدلال بعمومها.[1]

---

١. القواعد الفقهية ٥ : ٣٣٧.

و من العامة من ذهب إلى أنها خاصة في عبدة الأوثان كأبي حنيفة، كما صاحب تفسير البحر المديد الذي ذكر أنها نصٌّ على منع المشركين ـ وهم عبدة الأوثان ـ من المسجد الحرام، وهو مجمع عليه.

ولكن كيف هو مجمع عليه؟

وهو يذكر أنَّ مالكاً قاس على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

فيما الشافعي ذهب إلى أنها عامة في الكفار.[1]

إذن فهناك من أدخل جميع الكفار للقياس وللعموم في مصطلح المشركين، وللأولوية أي بما أنّ المشركين نجس، وهم لا ينكرون الله سبحانه، وإنما: ﴿... ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى...﴾.[2]

حين عمدوا إلى أصنامٍ راحوا يعبدونها؛ اعتقاداً منهم أنها تقربهم إليه تعالى، وتشفع لهم عنده في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد، فكانوا جاحدين له، كافرين بمنازل الآخرة ..، فبطريق أولى يحكم بنجاسة من ينكر الله سبحانه.

---

١. تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (ت٥٤٦ هـ)؛ تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت١٢٢٤هـ).

٢. الزمر : ٣.

ولكن هل جميع مراتب الشرك ـ وللشرك مراتب متعددة لا يخلو منها غير المعصومين وقليل من المؤمنين...ـ داخلة في هذا الإطلاق؟ وأيضاً يشملها: ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، فيمنع المرائي. فصدق المشرك على المرائي أوضح من صدقه على اليهود بواسطة قولهم عزير ابن الله، وقد أُطلق عليه المشرك في جملة من الأخبار، مع أنه لا يعمّه الإطلاق قطعاً...[1]

ولازم ذلك نجاستهم، على مبنى من يرى النجاسة! أللهم إلاّ أن يُقال: إنَّ الشرك المراد هو شرك العقيدة، وهو الذي يؤدي إلى الكفر، لا شرك العمل كما يفعله المرائي، وبالتالي مثل هذا النوع من الشرك لا ينتهي إلى الكفر، ولا يكونون داخلين في عموم المشركين...

ثمَّ إنّ السيد الخوئي رحمه الله يذكر أنه: «لا مناص من أن يُراد بالمشرك مرتبة خاصة منه وهي ما يقابل أهل الكتاب... وأنّ ظاهر الآيات الواردة في بيان أحكام الكفر والشرك ـ ومنها هذه الآية ـ أنّ لكلّ من المشرك وأهل الكتاب أحكاماً تخصّه، مثلاً لا يجوز للمشرك السكنى في بلاد المسلمين ويجب عليه الخروج منها، وأما أهل الكتاب فلا بأس أن يسكنوا في بلادهم مع الالتزام بأحكام الجزية والتبعية للمسلمين، فحكمهم حكم المسلمين وغير ذلك مما يفترق فيه المشرك عن أهل الكتاب، ومنه تبريّه

---

١. التنقيح، للسيد الخوئي، كتاب الطهارة ٢ : ٤٣-٤٤؛ مصباح الفقيه، للشيخ الهمداني :٥٥٧ – ٥٥٨.

سبحانه من المشركين دون أهل الكتاب، ومعه كيف يمكن أن يقال: إنَّ المراد من المشركين في الآية أعم من أهل الكتاب؟ فإنّ ظاهرها أنّ المشرك في مقابل أهل الكتاب».[1]

وتتمّة كلامه تأتينا.

كذلك وبقراءة دقيقة للآيات التي تتحدث عن المشركين والبراءة منهم وعما يتعلق بهم من عهود وغيرها، التي وردت سبع مرات في العديد من آيات هذا المقطع: ١ـ ٢٨ من سورة التوبة، وانتقال الكلام في الآية: ٢٩وبعدها للحديث عن أهل الكتاب، تصلح أن تكون أيضاً قرائن على أنَّ الذين قصدوا بالمنع أو القرب من المسجد الحرام هم الوثنيون، أو هم القدر المتيقن، سواء أكانوا من أهل مكة أو غيرهم ممن هم خارجها، فهؤلاء هم المعنيون ببراءة، وقد قرئت وتمَّ تبليغهم بنصوصها الأربعة من قبل الإمام عليٍّ عليه السلام في مواقع الحجّ، وهي أماكن تواجد الوثنيين دون الكتابيين، فهم لا يقدسون الكعبة ولا يدخلون المسجد الحرام أصلاً، أو يتنسكون به وبمواقع الحج والعمرة... فقد "جعل الشرك ملاكاً لمنع المشركين من الاقتراب إلى المسجد الحرام، فإنّ وضوح أن من يقصد بهذا المنع ـ عملياً ـ هم المشركون الوثنيون، دون الكتابيين الذين لا يقدسون الكعبة أصلاً، وليسوا في معرض الوصول إليها، قد يشكل قرينة على

---

١. المصدر نفسه.

ذلك، وكذلك ما تصدى له النصّ القرآني عقيب ذلك من تطمين أهل مكة بقوله:

﴿**وإن خفتم عيلة...**﴾ فإنّ العيلة إنما تخاف بسبب تحريم مجيء المشركين الوثنيين الذين اعتادوا المجيء. ويكفي على أي حال افتراض تكافئ المعنيين في إجمال الآية الكريمة...".[1]

وحتى لو وجدوا في مكة فلا يشكل وجودهم ظاهرةً كبيرة، فهم لم يكونوا من سكنة الحرم دواماً والماكثين فيه طويلاً، وإن دخلوا الحرم فإنّ دخولهم عابر أو موقت، فقد "سكن اليهود مواضع شتّى من الجزيرة العربيّة منها يثرب وخيبر ووادي القرى وفي اليمن واليمامة والعروض، وكان تجار منهم يقيمون في مكّة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب قصد الاتّجار وإقراض المال..".

ومصادر التاريخ تحدثنا أنَّ المسيحيّة أيضاً ومن خلال الحركة التبشيرية التي تميزت بها ـ وما زالت حركتها تتصف بالنشاط والسعة حتى يومنا هذا ـ قد أثّرت في الجزيرة العربيّة، ولكن دون الحجاز الذي حافظ على خصوصيته الوثنيّة، أو بالأحرى باستثناء مكّة والقبائل الدائرة في فلكها كغطفان وهوازن وعامر بن صعصعة وثقيف. وهذا لا يعني أنها لم تجد لها موطن قدم في مكّة خاصّة بني أسد بن عبد العزّى، ومنهم

---

١. السيد الشهيد الصدر رحمه الله في شرح العروة الوثقى ٣ : ٢٦٢.

عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل.. وعبر وجود العديد من الموالي والعبيد المسيحيين عند بعض أثرياء قريش كعداس خادم عتبة وشيبة ابني ربيعة، والجواري لدى بني مخزوم وغيرهم إضافةً إلى بعض الأحباش، ولا نغفل عما كان لتجّار قريش من علاقات وطيدة بالمسيحيين من أهل الشّام والعراق.. وعما كان للمسيحيّة من ثقل كبير، وهي تحاصر الجزيرة العربيّة والحجاز خاصّة.[١]

كما أنهم ليسوا معنيين بالمسجد عبادةً أو عمارةً أو سقايةً.. والآية ٢٨ من سورة التوبة هي من آيات هدفها منع المشركين من هذه المآثر، وما يترتب عليها من نتائج كالسلطة والمنّة على المسلمين.

نعم؛ إنّ الحجّ يعدُّ موسماً تجاريّاً ينتفعون منه كما ينتفع منه الجميع، فهم أهل تجارة وعمل بلا شك، وغيابهم أو تغييبهم عنه يترك ضرراً ويسبب عيلةً وحرجاً لأهل مكة، الذين قد تربطهم بهم مصالح وعلاقات تجارية.. ولكنَّ الأمر المهم أنّ تواجدهم لا يشكل ظاهرةً خطيرةً، ولا يسبب منعهم عن الحرم أو تغييبهم عن حضور مواسم الحج والعمرة من أجل التجارة تقليلاً لتآمرهم ومنعاً لكيدهم، فهم يستطيعون الكيد للمسلمين ولو من بعيد، وبالتالي ليسوا موضوعاً للمنع المذكور، إنما الذي هو موضوع للمنع والنهي في هذه الآية وتنيّو العرب، الذين يؤدون مناسك

---

١. تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٥٧؛ السيرة النبوية، لابن هشام١: ؛ المفصل في تاريخ العرب، لجواد علي ٦ : ٥١١، بتلخيص.

الحج والعمرة، ويتطلب هذا دخولهم المسجد والحرم، ولهم فيه مكاسب معنوية ومناقب يتفاخرون بها، ويمنون بها على الآخرين وبالذات على المسلمين، ويريدون أن يتحكموا بمصير المسلمين، من خلال زعاماتهم لبيت الله الحرام ولشؤونه ولما حوله؛ ولهذا قالت الآية: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، أي فامنعوهم عن المسجد الحرام ومن دخول الحرم، والعام الذي أشارت إليه الآية هو سنة تسع الذي نادى فيه الإمامُ عليٌّ عليه السلام ببراءة، كما ذكرنا.

النجس لغةً وإعراباً:

لها معان وموارد استعمال عديدة حتى فيما لا مفهوم للنجاسة الظاهرية فيه، وتبع ذلك قراءات مختلفة، فالنجس ضدّ الطاهر، والنجاسة هي عكس الطهارة كما هو متعارف بيننا. وبهذا المعنى استعملت في الجاهلية أيضاً. وهناك كلمة أُخرى لها معنى قريب من معناها، وهي لفظة رجس بمعنى قذر، وعن الموارد الأخرى لاستعمال النجاسة، نذكر هذا لمزيد فائدة، ولنكتشف من خلال ذكرنا لهذه الموارد أنّ كلمة ﴿نَجَسٌ﴾ قد ترددت في أكثر من معنى، ولها استعمالات كثيرة تتجاوز معنى النجاسة المتعارفة، وهو ما قد ينفع في حكم النجاسة، وفي نوعها إن كانت عرضية أو عينية أو معنوية أو غيرها... وقد تدخل كما يبدو في دائرة الإجمال.

"ومن هنا يتضح أنه مع ملاحظة ما جاء في الآية ـ محل البحث ـ ... لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على نجاسة الكفار، بل ينبغي البحث عن أدلة أخرى...". هذا ما انتهى إليه الشيخ مكارم الشيرازي، وسيأتينا كلامه مفصلاً.

فمفردة «النَجَس» مصدر، تأتي للتأكيد والمبالغة والوصف..، وفيها خَمْس لُغَاتٍ: فَتْح النُّون وكَسْرهَا، مع سُكُونِ الجيم والحَركَات الثَّلاث في الجِيم، مع فَتْح النُّون. وتَوْضِيحُه ما في العُبَاب وعبارته: النَّجَسُ بفتحتين والنَّجِسُ بفتحٍ فكسر، والنَّجُسُ بفتحٍ فضَمٍّ، والنَّجْسُ بفتحٍ فسُكون، والنِّجْسُ بكسرٍ فسُكُون: ضِدُّ الطاهِر، وقد نَجُسَ ثَوْبُه، كسَمِعَ وكَرُمَ نَجْساً ونَجَاسَةً.

ومما جاء في معاجم اللغة أيضاً: النَّجْسُ والنِّجْسُ والنَّجَسُ: القَذِرُ من الناس ومن كلَ شيء قَذِرْتَه. ونَجِسَ الشيءَ، بالكسر، يَنْجَسُ نَجَساً، فهو نَجِسٌ ونَجَسٌ، ورجل نَجِسٌ ونَجَسٌ، والجمع أَنْجاسٌ، وقيل: النَّجَسُ مصدر يكون للواحد والاثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد، رجل نَجَسٌ ورجلان نَجَسٌ ورجال نَجَسٌ وقوم نَجَسٌ، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾، وامرأة نَجَسٌ، وامرأتان نَجَسٌ، ونساء نَجَسٌ. فإذا كَسَرُوا ثَنَّوْا وجَمَعوا وأَنَّثوا، فقالوا أَنْجاسٌ ونِجْسَةٌ، وقال الفرّاء: نَجَسٌ لا يجمع ولا يؤنث. وقال أبو الهيثم في قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾؛ أي أنْجاسٌ أخباث. وفي الحديث: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا دخل الخلاء قال:

«أللهم إني أعوذ بك من النَّجس الرِّجْس الخَبيثِ المُخْبث... والنَّجِسُ: الدَّنِس.

وقد جاء أنّ الرجل إذا زنى بامرأة ثمَّ تزوّجها قالوا له: هو أنجسها وهو أحقُّ بها. وإذا وصفوا به الداءَ أو صاحبه أريد به أنه عُقَامٌ عضالٌ لا يبرأ، والناجس والنجيس داء خبيث لا دواء له.. وقال الزمخشري: أعْيَا المُنَجِّسين، حتى قال شاعرهم:

وداءٍ قَد أعْيَا بالأَطباءِ ناجِسُ

وقال ساعِدَةُ بنُ جُؤَيَّةَ:

والشَّيْبُ دَاءٌ نَجِيسٌ لا شِفَاءَ لَهُ للْمَرْءِ كَانَ صَحِيحاً صائِبَ القُحَم

أي هو داء عياء للرجل الصحيح الجلد الذي إذا تقحم في الشدائد أصاب فيها ولم يخطيء. وكذلك العبرانيون يسمون الداء العضال نجساً وصاحبه نجساً وشفاءه طهارة.

والنجس والتنجيس شيء كانت العرب تفعله كالعوذة للصبي تدفع بها العين وقد نجس له ونجسه عوّذه، ويقال للمعوذ منجّس، والمنجس ما يعلق عليه عظام أو خرق. وكان أهل الجاهلية يعلقون من خرق المحيض على الصبي ومن يخاف عليه العيون والجنَّ الأقذارَ أو ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان؛ لأنّ الجنَّ تنفر منها ولا تقربها. وأنشد العَجّاج:

ولَمْ يَهَبْنَ حُمْسَةً لأَحْمَسَا ولاَ أخَا عَقدٍ ولا مُنَجِّساً

ومن السجع قولهم:

إذا جاءَ القَدَرُ لَم يُغْنِ المُنَجِّمُ، ولا المُنَجِّسُ، ولا الفَيْلَسُوفُ، ولا المُهَنْدِس؛

ومنه قَولُ الشاعر:

وعَلَّقَ أنْجاساً عَلَيَّ المُنَجِّسُ ولو كانَ عِنْدِي كاهِنَانِ وحَارِسُ

وجارِيَةٍ مَلْبونَةٍ ومُنَجِّسٍ وطارِقَةٍ في طَرْقِها لم تُسَدَّد

يصف أهل الجاهلية أنهم كانوا بين متكَهِّنٍ وحَدَّاس وراقٍ ومنَجِّس ومتَنَجِّم حتى جاء النبيُّ ﷺ كما أنّ الجاهلين منهم بالإسلام لا يزالون يعلقون التناجيس والتعاويذ على الأولاد، لوقايتهم من الجن والعين الخبيثة من الإنس.

ومن المَعَاذَاتِ: التَّميمَةُ والجُلْبَةُ والمُنَجّسَة.

ويقال لمن فَعَلَ فِعْلاً يَخْرُجُ به عِنِ النَّجَاسَةِ: تَنَجَّسَ، كما قيل: تَأَثَّمَ وتَحَرَّجَ وتَحَنَّثَ إذا فَعَل فِعْلاً يَخْرُجُ به عن الإثْمِ والحَرَجِ والحِنْثِ. لأَنَّ للعَرَبِ أفْعَالاً تُخَالِفُ مَعانيهَا أَلْفَاظَهَا؛ يُقَال: فُلانٌ يَتَنَجَّسُ إذا فَعل فِعْلاً يَخْرُج به مِن النَّجَاسَة. وكذا يقال للمُعوَّذِ: مُنَجَّسٌ وهو مأخُوذٌ من النَّجَاسَة..

ومحمد رشيد رضا يذكر تحقيقاً مفصلاً نافعاً عن مفردة «نَجَسٌ» وموارد استعمالها، نبيّن شيئاً منه، فبعد أن يذكر أنّ "سلائل العرب لاتزال في البدو والحضر يقولون: فلان نجس، بمعنى خبيث ضار مؤذ، كما أنّ الجاهلين منهم بالإسلام لا يزالون يعلقون التناجيس

والتعاويذ على الأولاد؛ لوقايتهم من الجنّ والعين الخبيثة من الإنس، وكذلك العبرانيون يسمون الداء العضال نجساً وصاحبه نجساً وشفاءه طهارة... يخلص إلى أنّ جملة القول ـ كما يذكر ـ : إنّ لفظ النجس في القرآن جاء بالمعنى اللغوي المعروف عند العرب لا بالمعنى العرفي عند الفقهاء، وكانت العرب تصف بعض الناس بالنجس وتريد به الخبث المعنوي كالشّر والأذى، وإلا لما وصفوا به بعض الناس دون بعض، كما في قول الأساس: الناس أجناس، وأكثرهم أنجاس. ولا يطلقون النجس بمعنى القذر الذي يطلب غسله حتى إذا زال سمي طاهراً إلا فيما يدرك قذره وخبثه بالحس كالرائحة القبيحة.. فكلُّ ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنّه نجس، وكلّ من يحمل هذه الصفات يمكن وصفه بأنه نجسٌ، وهذا إن صحَّ فقد يكون نافعاً في تفسير الآية، فسيرة مشركي مكة لا تخلو من هذه الصفات، وبالذات في علاقتهم بالمسلمين يومذاك ـ والله تعالى العالم بمراده ـ .

والنجس في معجم لغة الفقهاء:

بفتح الجيم وكسرها اسم فاعل من نُجِس «بضم الجيم وكسرها» جمع أنجاس: المستقذر، ما اتصف بالنجاسة من الأشياء «ر:نجاسة»، وهو على نوعين:

نجس العين: وهو ما لا يقبل التطهير كالبول والغائط والدم والميتة والخنزير.

المتنجس: وهو ما كان غير نجس في أصله ولكنه اكتسب النجاسة من غيره، ويقبل التطهير، كالماء المتنجس، والثوب المتنجس...

وأما إعراباً فقد جاء في ذلك:

إنما: كافة ومكفوفة. وهي أداة حصر، وبما أنها كذلك فهذا يقتضي أن لا نجس إلاّ المشرك، وهو ما ذهب إليه الرازي وغيره، كما يأتينا. والمشركون: مبتدأ. ونجس: خبر. وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمثنى والجمع. ولهذا لم يقل: نجسون، والجملة ابتدائية. وقد جوّز الجوهري وكذا ابن عاشور أن يكون ﴿نَجَسٌ﴾ صفة مشبهة، ولابد حينئذٍ من تقدير موصوف مفرد لفظاً، مجموع معنًى، ليصحَّ الإخبار به عن الجمع، أي جنس نجس ونحوه.

هذه خلاصة لما جاء في تاج العروس، ولسان العرب، ومفردات الراغب، وتفسير المنار، وروح المعاني للآلوسي، والتحريروالتنوير، ومجمع البيان. وإعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش:٨٥-٨٦ ، الآية.

القراءة:

وقرأ ابن السميقع ﴿أَنْجَاسٌ﴾ على صيغة الجمع. وفي المجمع هي من الشواذ. وقرأ أبوحيوة ﴿نِجْسٌ﴾، بكسر النون وسكون الجيم، وهو تخفيف نجس، ككبد في كبد، ويقدر حينئذٍ موصوف.[1]

وعن المبالغة: وقد حصلت المبالغة في الإخبار عنهم أنهم ﴿نَجَسٌ﴾، بأمرين، وهما:

إنما

المصدر

يقول الطريحي: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ حصر أوصاف المشركين في النجس، والنجس مصدر في الأصل، تقول: نجس بكسر العين وينجس بفتحها نجساً بفتحتين فهو نجس بفتح العين وكسرها، وإذا استعمل مع الرجس كسر أوله، يقال: رجس نجس بكسر أولهما وسكون الجيم..

ثمَّ قال أيضاً: وقال بعض المحققين: وقوع المصدر خبراً عن ذي جثة، يمكن أن يكون بتقدير مضاف، والمراد ذو نجس، أو بتأويل المشتق، أو هو باق على المصدرية من غير إضمار ولا تأويل طلباً للمبالغة، فكأنهم تجسموا بالنجاسة، فالكلام مجاز عقلي.

---

١. روح المعاني، للآلوسي؛ مجمع البيان، للطبرسي : الآية.

وهذا الوجه أولى من الوجهين الأولين، كما صرح به محققو علماء المعاني في قول الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار.

وفي الحديث: «ألقوا الشعر عنكم فإنه نجس»، أي قذر..

ويقول الآلوسي: أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة.

كما أنّ الراوندي يقول: وفي الآية شيئان تدل على المبالغة في نجاستهم:

أحدهما: قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ**﴾، فهو أبلغ في الإخبار بنجاستهم من أن يقال: «**المشركون نجس**» من غير إنما، فإنّ قول القائل: «**إنما زيد خارج**» عند النحويين بمنزلة «**ما خارج إلا زيد**».

ابن عاشور: وصيغة الحصر في قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ**﴾، لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجساً، فهو للمبالغة في اتّصافهم بالنجاسة حتّى كأنّهم لا وصف لهم إلاّ النجسية.

والثاني: قوله (**نجس**) وهو مصدر، ولذلك لم يجمع، والتقدير إنما المشركون ذو نجاسة. وجعلهم نجساً مبالغة في وصفهم بذلك، كما يقال: (**ما هو الأسير**) إذا وصف بكثرة السير: فإنما هي إقبال وإدبار

وفرق بين مفردة نَجَسٌ ونَجِسٌ، فالأولى مصدر فهي عين النجاسة، فيما الثانية صفة تصيب شيئاً يمكن تطهيره... والإخبار عن الذات بالمصادر أمر شائع للمبالغة. ولا ريب أيضاً في صحة الإخبار بالتقدير أي ذو نجس، ولايختصُّ التقدير بالنجاسة العرضية، بل يصحُّ في الذاتيات

أيضاً كما يقال: الإنسان ذو نطق. هذا ويصحُّ حمل المصدر دون تقدير مضاف على المبالغة نحو زيد عدل..

وعن إنما يقول الرازي: "إنما" للحصر، وهذا يقتضي أن لا نجس إلا المشرك.

السيد الشهيد الصدر رحمه الله:

«وهو أنّ الآية الكريمة سيقت مساق حصر حقيقة المشركين بأنهم نجس بلحاظ أداة الحصر، فكأنه لاحقيقة لهم سوى ذلك، وهذا إنما يناسب النجاسة الحقيقية المعنوية لا النجاسة الاعتبارية».

والآلوسي:

أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة، أو المراد ذوو نجس لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم، أو لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، وجوز أن يكون ﴿نَجَسٌ﴾، صفة مشبهة وإليه ذهب الجوهري، ولابدّ حينئذ من تقدير موصوف مفرد لفظاً مجموع معنًى ليصح الإخبار به عن الجمع، أي جنس نجس ونحوه. ثمَّ يقول:"وتخريج الآية على أحد الأوجه المذكورة هو الذي يقتضيه كلام أكثر الفقهاء حيث ذهبوا

إلى أنّ أعيان المشركين طاهرة، ولا فرق بين عبدة الأصنام وغيرهم من أصناف الكفار في ذلك".[١]

سبب نجاستهم:

ففي سبب كونهم ﴿نَجَسٌ﴾، تعدّدت الأقوال:

فهم نَجَسٌ:

لأنّ معهم الشرك، الذي هو بمنزلة النجس.

لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يجتنبون النجاسات، فلا تنفك تلابسهم. ولو اغتسل عن الجنابة، فغسله هذا ليس بغسل، وبالتالي فهو جُنُب..

لأنهم جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغةً في وصفهم بها.

وصفوا بالنجس، مجازاً عن خبث الباطن وفساد العقيدة. أو المراد ذوو نجس؛ لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم.

لأنّ علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاسُ، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس.

---

١. الطريحي، في مجمع البحرين ١ : ٦٤؛ والآلوسي، في روح المعاني: الآية؛ والراوندي، في فقه القرآن ١: ٦٤؛ ومهذب الأحكام، للسبزواري ١ : ٣٥٥؛ تفسير الرازي: الآية؛ الطهارة، العروة الوثقى، للشهيد الصدر: ٢٦٣. وانظر أيضاً تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ).

.. ما المشركون إلاّ رجس خنزير أو كلب. وبعد أن يذكره الطبري في تفسيره يقول عنه: وهذا قول رُوي عن ابن عباس من وجه غير حميد، فكرهنا ذكره.[١]

أي نوع من النجاسة؟

وقع الاختلاف أيضاً بينهم في النوع المراد من النجاسة المذكورة في الآية، يتضح هذا من خلال ما ذكروه من أنواع:

فمما جاء حول مفردة ﴿نَجَسٌ﴾، في تاج العروس من جواهر القاموس: ... قال الرّاغبُ في المُفْرَدات وتَبعَه المصنِّفُ في البصائر: النَّجاسَةُ ضَرْبَان:

ضَرْبٌ يُدْرَكُ الحَاسَّةِ. وضَرْبٌ يُدْرَك بالبَصِيرَةِ. وعلى الثّاني، وَصَفَ اللهُ به المُشْرِكِينَ فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فالنجاسة والنجس يطلقان على كلِّ قذارة: قذارة حسيّة، وقذارة باطنية.

وعن هذا جاء في تفسير المنار: وظاهر كلام الراغب وغيره أنّ إطلاق النجس على القذر والخبث الحسي والمعنوي حقيقة فيهما وهوالذي أفهمه، ومنه المعاصي والداء العضال... قال: ومن المجاز الناس

---

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري (ت٣١٠ هـ)؛ تفسير الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ت٦٧١ هـ)؛ تفسير الكشاف، للزمخشري (ت٥٣٨ هـ)؛ وروح المعاني، للآلوسي؛ وتفسير الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت١٠٩٠هـ).

أجناس، وأكثرهم أنجاس، ونجسته الذنوب ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ وتقول: لا نرى أنجس من الكافر، ولا أنجس من الفاجر.[١]

وأيضاً اختلفت أقوالهم مفسرين كانوا أم فقهاء، نُوجز ما ذكروه، ولمن يستزيد فعليه بمصادر ذلك.. فقد وقع كلام بينهم في أنّ النجاسة التي وصف بها المشركون بين كونها: نجاسة مادية؛ كالتي تعلق بالأجسام والملابس وبغيرها، وتطهر بالطريقة المتعارفة.

نجاسة معنوية: فقد ذهب إليها السعدي (ت١٣٧٦هـ) وهو من علماء الحنابلة: ﴿نَجَسٌ﴾، أي خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ، ممن كان يعبد مع الله آلهة... فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم... وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإنّ الكافر ـ كغيره ـ طاهر البدن، بدليل أنّ الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تَقَذُّرَهُم من النجاسات، وإنما المراد نجاستهم المعنوية بالشرك، فكما أنّ التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.[٢]

---

١. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ١٦: ٥٣٤؛ وتفسير المنار: الآية.

٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: الآية.

وسيد قطب حيث يقول: "﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ يجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم. فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها. إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم".

و ابن عاشور: و ﴿نَجَسٌ﴾؛ صفة مشبهة، اسم للشيء الذي النجاسة صفة ملازمة له، وقد أنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنّها نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية. ثمَّ يقول: والنجاسة المعنوية هي اعتبار صاحب وصف من الأوصاف محقّراً متجنَّباً من الناس، فلا يكون أهلاً لفضل مادام متلبّساً بالصفة التي جعلته كذلك، فالمشرك نجَس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسده نظيفاً مطيّباً لايستقذر، وقد يكون مع ذلك مستقذرَ الجسد ملطخاً بالنجاسات؛ لأنّ دينه لا يطلب منه التطهّر، ولكن تنظّفهم يختلف باختلاف عوائدهم وبيئتهم. والمقصود من هذا الوصف لهم في الإسلام تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير، ولا شكّ أنّ خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أوجب الغسل على المشرك إذا أسلم انخلاعاً عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسّيّة لإزالة خباثة نفسه، وإنّ طهارة الحدث لقريب من هذا.

وجاء في فقه السنة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فالمراد به نجاستهم المعنوية من جهة اعتقادهم الباطل، وعدم تحرّزهم من الأقذار

والنجاسات، لا أنّ أعيانهم وأبدانهم نجسة، وقد كانوا يخالطون المسلمين، وترد رسلهم ووفودهم على النبيّ صلى الله عليه وآله ويدخلون مسجده، ولم يأمر بغسل شيء ممّا أصابته أبدانهم.[١]

وفي معرض الردّ على من استدل بالآية: ٢٨ التوبة، على النجاسة العينية، ذُكر في نيل الأوطار: "وأجاب عن ذلك الجمهور... بأنّ المراد أنهم نجس في الاعتقاد والاستقذار، وحجتهم على صحة هذا التأويل أنّ الله أباح نساء أهل الكتاب، ومعلوم أنّ عرقهن لا يسلم منه من يضاجعهن، ومع ذلك فلا يجب من غسل الكتابية إلا مثل ما يجب عليهم من غسل المسلمة..."[٢].

والشيخ الهمداني: ".. فلا مانع من أن يكون المراد بالنجس في الآية الخباثة الباطنية والقذارة المعنوية الحاصلة بالشرك الذي هو أشد قذارة من الأحداث المانعة من دخول المساجد"[٣].

والسيد فضل الله: «وما يؤيد إرادة القذارة المعنوية من كلمة «نجس» وإرادة مكة من «المسجد الحرام»، أنه لو كانت النجاسة المادية هي المدلول للكلمة، لما كان هناك أية مناسبة لقول: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ الذي يوحي بأنه لا مانع من دخولهم المسجد بنجاستهم قبل نهاية العام،

---

١. فقه السنة، للسيد سابق ١ : ٢٠.

٢. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار؛ لمحمد الشوكاني ١ : ٢٥.

٣. مصباح الفقيه : ٥٥٧ ـ ٥٥٨. العاشر: الكافر بجميع أصنافه.

لأنّ حكم النجاسة المادية في إبعاد المسجد عنها أمر فوري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الفقرة التالية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ توحي بأنّ المسألة تتصل بخروج المشركين من مكة ومنعهم من العودة إليها للحج أو لغيره، الأمر الذي يتصل بالجانب الاقتصادي السلبي الذي يتصوره المسلمون مما لا دخل للنجاسة فيه من قريب أو من بعيد وعلى ضوء هذا، فلا يكون لهذه الآية أي ظهور في نجاسة المشركين ليتعدى الكافر الملحد بالأولوية القطعية...».

كما ذهب إلى أنها: «توحي بالحاجز النفسي الذي يفصل المسلمين عنهم، فيما تمثله قذارة الفكر الشركي والممارسة العبادية للأصنام، ما يبعدهم عن الأجواء الروحية العبادية التي تعيشها أماكن العبادة التي أعدها الله للعاكفين والركع السجود الذين يعيشون وحدة الله في العقيدة وفي العبادة، من خلال وجود المشركين هناك. فهذا المعنى عنده لعلَّه أقرب إلى جوّ الآية من خلال الفقرة التالية: ﴿فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا﴾، فإنّ مضمونها لا يتناسب مع النجاسة المادية، ولذا لا يلتزم الفقهاء بحرمة إدخال النجاسات إلى المسجد الحرام إذا لم يستلزم هتكاً، كالدم أو البول الموضوع في قارورة، أو جلد الميتة أو لحمها ونحو ذلك. فالآية لا توحي إلا بالتنافر الروحي والمعنوي بين ما يمثله المشركون من عبادة الأصنام، وما يمثله المسجد الحرام من عبادة الله الواحد. ولهذا ناقش

في دلالتها على النجاسة الفقهاءُ الذين يرون نجاسة المشرك، ولكن من خلال دليل آخر».[١]

نجاسة عينيّة: فكما رأينا أنَّ لهذه المفردة التي وردت مرةً واحدةً في التنزيل العزيز العديدَ من المعاني لغةً، ولها استعمالات مختلفة، ولها عند المفسرين والفقهاء قراآت واستفادات هي الأخرى مختلفة، إلاّ أنَّ هذه القراءة «النجاسة العينية» خاصةً عند مشهور الإمامية كما يذكرون؛ تُعدُّ قراءةً تعبديةً محضةً لمسألة النجاسة، وبالذات لمفردتها ﴿نَجَسٌ﴾؛ الواردة في الآية، ملتزمةً بالإطلاق والعموم... دون النظر والاعتناء بالظروف والأفراد والأحوال والمقاصد وحتى بتعدد ما تحمله مفردة ﴿نَجَسٌ﴾، من معاني لغوية واستعمالات عديدة، وبما تتركه من آثار اجتماعية، مما يجعل هذه القراءة الفقهيّة تذهب إلى اختيار نجاستهم العينية، وتعميمها لكلّ من ينطبق عليه وصف الشرك والكفر، جاعلةً من الآية المذكورة دليلاً بجانب أدلة أخرى، راحت تستفيد منها نجاسة هؤلاء جميعاً، وحتى من لم يرَ أنّ الآية تصلح أن تكون دليلاً على نجاستهم، راح يستفيدها من رواية وإجماع، وفيهما كلام مفصل بينهم، وهناك من ذهب منهم إلى استثناء الكتابي من جميع هذه الأدلة، وقالوا بطهارته، فيما قليل من فقهاء الإمامية ذهب إلى طهارة الجميع، أي طهارة الإنسان مطلقاً.

---

١ من وحي القرآن: الآية.

فالشيخ السيوري (ت٨٢٦) وهو يتحدث عن أحكام الآية: ٢٨ التوبة، في كتابه (فقه القرآن) يقول: إنّ المشركين أنجاس نجاسة عينية لا حكمية، ثمَّ يصرّح: وهو مذهب أصحابنا، وبه قال ابن عباس: إنّ أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير...

والشيخ الطبرسي في مجمع البيان وهو يذكر الاختلاف في نجاسة الكافر، فقال قوم من الفقهاء: إنَّ الكافر نجس العين، وظاهر الآية يدل على ذلك، و روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، واتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، الآية. وعن الحسن قال: لا تصافحوا المشركين فمن صافحهم فليتوضأ، وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا من أنَّ من صافح الكافر ويده رطبة وجب أن يغسل يده وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط.

ثمَّ يذكر القسمين الآخرين: وقال آخرون: إنما سمّاهم الله نجساً؛ لخبث اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم، وأجازوا للذمي دخول المساجد. قالوا: إنما يمنعون من دخول مكة للحج. قال قتادة: سماهم نجساً؛ لأَنهم يجنبون ولا يغتسلون ويحدثون ولا يتوضؤون، فمنعوا من دخول المسجد؛ لأَنّ الجنب لا يجوز له دخول المسجد.

السيد البجنوردي: «فالله تعالى منع المشركين عن دخول المسجد الحرام؛ لأنهم نجس. والمشركون جمع معرف بالألف واللام، فهو عنوان عام

يشمل كلّ من ينطبق عليه، وبالتالي تشمل سائر فرق الكفار والكتابيين، وورودها في مورد قسم خاص من المشركين لا يضرّ بالاستدلال بعمومها؛ لأنّ العبرة بعموم الكلام لا بخصوصية المورد.. ويخلص السيد بعد ذكره للإشكالات الأربعة؛ إلى أنَّ الإنصاف ـ كما يعبر ـ أنّ هذه الاشكالات لا يرد شيء منها على الاستدلال بالآية الشريفة، فالآية تدل على نجاسة المشركين مطلقاً كتابياً كانوا أم غيرهم؛ في ذلك الزمان أو من يوجد فيما بعده إلى قيام القيامة، من كان منهم في مكة وفي سائر القبائل العربية، الذين يأتون إلى الحج ويدخلون المسجد الحرام للطواف حول الكعبة وأولئك كلهم كانوا عبدة الأصنام...».

حتى أنه ذكر من جملة القواعد الفقهية المشهورة: «رقم ٥٥ قاعدة كل كافر نجس كتابياً كان أو غيره»، ثم بعد أن يقسم الكافر أربعة أقسام.. ينتهي أخيراً إلى أنّ المراد من هذه القاعدة نجاسة كل قسم من الأقسام الأربعة المذكورة. وأن المشهور عند الإمامية هو القول بنجاسة الكفار مطلقاً ذمياً كانوا أو حربياً كتابياً أو غير كتابي، بل ادعى الإجماع عليها جمع من الفقهاء المتقدمين وغيرهم.. ومقابل المشهور أو المجمع عليه قول شاذ من بعض الإمامية بطهارة خصوص الكتابي منهم.[١]

---

١. القواعد الفقهية، للسيد البجنوردي ٥ : ٣٢٩ ـ ٣٣٨. بتصرف وتلخيص. وانظر مصادره في هامش الصفحة: ٣٣١ ، ٣٣٣.

فيما يستظهر السيد الخوئي من الآية أنّ المراد من النجاسة القذارة، جاء هذا بعد أن يقول: «إنّ النجس عند المتشرعة وإن كان بالمعنى المصطلح عليه، إلاّ أنه لم يثبت كونه بهذا المعنى في الآية المباركة؛ لجواز أن لا تثبت النجاسة بهذا المعنى الاصطلاحي على شيء من الأعيان النجسة في زمان نزول الآية أصلاً، وذلك للتدرّج في بيان الأحكام، بل الظاهر أنه في الآية المباركة بالمعنى اللغوي وهو القذارة؛ وأي قذارة أعظم وأشد من قذارة الشرك. وهذا المعنى هو المناسب للمنع عن قربهم من المسجد الحرام، حيث إنّ النجس بالمعنى المصطلح عليه لا مانع من دخوله المسجد الحرام فيما إذا لم يستلزم هتكه، فلا حرمة في دخول الكفار والمشركين المسجد من جهة نجاستهم بهذا المعنى، وهذا بخلاف النجس بمعنى القذر؛ لأنّ القذارة الكفرية مبغوضة عند الله سبحانه، والكافر عدو الله وهو يعبد غيره، فكيف يرضى صاحب البيت بدخول عدوّه بيته؟ بل وكيف يناسب دخول الكافر بيتاً يعبد فيه صاحبه وهو يعبد غيره؟ هذا كلّه أولاً، فثانياً ... وثالثاً...».

لينتهي أخيراً إلى قوله: «فالإنصاف أنّ الآية لا دلالة لها على نجاسة المشركين فضلاً عن دلالتها على نجاسة أهل الكتاب، إلاّ أنك عرفت أنّ نجاسة المشركين مورد التسالم القطعي بين أصحابنا قلنا بدلالة

الآية أم لم نقل، كما أنّ نجاسة الناصب ومنكري الصانع مما لا خلاف فيه ...».[١]

والشيخ مكارم الشيرازي، بعد أن يذكر معاني واستعمالات عديدة لمفردة ﴿نَجَسٌ﴾؛ وأنها تأتي للتأكيد والمبالغة والوصف، وأنّ النجاسة والنجس يطلقان على كل قذارة، وهي على نوعين: قذارة حسية، وقذارة باطنية. و كل ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنه نجس.

وأنها تستعمل حتى فيما لا مفهوم للنجاسة الظاهرية فيه ـ فمثلاً يسمي العرب الأمراض الصعبة المزمنة أو التي لا علاج لها بـ "النجس" كما يطلق على الشخص الشرير، أو الساقط خلقياً، أو الشيخ الهرم، أنه نجس..

يقول: ومن هنا يتضح أنه مع ملاحظة ما جاء في الآية ـ محل البحث ـ لا يمكن الحكم بأنّ إطلاق كلمة نجس على المشركين تعني أنّ أجسامهم قذرة كقذارة البول والدم والخمر وما إلى ذلك، أو لعقيدتهم "الوثنية" فهي قذارة باطنية، ومن هنا لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على نجاسة الكفار، بل ينبغي البحث عن أدلة أخرى..

ثمَّ هو أيضاً في تعليقته على العروة الوثقى قال: "لا دليل على نجاسة الكفار، أما الكتابي فظاهر كثير من الروايات المعتبرة طهارتهم ذاتاً،

---

١. التنقيح ٢ : ٤٣ ـ ٥٤، كتاب الطهارة.

وأنّ نجاستهم عرضية، وظاهر بعض آيات الكتاب العزيز أيضاً ذلك، ويظهر من غير واحد من الروايات استحباب التنزه مما في أيديهم اجتناباً عما يكون فيهم غالباً من النجاسات العرضية، وبها يجمع بين ما دل على الطهارة وما يظهر منه النجاسة ووجوب الاجتناب، وأما غير الكتابي فهو أيضاً لا دليل على نجاسته من غير فرق بين أقسامه وإن لم يدل دليل على طهارته لخروجه من سياق الأخبار جميعاً فيؤخذ فيه بأصالة الطهارة فيهم".[١]

هذا، وأنّ السيد الشهيد الصدر يقول: «إنّ ابتلاء المسلمين بالتعايش مع أصناف من الكفار في المدينة وغيرها على عهد النبي صلى الله عليه وآله كان على نطاق واسع، واختلاطهم مع المشركين كان شديداً جداً خصوصاً بعد صلح الحديبية، ووجود العلائق الرحمية وغيرها بينهم، فلو كانت نجاستهم مقررة في عصر النبوة لانعكس ذلك وانتشر وأصبح من الواضحات، ولسمعت من النبي صلى الله عليه وآله توضيحات كثيرة بهذا الشأن، كما هو الحال في كل مسألة تدخل في محل الابتلاء إلى هذه الدرجة. ولا توجد في مثل هذه المسألة دواعي الإخفاء، وأي داع إلى ذلك مع ظهور الإسلام، وعدم منافاة هذا الحكم مع أغراض أولياء الأمر بعد النبي صلى الله عليه وآله. وحتى لو افترضنا أنّ الحكم بالنجاسة كان في ظرف نزول سورة التوبة التي نزلت بعد الفتح، فإنّ طبيعة

---

١. تفسير الأمثل: الآية، وتعليقات على العروة الوثقى : ٢٧ للشيخ مكارم الشيرازي؛ وانظر مفردات القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني؛ ومجمع البيان، للطبرسي : الآية.

الأشياء كانت تقتضي شيوعه وانتشاره أيضاً، فعدم وجدان شيء من هذه اللوازم العادية عند ملاحظة التاريخ العام يشكل عامل تشكيك في مسألتنا».[١]

إذن ففقهاء الشيعة منقسمون، فهناك من يرى نجاسة الكافر ذاتاً بجميع أصنافه، وهو مشهور الإمامية كما ذكروا، فيما بعضهم يستثني أهل الكتاب، فيرى طهارتهم. أما القول بعدم نجاسة الكافر ذاتاً سواء أكان كتابياً أم غير كتابي، أي مطلقاً فقد ذهب إليه فقهاء آخرون: الشيخ محمد الصادقي الطهراني، الشيخ إبراهيم الجناتي، والسيد فضل الله، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ولعلّ هناك غيرهم لم يتسنَّ لي التأكد من أقوالهم.

وقفة:

هذا وأنَّ القول بالنجاسة العينيّة، وإنّ "أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير" وبالذات حين يعمّم ويُتجاوز به وثنيي العرب ومشركي مكة يومذاك إلى غيرهم من أُمَم وعصور، ألا يتنافى لا فقط مع التكريم والتفضيل الواردين في الآية التالية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ... وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.[٢] بل مع ما حملته الآية: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ

١. شرح العروة، للسيد الشهيد الصدر ١ : ٢٤٣، ففيه بحث مفصل عن مسألة النجاسة هذه.

٢. الإسراء : ٧٠.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[1] وبالذات في دعوتها للتعارف والوئام، وهي الغاية من جعلنا شعوباً وقبائل؟!

ثمَّ ألا يُشكل حاجزاً وعائقاً من الصعوبة تجاوزه في هذا المشروع النبيل والرائع، وحتى في الدعوة إلى دين الله تعالى وتبليغه؟ وبالتالي لا فقط يُفشله بل يُبدله بتناحرٍ وخصامٍ وتعاندٍ، وبانتهاءٍ للتعايش بين الشعوب، وللإلفة الاجتماعية بين الناس، وهم كما عبر عنها الإمام عليٌّ عليه السلام: «... صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»! والله يعلم بأنَّ ﴿بَنِى ءَادَمَ﴾ و ﴿شُعُوباً وَقَبَآئِلَ﴾ ليسوا على دين واحد، أو من مذهب واحد، أو أمّة واحدة، بل سيؤول أمرهم إلى أديان متعددة، ومذاهب متفرقة، وإلى طوائف أخرى لا دين لها، وقد اختلفت ألوانهم وألسنتهم وأعرافهم...، ومع هذا منَّ عليهم جميعاً بالتكريم وأطلقه، ودعانا للتعارف لا للتناحر! وأنّ أكرم الجميع أتقاهم؟! آمل أن أجد الدرس الفقهي وقد تجاوز هذه المسألة، كما فعل في العقود الأخيرة (مع أهل الكتاب) و (مع مطلق الإنسان) فأفتى بطهارتهم، بعيداً عن الإجماع وعقدته.. بعد أن أدخلهم جميعاً في دائرة النجس قروناً عديدة!!

---

١. الحجرات : ١٣.

عند أهل السنة:

ومن العجيب قول الشيخ الطوسي (ت٤٦٠ هـ): «أجمع المسلمون على نجاسة المشركين والكفار اطلاقاً وذلك أيضاً يوجب نجاسة أسئارهم».

فالمشهور عندهم أنّ الكافر الحي طاهر لأنه آدمي، والآدمي طاهر سواء أكان مسلماً أم كافراً لأدلة، منها الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. وليس المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، نجاسة الأبدان، ولا النجاسة الذاتية وأنّ ذات المشرك نجسة كنجاسة الخنازير، وإنما المراد نجاسة ما يعتقدونه، والنجاسة المعنوية التي حكم بها الشارع.

وراحوا يوأوّلون الآية محل الكلام، بأنّ المراد بنجاستهم: خبث باطنهم وسوء سريرتهم وبطلان اعتقادهم، أو المراد: نجاسة ظاهرهم بالعرض لا ذاتاً، نظراً إلى أنهم لا يراعون الطهارة، ولا يغتسلون من الجنابة، ولا يتجنّبون النجاسات، بل يلابسونها ويباشرونها غالباً كشربهم الخمور وأكلهم لحم الخنزير، فيكون المعنى أنّهم ذو نجاسة، وعلى هذا حمل صاحب الكشّاف هذه الآية.

وهذا الشوكاني في تفسيره يقول: وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أنّ الكافر ليس بنجس الذات؛ لأنّ الله سبحانه أحلّ طعامهم، وثبت عن النبيﷺ في ذلك من فعله،

وقوله، ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده.

وهذا ابن قدامة ذكر أنَّ الآدمي طاهر وسؤره طاهر سواء كان مسلماً أو كافراً عند عامة أهل العلم.

وهذا الجزيري، وهو يذكر الأعيان والأشياء الطاهرة ويصفها بأنها كثيرة، ويبدؤها بالإنسان حيث يقول: "منها الإنسان سواء كان حيّاً أو ميّتاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. وعن الآية مورد كلامنا يقول: أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، فالمراد به النجاسة المعنوية التي حكم بها الشارع، وليس المراد أنّ ذات المشرك نجسة كنجاسة الخنزير". دون أن يذكر قولاً مخالفاً لقوله هذا من المذاهب الأربعة.

وهذه خلاصة ما في محاسن التأويل:

فقد دلت الآية على نجاسة المشرك، كما في الصحيح: «المؤمن لا ينجس».

النجاسة البدنية: فقد ذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وأنَّ من صافحهم فليتوضأ..

فيما الجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأنّ الله تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب.

ويرد على دليلهم هذا حين يقول: والاستدلال بكونه تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب غير ناهض؛ لأنّ البحث في المشركين. وقاعدة التنزيل الكريم، التفرقة بينهم وبين أهل الكتاب، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه.

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية: إنّ المشرك ليس نجس العين؛ لأنه صلى الله عليه وآله توضأ من مزادة مشرك، واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وآله إلى الأسارى ولا تغسل، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يطبخون في أواني المشركين ولا تغسل. وأوّلوا الآية بوجوه: أي ذوو نجس؛ لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، فهو مجاز عن خبث الباطن، وفساد العقيدة، مستعار لذلك، أو هو حقيقة؛ لأنهم لايتطهرون ولايغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها، وكلٌّ متأوّلٌ ما احتجّ به الآخر. انتهى.

أما محمد رشيد رضا، وبعد أن يذكر النجس في عرف الفقهاء: "وهو ما يجب التطهير لما يصيبه سواء أكان قذراً في الحس كالبول والغائط أم لا، كالخمر والخنزير والكلب عند من يقول بنجاسة أعيانها وهم الأكثرون.

يذكر أنَّ بعضهم قال بنجاسة أعيان المشركين ووجوب تطهير ما تصيبه أبدانهم مع البلل. وحكي هذا القول عن ابن عباس والحسن البصري ومالك وعن الهادي والقاسم والناصر من أئمة العترة وهو مذهب جمهور الظاهرية والشيعة الإمامية.

لكنه بعد الذي ذكره يقول: وجمهور السلف والخلف على خلافه ومنهم أهل المذاهب الأربعة.

ثمَّ يذكر أنّ الآية ليست نصّاً ولا ظاهراً راجحاً فيه، والسنة العملية لا تؤيده بل تنفيه، ولا سيما قول من يجعل أهل الكتب مشركين كالإمامية، فإنّ إباحة طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم نزل في سورة المائدة وهي آخر ما نزل، فهي بعد سورة التوبة بالإجماع وإباحتهما تستلزم طهارتهما..

ثمَّ يذكر أنّ من المعلوم القطعي لكل مطلع على السيرة النبوية وتاريخ ظهور الإسلام بالضرورة أنّ المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم ولا سيما بعد صلح الحديبية إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لا عصبية له ولا جوار بمنعه منهم، وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبيّ صلى الله عليه وآله ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحد أحداً منهم معاملة الأنجاس ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم، بل روي عنه ما يدل على خلاف ذلك مما احتج به الجمهور على طهارة أبدانهم من الأحاديث الصحيحة، ومنها أنه صلى الله عليه وآله توضأ من مزادة مشركة، وأكل من طعام اليهود، وربط ثمامة بن أثال وهو مشرك بسارية من سواري المسجد، ومنها إطعامه هو وأصحابه للوفد من الكفار ولم يأمر صلى الله عليه وآله بغسل الأواني التي كانوا يأكلون ويشربون فيها، و روى أحمد و أبو داود من حديث جابر بن عبد الله: «كنا نغزو مع

رسول الله ﷺ فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا»".

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ مسألة ربط ثمامة بن أثال، حين كان مشركاً في المسجد النبويّ في المدينة، التي طالما يستشهدون بها ، فإنها ـ إن صحت ـ وقعت قبل نزول الآية، وهذا كافٍ لردّ الاستدلال بها على المطلوب.

ومع هذا فهناك إجابتان أُخريان في تفسير القرطبي، وهكذا أيضاً مسألة الوضوء والأكل من طعام اليهود وأمثالها لو صحت، لعلّها ـ وإن لم يتيسر لي تاريخها ـ وقعت قبل نزول الآية.

ويواصل محمد رشيد رضا كلامه قائلاً:

"... وقيل المراد بنجاستهم تلبسهم بها دائماً لعدم تعبدهم بالطهارة كالمسلمين، وقول الجمهور بأنّ المراد النجاسة المعنوية أظهر، والجمع بين القولين أولى لأنه أعم.

وأما القول بنجاسة أعيانهم فهو لا معنى له في لغة القرآن إلا قذارتها الذاتية ونتنها، وذوات المشركين كذوات سائر البشر بشهادة الحس، ومن كابر شهادة الحس كابر دلالة النظر العقلي واللغوي بالأولى. ولا يصح أن تكون نجاسة تعبدية إلا بنص صريح في إيجاب غسل

ما اتصل بها من البلل، وهو لا وجود له وإنما الموجود خلافه كما تقدم...".[١]

و هذا لا يعني عدم وجود فريق منهم يذهبون إلى النجاسة العينية، أي أنّ الكافر نجس العين، أخذاً بظاهر الآية؛ لأنه الحقيقة كما يذكر. ويؤيد ذلك حديث أبي ثعلبة الخشنيّ فإنه قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنا نأتي أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم، فقال صلى الله عليه وآله: «اغسلوها ثم اطبخوا فيها». وقد نسب القول بهذا إلى بعض المفسرين اليمنيّين: مذهب القاسم والهادي وغيرهما.

وكما جاء في نيل الأوطار في حديث: «إنّ المسلم لا ينجس» قال: تمسّك بمفهومه بعض أهل الظاهر، وحكاه في البحر عن الهادي والقاسم والناصر ومالك فقالوا: إنّ الكافر نجس عين، وقوّوا ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وأيضاً في محاسن التأويل: وقال بعض المفسرين اليمنيّين: مذهب القاسم والهادي وغيرهما؛ أنّ الكافر نجس العين، آخذاً بظاهر الآية، لأنه الحقيقة. ويؤيد ذلك حديث أبي ثعلبة الخشنيّ فإنه قال

---

١. تهذيب الأحكام ١ : ٢٢٣ للشيخ الطوسي؛ والكشاف، للزمخشري؛ وتفسير فتح القدير، للشوكاني؛ والمغني، لابن قدامة ١ : ٤٣؛ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، لعبدالرحمن الجزيري ١ : ٩ مبحث الأعيان الطاهرة؛ تفسير محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ).بتصرف؛ وتفسير المنار: الآية.

للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنا نأتي أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم، فقال صلى الله عليه وآله: «اغسلوها ثم اطبخوا فيها».

والفخر الرازي القائل بعد أن يذكر ما نقله صاحب «الكشاف» عن ابن عباس أنّ أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن من صافح مشركاً توضأ، وهذا هو قول الهادي من أئمة الزيدية: «وأما الفقهاء فقد اتفقوا على طهارة أبدانهم»، ثمّ أردف ذلك بقوله: «واعلم أنّ ظاهر القرآن يدل على كونهم أنجاساً فلا يرجع عنه إلا بدليل منفصل، ولا يمكن ادعاء الإجماع فيه لما بيّنّا أنّ الاختلاف فيه حاصل».. ثمَّ راح يتوسع في ذلك، حيث نقل وجوهاً ثلاثة في تأويل الآية وعقّبها بقوله: «واعلم أنّ كل هذه الوجوه عدول عن الظاهر بغير دليل».[1]

من هذا يتضح أنّ المسألة خلافية بقدرٍ ضيّقٍ بينهم، فجمهورهم يذهب إلى طهارة الكفّار بأصنافهم إلاّ جمع قليل منهم من الصحابة والتابعين والمفسّرين وفقهائهم، كما ذكرنا ما تيسر لنا منهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾

القُرْبُ لغةً: نقيضُ البُعْدِ، قَرُبَ الشيءُ بالضم يَقْرُبُ قُرْباً وقُرْباناً وقِرْباناً، اَيْ دَنا فهو قريبٌ .. فهو من (قَرُبَ) الشيءُ ـ قَرَابة، وقُرْباً،

---

١. تفسير محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)؛ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، لمحمد الشوكاني (ت١٢٥٥هـ) ١ : ٣١؛ ومفاتيح الغيب، للرازي : الآية.

وقُرْبة، وقُرْبَى، ومَقْرُبَة: دنا. فهو قريب. ويقال: قَرُب منه. وقرب إليه.. وهو أيضاً من الفعل قَربَ الشيءَ ـ قُرْباً، وقُرْباناً: دنا منه. وـــ باشره. وللتشديد في النهي عن الأمر يقال: لا تَقْرَبه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾، و: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾. و: الرجل زوجته جامعها. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾. هذا في اللغة.

وأما إعراباً: فلا: الفاء الفصيحة، ولا: الناهية، ويقربوا: فعل مضارع مجزوم بحذف نونه بسبب لا الناهية، والواو: فاعل، والمسجد: مفعول به، والحرام صفته، بعد عامهم هذا: الظرف متعلق بيقربوا، وعامهم مضاف إليه، والهاء: في محل جرٍّ بالإضافة، وهذا نعت لعامهم أو بدل منه وهو العام التاسع للهجرة؛ هذا إعراباً.[1]

إذن فهناك علتان تحملهما الآية لمنع المشركين من المسجد الحرام، سواء أريد به المسجد نفسه أم الحرم كلّه، وهما: الشرك. النجاسة. وللمفسرين وكذا للفقهاء قراءآت متعددة، قد تتوافق في بعض نتائجها، وتختلف في أخرى، بحسب فهمهم لكلتا العلّتين.

ابن عاشور: وقوله: ﴿فَلاَ يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾، ظاهره نهي للمشركين عن القرب من المسجد الحرام. ومواجهةُ المؤمنين بذلك تقتضي نهي

---

١. لسان العرب، لابن منظور؛ والمعجم الوسيط: قرب؛ وإعراب القرآن الكريم، لمحي الدين الدرويش ٤ : ٨٦.

المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام. جعل النهي عن صورة نهي المشركين عن ذلك مبالغة في نهي المؤمنين حين جُعلوا مكلّفين بانكفاف المشركين عن الاقتراب من المسجد الحرام من باب قول العرب: «لا أرينّك ههنا» فليس النهي للمشركين على ظاهره.

وعن المراد من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام ذكروا التالي:

- هو النهي عن دخولهم المسجد مطلقاً..
- هو النهي عن الحج والعمرة، لا عن الدخول مطلقاً..

هو النهي عن حضورهم الحج.. لأنّ مناسك الحجّ كلّها تتقدّمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لمّا نزلت «براءة» أرسل النبيُّ صلى الله عليه وآله بأن يُنادَى في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك..

- وقيل: المراد من القربان أنْ يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحه، ويعزلوا عن ذلك. وقال جابر بن عبد الله وقتادة: لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب حرية، أو عبد المسلم،...[1]

إذن فهو نهيٌّ عن أن يقربوا الحرم بأن يُحظر عليهم دخوله فضلاً عن دخولهم مسجد الطهر والطهارة، وسواء بحظر أدائهم للمناسك؛ فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية، أم بولاية البيت، أو عمارته، أو أي شأنٍ من شؤونه، وجاء ليسجل الفارق بين منهجين

---

١. التحرير والتنوير؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ).

لا يلتقيان ولا يتعايشان.. وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصبّ النهي على مجرد القرب منه، ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور![1]

لقد انطلق هذا الجزء من الآية؛ ليبين أنَّ النهي عن الاقتراب جاء للمبالغة أو للمنع من دخول الحرم، وقد فسّر بعضهم القرب المذكور بالدخول فقال: فلا يقربوا: فلا يدخلوا، ولم يفرقوا بين قوله: فَلاَ يَقْرَبُوا وقوله: فلا يدخلوا، فإنّ القرب لغةً هو الدنو، ويعبر به عما كان قريباً، وهو غير الدخول فيه.. كما أنَّ القول: إنَّ المشرك عندما يأتي إلى حدود الحرم فإنه يصبح قريباً من المسجد، محل تأمل، إذ كيف يكون قريباً من المسجد، وبعض حدود الحرم تبعد عن المسجد أكثر من واحد وعشرين كيلومتراً، وعهد النزول لم يحظ بوسائل نقل حديثة من شأنها أن تقرّب البعيد، وتسرّع المسير، وتسهّل الوصول؟!

ومع أنّ هذا الجزء من الآية صار موضع بحث حول المقصود من المسجد الحرام وأنه يشمل فقط المسجد نفسه أو الحرم الأكثر سعةً، لكن المهم أنَّ هناك في الآية أمراً للمؤمنين بإقصاء المشركين سواء أكان "المرادُ بالمسجدِ الحرام: نفس المسجد، أو جميع الحرم، وهو الأقربُ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وذلك لأنّ موضع

---

١. في ظلال القرآن : الآية.

التجارات ليس هو عين المسجد؛ فلو كان المقصود من هذه الآية المنع من المسجد خاصة، لما خافُوا بسبب هذا المنع من العَيْلَة، وإنَّما يخافون العيلة إذا منعوا من حضور الأسواقِ والمواسم، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[١] مع أنهم أجمعُوا على أنه إنَّما رفع الرسول صلى الله عليه وآله من بيت أم هانىء...[٢]

وإذا كانت القضية في هذا المستوى ـ ..الإيمان يمثّل عمق الطهارة وحقيقة النقاء وينبوع الصفاء، فإنّ الشرك يمثل النقيض من ذلك، إنه يمثل قذارة الرواسب المتعفنة من خلال ظلمات السنين وأوحال التاريخ التي يعيش معها الإنسان عفن الفكر والروح والشعورـ فإنَّ من طبيعة هذا الواقع أن لا يقربوا المسجد الحرام الذي جعله الله ساحةً للنقاء وللطهارة، ليتطهر الناس فيها من ذنوبهم وأثقال أخلاقهم وعاداتهم التي تقذّر فيهم معنى الحياة، فكيف يمكن أن يقترب إليها هؤلاء الذين تمثل عبادتهم للأصنام كل معاني القذارة الروحية والفكرية والعمليّة..؟![٣]

حقّاً إنَّ وجودهم فيه إن هو إلا انتهاك لحرمته، وهو يتنافى وقدسيته، ومركزيته الإيمانية؛ "ومن الطهارة حفظ البيت من الوسخ

---

١. الإسراء : ١.

٢. تفسير اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (ت٨٨٠ هـ)؛ وأحكام القرآن، للقرطبي وغيرهما.

٣. من وحي القرآن : الآية.

والقذارة، فيأثم المسلمون لو قصروا في ذلك، ويزداد واجب التطهير كلما قرب من البيت، فآكده وأعظمه مسجد الكعبة، فيخلّص من كل أنواع النجس والرجس والوسخ، ثم يتلوه في الوجوب كافة الحرم إلى حدوده، ثم يتلوها جوارها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...﴾ فقال: فلا يقربوا ولم يقل فلا يدخلوا، فالتطهير يعمُّ جوار الحرم؛ ليس خالصاً إلى حدوده، بل يكون إلى خارجه بالقدر الذي يعدُّ فيه الوالج إليه قريباً منه".[١]

وهو نهيٌّ عام لمشركي مكة والجزيرة وغيرها، فهم سكنة المسجد الحرام وهم رواده ووافدوه من القبائل الأخرى في الجزيرة العربية وأطرافها للحج والعمرة، وقايةً للمسلمين وتحصيناً لساحتهم مما يحمله الوثنيّون من عقائد وأفكار ومكائد، وإبعاداً لهم عن مواضع الطهر والعبادة وعدم تلويثها بسلوكياتهم المنحرفة.. يقول الزركشي: "المراد منعهم من الحج وحضور مواضع النسك". وقال الزمخشري: "إنّ معنى قوله: «فلا يقربوا المسجد الحرام» فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، ويدل عليه قول عليّ كرمّ الله وجهه حين نادى ببراءة: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك...".[٢]

---

١. مقالة تطهير البيت، للدكتور لطف الله بن ملا عبد العظيم خوجه.

٢. البرهان في علوم القرآن ٢: ٣٨٥ النوع الثالث والأربعون في بيان حقيقته ومجازه؛ والكشاف، للزمخشري؛ والبحر المحيط، أبوحيان (ت٧٥٤ هـ).

وقد جاء: «لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» ضمن أربعة أمور بلّغها الإمام عليٌّ عليه السلام في موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، لتبيّن "أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد المدى الشامل لكلّ جزئية من جزئيات الاعتقاد والتصور، والخلق والسلوك، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ـ والإنساني ـ وهو الاختلاف الذي لابدَّ أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور.. منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك؛ والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر، وللآلهة المدعاة، وللأرباب المتفرقة. ثم يقع بينهما التصادم في كلّ خطوة من خطوات الحياة؛ لأنَّ كلّ خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لابدَّ أن تكون مختلفة مع الأخرى، ومتصادمة معها تماماً، في مثل هذين المنهجين وفي مثل هذين النظامين...". فكانت هذه الآية هي "الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المعسكر الإسلامي في الجزيرة وسائر معسكرات المشركين.. جاء موعدها، وتمهدت لها الأرض، وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هي الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم أن «لا يحجّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان، ولا يدخل البيت إلا مؤمن، ومن كانت بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله مدة فإنّ أجله إلى أربعة أشهر، فإذا انقضت الأربعة الأشهر فإنّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله». «لا يدخل الكعبة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مؤمن وكافر في المسجد

الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر». «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم بأن لا يدخل البيت كافر ولا يحجّ البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله فله عهده إلى أربعة أشهر ومن لا عهد له فله مدة بقية الأشهر الحرم». «لا يطوفنَّ بالبيت عريان ولا يحجن البيت مشرك ومن كانت له مدة فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر». حتى أني وجدت: «ولا يقرب المسجد الحرام بعد هذا العام مشرك». «ولا يقربن المسجد الحرام بعد عامنا هذا مشرك». وكأنه اقتباس من الآية نفسها.[1]

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ :

بعد أن عرفنا أنَّ الآية خطاب للمؤمنين أن لا يُمكّنوا المشركين من قرب المسجد الحرام، ولكن بعد عامهم هذا، أي بعد العام التاسع الذي تمَّ فيه إبلاغُ كلّ هذا الخطاب، فالعام العاشر إذن هو عام تطبيق للنهي الوارد في الآية بحظر قربهم من البيت المبارك وحرمه.

وإتماماً لما ذكرناه عن ابن عاشور: "ولذلك لّما نزلت «براءة» أرسل النبيُّ ﷺ بأن ينادَى في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك" جاء عنه

---

١. سيد قطب، في ظلال القرآن : الآية؛ وتفسير العياشي ٢ : ٧٦ الآية؛ وعنه بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ٣٥ : ٢٩٦.

التالي: "وقرينة ذلك توقيت ابتداء النهي بما بعد عامهم الحاضر. فدلّ على أنّ النهي منظور فيه إلى عمل يكمل مع اقتراب اكتمال العام وذلك هو الحجّ. ولولا إرادة ذلك لما كان في توقيت النهي عن اقتراب المسجد بانتهاء العام حكمة ولكان النهي على الفور"، ثمَّ بعد أن يذكر التالي: "وقد فرّع على نجاستهم بالشرك المنع من أن يقربوا المسجد الحرام" يقول : أي المنع من حضور موسم الحجّ بعد عامهم هذا. ثمَّ يواصل قائلاً: والإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية وهو عام تسعة من الهجرة، «وهو الصحيح ـ كما يذكر ٱبن العربيّ ـ الذي يعطيه مقتضى اللفظ، وإنّ من العجب أن يقال: إنه سنة تسع، وهو العامُ الذي وقع فيه الأذان. ولو دخل غلامُ رجل داره يوماً فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه".[١]

فقد حضر المشركون موسم الحجّ فيه، وأعلن لهم فيه أنّهم لايعودون إلى الحجّ بعد ذلك العام، وإنّما أمهلوا إلى بقية العام؛ لأنّهم قد حصَلوا في الموسم، والرجوع إلى آفاقهم متفاوت «فأريد من العام موسم الحجّ، وإلاّ فإنّ نهاية العام بانسلاخ ذي الحجّة، وهم قد أمهلوا إلى نهاية المحرم بقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.[٢]

---

١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي : الآية.

٢ . التوبة: ٢.

وعن إضافة الضمير يقول: وإضافة (العام) إلى ضمير (هم) لمزيد اختصاصهم بحكم هائل في ذلك العام كقول أبي الطيب:

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى مصر في القابل

ووصف (العام) باسم الإشارة لزيادة تمييزه وبيانه.[١]

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

العيلة لغةً: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقر، قال الشاعر أحيحة بن الجلاح:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل

وقرأ ابن مسعود وعلقمة من أصحابه: عائلة وهو مصدر كالعاقبة، أو نعت لمحذوف أي: حالاً عائلة..

وإعراباً: الواو عاطفة، وإن شرطية، وخفتم فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط، وعيلة مفعول به، فسوف الفاء رابطة وسوف حرف استقبال، ويغنيكم الله فعل مضارع ومفعول به وفاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط، ومن فضله جار ومجرور متعلقان بيغنيكم، وإن

---

١ . التحرير والتنوير : الآية.

شرطية وشاء فعلها والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله أي فسوف يغنيكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إنّ واسمها وخبراها.[١]

أسباب النزول:

ذكروا فيها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا الطعام، فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ شقَّ ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمتاع، فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾.[٢]

ما إن نزلت الآية تحمل النهيَّ، حتى راحت الخواطر تختلج في قلوب المسلمين مما سيسببه منع المشركين من المجيء للحرم من شحة في المواد التجارية والأطعمة أو انعدام لها، وقد اعتادوا جلبها معهم لبيعها على أهل مكة، وشراء غيرها منهم، مما يؤدي إلى كسادٍ وانتشار للفقر وقلّة للرزق، وهذا ما كانوا يخافونه، حتى وكأنّ بعضهم راح يهمس بإذن الآخر: قد كنا نصيب من بياعاتهم فى الموسم، وقبل أن يجهروا بهواجس

---

١ . تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت٧٥٤هـ)؛ وإعراب القرآن.

٢ . تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠ هـ) وغيره.

الخوف والقلق هذه، والتي ربما قذفها الشيطان في نفوسهم، وقبل أن يشكوها لرسول الله صلى الله عليه وآله جاء الوعد من السماء سريعاً في ذيل الآية نفسها، التي حرمت اقتراب المشركين من المسجد الحرام، يطمئن المسلمين ويتكفل علاج ما قد يصيبهم من حاجة وعوز... فقد "وعد المؤمنين بأن يغنيهم الله عن المنافع التي تأتيهم من المشركين حين كانوا يفدون إلى الحجّ فينفقون ويهدُون الهدايا فتعود منهم منافع على أهل مكة وما حولها، وقد أصبح أهلها مسلمين فلا جرم أن ما يرد إليها من رزق يعود على المؤمنين".[١]

ومن جانب آخر، فالآية أيضاً تنصُّ على الأمر الواقع وتعترف بما سيتركه حظرها للمشركين من دخول المسجد أو الاقتراب منه؛ حين تشير إلى أهمية الوضع الاقتصادي للناس، ومدى ما يتركه من آثار عليهم، إذا ما تعرض أو شعروا بأنه قد يصاب بشيء نتيجة فعل أو موقف ما "الموسم الاقتصادي الذي ينتظره أهل مكة؛ والتجارة التي يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة؛ ورحلة الشتاء والصيف التي تكاد تقوم عليها الحياة... إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج؛ وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة..".[٢]

---

١ . التحرير والتنوير : الآية.

٢ . سيد قطب، في ظلال القرآن.

«فإذا خشيتم من انقطاعهم عن الحج، بسبب هذا التشريع، فقراً وحاجة من خلال تعطيل الأسواق التي كانوا يحركونها بالشراء والبيع، ونقصان التجارة التي كانوا يمارسونها، فلا تحملوا همّاً لذلك؛ لأنّ الله قد تكفّل بالرزق لعباده، فإذا أغلق عنهم باباً فسوف يفتح لهم أبواباً أخرى في ما قدّره للحياة من التوازن الاقتصادي الذي يريد فيه أن يجمع للناس الجانب الروحي والفكري من الحياة بالإضافة إلى الجانب المادي، ليحصلوا على النتائج الإيجابية للواقع من جميع الجوانب. وهذا هو الذي يجب أن يدخلوه في حساباتهم عندما يتحدثون عن موازين الربح والخسارة في الأشياء، فلا يتعقدوا من بعض القيود التي يفرضها الله عليهم في تجارتهم، أو التي يحدّد لهم فيها علاقاتهم بالآخرين وبالأوضاع العامة من حولهم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ من خلال ما يفتحه لكم من مجالات جديدة للرزق والعمل...».[1]

لقد بادرت الآيةُ لرفع خشيتهم واضطرابهم، و لتذكرهم أنَّ "الله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة، وحين يشاء الله يستبدل أسباباً بأسباب؛ وحين يشاء يغلق باباً ويفتح الأبواب... يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة، وعن تقدير وحساب..."[2].

---

١ . من وحي القرآن : الآية.

٢ . سيد قطب، في ظلال القرآن : الآية.

وبالتالي فهو وعدٌ من الله جلَّ شأنه؛ سوف يغنيهم من فضله، وهو تبارك وتعالى وفيٌّ بوعده!

لكنه "لم يقل: (سيغنيكم) بل قال: ﴿فَسَوْفَ﴾ وهي تقتضي زمناً سيمر ولكنه زمن قريب؛ لأن الخير الذي سيأتي له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه، وهذه تحتاج إلى زمن، ولذلك قال: ﴿فَسَوْفَ﴾..."[1].

ابن عاشور: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي أنّ الله يغنيكم؛ لأنّه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائِل، فلمّا منعكم من تمكينهم من الحجّ لم يكن تاركاً منفعتكم فقَدر غناكم عنهم بوسائل أخرى عَلِمَها وأحكم تدبيرها..

فذاك ابتلاء، وهذا إغناء سواء أكان بالمادة أم بالقيم، فجميعه يدخل في دائرة مشيئته وعلمه وحكمته، فمشيئته تقتضي إعطاءً أو منعاً؛ إن شاء أعطى، وإن شاء منع، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.. وهو عليم بما يصلح الأمور أويفسدها ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضع الشيء موضعه، فالإعطاء في موضعه والمنع في موضعه.. لتخلص القلوب كلها للعقيدة، ولتنظر النفوس إلى الله تعالى حين تريد عافيةً وتبتغي رزقاً وترجو عطاءً!

وبعد أن يذكر القرطبي أنّ ذلك كان "إعلاماً بأنّ الرزق لا يأتي بحيلة ولا اجتهاد، وإنما هو فضل الله" يروي للشافعي:

---

١ .تفسير خواطر، محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٨هـ) بتلخيص.

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني* بنجوم أقطار السماء تعلقي

لكن من رزق الحجا حرم الغنى * ضدان مفترقان أي تفرق

ومن الدليل علىالقضاء وكونه*بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وهكذا هي العقيدة الحقّة، وكيفية بنائها، والإخلاص لها، وهكذا هو منهجها الفريد في تربية الجماعة المسلمة، وانتشالها من كل ما يمت إلى الجاهلية ومظاهرها وتأثيراتها من خلال ما يبثه المنهج القرآني من وعي لحقيقة الفوارق والفواصل بين منهج الله الذي يجعل الناس كلهم عبيداً لله وحده، ومنهج الجاهلية الذي يجعل الناس أرباباً بعضهم لبعض.. وهما منهجان لا يلتقيان.. ولا يتعايشان.[1]

* * *

١ . في ظلال القرآن : الآية. بتلخيص.

طريق نجد و جبل شمّر في المصادر الإيرانيّة

في العصر الصفوي حتّى بداية العصر القاجاري

(٩٠٠ الى ١٢٣٠ هـ) ـ دراسة مقارنة

الأستاذ: رسول جعفريان (جامعة طهران)

الخلاصة:

لاشكّ أنّ طريق العراق إلى الحجاز من أقدم الطرق التجاري في الحضارة الإنسانية الشرقية، وهذه الطُرق مختلفة غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، كما ذكر المَقْدسيّ في «أحسن التقاسيم» أنّ عددها كان إثني عشر طريقاً في بادية الشام.

فبعد طلوع نجم الإسلام وفتح العراق والشام، كان هذه الطرق مسيراً للجيوش الإسلامية، وكذلك الحُجّاج والتجّار والمهاجرون من القبائل العربية الذين يعيشون في العراق وفي الحجاز، وينتقلون دائماً بين هذه البلاد.

وكانت المنطقة وسيعة جداً، البصرة وبغداد والنجف من ناحية الشمال، والرياض والدرعية من ناحية الشرق، وحائل من ناحية الغرب، حتى يصل إلى الحرمين الشريفين في الجنوب الغربي على ساحل البحر الأحمر.

وكان طريق قسم كبير من الحجّاج الإيرانيين و العراقيين في الطريق الذي يعرف في العصور الإسلامية الأُولى بطريق زبيدة، وبعدها بطريق نجد، ثم طريق الجبل، وكلّها في نفس المنطقة. فانتخاب الطريق للحجّ من ناحية الزوّار والحجّاج الإيرانيين و العراقيين تابع لمسألتين:

الأوّل:

كون الحجاج من أهالي ناحية الجنوب ونواحي البصرة، أو من بغداد ونواحي المركزية في إيران لا منطقة أُخرى.

والثاني:

إنّ الأمن في أيّ طريق أحسن من طرق أخر؛ هل من ناحية طريق البصرة أو طريق آخر يسمّى باسم طريق الجبل؟

والنكتة الأخيرة هنا في البحث، التفاوت بين قبل عصر الصفوي وبعده. فالحجاج قديماً من كلّ نواحي إيران وحتى ماوراء النهر، كانوا يجتمعون في بغداد أولاً، ثمّ يسيرون من بغداد إلى الحرمين على طريق يعرف بطريق زبيدة، ثم من طريق نجد ثانياً.

وأما بعد العصر الصفوي وخصوصاً في بداية عصر القاجاري، كانوا يجتمعون في النجف ثم يسيرون إلى الجنوب من طريق الجبل، وهذا تغيير واضح كما نرى في الرحلات الحجّية في العصر القاجاري الفارسي.

(و الحال أنّ حجاج ماوراءالنهر، غالباً يحجون من طريق القوقاز إلى إسلامبول، ثمّ يسيرون مع حجاج الترك إلى الحج من طريق الشام).

ومع الأسف، المعلومات عندنا حول طريق الحج الإيراني من ناحية نجد وحائل في العصر الصفوي والنادري والزندية [من حوالى ٩٠٠ إلى ١٢٠٠ الهجرية] قليل جداً، عكس العصر القاجاري [من حوالى ١٢٠٠ إلى ١٣٢٠ الهجرية].

فمقالتي هذه تشير إلى معلومات حول طريق الحج في المنطقه من عصر الصفوي إلى بداية العصر القاجاري مع دراسة مقارنة للعصرين، مؤكّداً على تغيير المسير من نجد إلى طريق الجبل.

المقدمة:

«طريق نجد» و«طريق حائل» ـ أو كما يسميه الإيرانيون «طريق الجبل» كلمتان لهما مفهوم ذو دلالات عند الإيرانيين. وإذا أضفنا إليهما

كلمة «البادية» تنتج عند ذاك صياغة يُشمّ منها شذى الحج ومكّة والكعبة. وهذه تعبيرات لكلّ واحد منها دوره في رسم الجوّ المعنوي للحج في أذهان الإيرانيين. وهنا توجد حقيقة وهي أنّ لكلمة «البادية» مكانة متميّزة في الأدب الفارسي. وهي تلك الصحراء الواقعة بين العراق والحجاز، وينبغي اجتيازها من أجل الوصول إلى المحبوب «بيت الله».

وقد كانت هذه البادية على مدى حُقَب تاريخية طويلة، طريقاً يسلكه الحجاج الإيرانيون كلّ عام؛ ولهذا السبب، تكتمن في صدورهم محبّة عارمة لهذه البادية على الرغم من كلّ ما يكتنفها من مصاعب.

لقد كان طريق اجتياز هذه البادية على مدى حقبة زمنية مديدة يمرّ في طريق زبيدة، أو طريق نجد، غير أنّ هذا المسلك تغيّر قليلاً في زمانٍ ما، واتُخذ طريق الجبل عوضاً عنه.

وهذا هو الطريق الذي كان يمرّ على مقربة من قلعة حائل وكان الإيرانيون يطلقون عليه اصطلاحاً تسمية «**طريق الجبل**».

طريق نجد وطريق الجبل يمرّ كلاهما عبر البادية، وهما ينفصلان في بعض المنازل ويشتركان في منازل أخرى.

هذه المقالة تسلّط الضوء على الأوضاع التي كان عليها طريق نجد وطريق الجبل في العهد الصفوي، وفي العهد الأفشاري، وفي العهد الزندي [من حوالى سنة ٩٠٧ إلى ١٢١٠ الهجرية النبوية]، وأوائل العهد القاجاري [الذي حكم منذ عام ١٢١٠هـ فما بعدها].

كان أقصر طريق يسلكه الحجاج الإيرانيون والعراقيون هو السير على الطريق الذي يبدأ من بغداد وينتهي في المدينة أو في مكّة. يتضح من خلال النظر إلى الخريطة أنّ السفر من العراق إلى الحجاز يمكن أن يمرّ عبر طرق مختلفة:

أ: من الموضع المقابل للبصرة إلى الحجاز، وهو الطريق الذي كان معروفاً بطريق نجد وطريق لحسا.

ب: الموضع المقابل لمدينة النجف إلى الحجاز، ويمرّ بحائل.

وكلا هذين الطريقين يمرّان بالبادية وهو يمثّل أقصر الطرق بالنسبة إلى الحجاج الإيرانيين والعراقيين. ولكن في جميع الأدوار كان من الممكن بالنسبة إلى من يسافر عن طريق الشام إلى دمشق، أن يتوجّه من هناك إلى المدينة المنوّرة، كما كان هناك طريق بحري أيضاً عن طريق الإبحار إلى بحر عمان، ويدور من هناك إلى اليمن إلى أن يصل جدّة.

في العهد الصفوي كثيراً ما كان الحجاج يسافرون عن طريق لحسا ونجد، وكانوا في بعض الحالات يسافرون عن طريق الشام. ومن ذلك مثلاً أنّ الحاج حسين علي خان ابن الشيخ علي خان زنكنه الوزير الأعظم، قد توجّه في عام ١٠٩٠هـ عن طريق الشام في قافلة تضمّ حشداً غفيراً من العجم.[١]

---

١. وقائع السنين : ٥٣٤.

وقد كتب الخاتون آبادي أيضاً أنه سافر الحج في عام ١١١٧هـ عن طريق الشام وقد استغرقت مدّة سفره خمسة عشر شهراً وثلاثة أيّام.[١]

هذا في حين أنّ أحد علماء اصفهان قد سافر إلى الحج في عام ١١٢٥هـ عن طريق لحسا؛ إنّ الطريق الأقرب الذي يسلكه الحجاج عادة هو طريق البصرة طبعاً، الذي كان يُعرف أيضاً بطريق لحسا.[٢] إنَّ السفر إلى الحج عن طريق الشام يؤشر إلى وجود مخاطر على طريق نجد، في بعض الأعوام على الأقل.

الموضوع الذي نتناوله في بحثنا هذا هو أنّ طريق نجد، الذي كان يسلكه الحجاج الإيرانيون على مدى حُقبٍ مديدة، قد تركوا السفر من خلاله منذ أوائل العهد القاجاري، وحلَّ محلّه طريق الجبل أو طريق حائل.

وللاطلاع على دواعي تغيير هذا الطريق، لابدّ لنا من إلقاء نظرة على عهدين تاريخيين؛ وهما العهد الصفوي (إلى العهد الأفشاري والزندي)، والعهد القاجاري.

وقبل كلّ شيء، لابدّ من الإشارة إلى أنّ منطقة نجد قد قيلت في وصفها أمور كثيرة، إلاّ أنّ الإيرانيين كانوا يهتمون بها بشكل عام، وأنها

---

١. وقائع السنين والأعوام : ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

٢. المصدر نفسه : ٥٦٧.

منطقة تقع بين الحجاز والعراق. بمعنى أنها بلاد شاسعة يجب أن يمرّ بها كلّ من يريد الحج من الإيرانيين.

وأما من ناحية المعنى الأدق، فإنّ كلمة نجد تعني الأرض المرتفعة. وعاصمة بلاد نجد هي الرياض. وأما المدن الأخرى فيها فهي: مدينتا «عُنيزة» و«بُريدة» من ناحية «القصيم»، ومدينة «زلفى» من ناحية «سدير»، ومدينة «شقرا» من ناحية «الوشم»، ومدينة «الدرعية» من ناحية عارض. وأما حائل أو كما يسمّيها الإيرانيون بالجبل، فهي مدينة تقع على مسافة ٦٥٠ كيلومتراً إلى الغرب من الرياض، وتبعد عن تبوك ٦٨٨ كيلومتراً.

كان الإيرانيون على مدى مرّ الأدوار والعهود الإسلامية يسلكون إلى الحج من هذا الطريق وهو الطريق المعروف باسم طريق زبيدة، ولكن مما يؤسف له أنه لا تتوفر لدينا أخبار دقيقة عن أوضاع هذه البلاد، ولا عن كيفية مسير الحجاج عن هذا الطريق. وهذه الندرة في المعلومات تنطبق على العهد الصفوي أيضاً؛ وذلك لعدم وجود كتب رحلات معروفة ومفصّلة حول هذه الأمور في هذا العهد، بل لا توجد حولها حتى أخبار أو معلومات تاريخية عادية. نشير إلى أنه لم تبق في إيران وثائق إدارية من هذا العهد، ومعنى ذلك أننا لا نملك أية معلومات في هذا المجال.

وما يوجد بين المدوّنات القليلة التي كتبها الحجاج في هذا المجال مجرّد إشارة إلى «المرور» من تلك المناطق، دون أن تزوّدنا بأية معلومات

أخرى حول تفاصيل ذلك. في حين تتوفر بين أيدينا العشرات من كتب الرحلات التي دُوّنت في العهد القاجاري وهي تقدّم لنا معلومات وافرة حول طريق الجبل. وأما بالنسبة إلى نجد ووقوعها على طريق الحج، فلها في أذهان الإيرانيين مفهوم ذو جوانب وجدانية بعيداً عن قضية الجغرافية الخارجية والبادية، التي تقع في موقع جغرافي معيّن.

وفي هذا المجال لدينا نصّان حول الجغرافية الواقعية، وحول البادية المجازية، ونرى من المناسب الإشارة إليهما هنا:

أ: كتب مؤرخ من العصر القاجاري حول حاجز وهو موضع في بادية نجد، ما يلي: حاجز بكسر الجيم يُنسب إلى حاجز وهو اسم منزل في بادية نجد ينزل فيه الحجاج. وبلاد نجد على وجه الخصوص موضع عشق ومهبط العاشقين، ولها في هذا المضمار تاريخ عريق. وقد أكثر الشعراء أيضاً من ذكر نجد وذكر المتيّمين بنجد. وحتى أنّ بهاء الدين العاملي ذكرها فيما كتبه من أشعار باللغة الفارسية، حيث قال في موضع:

باز گو از نجد و از یاران نجد تا در و دیوار را آری به وجد

حدّثني عن نجد وأحبابها حتى تهيج أشجان أطيابها.[1]

ب: عبدالرزاق الدنبلي في ما كتبه حول سفره إلى العتبات في العراق في عام ١٢١٥هـ، وأنه قد سمع هناك حكاية جاء فيها: توجهت مع

---

١. راهنمای دانشوران ١ : ١٧٧.

جماعة من أهل الوجد عن طريق نجد لزيارة بيت الله الحرام. ومن شدّة الشوق لوصال الكعبة كان أولئك المشتاقون يشعرون بأشواك حسك السعدان، و كأنه في أقدامهم ورد و ياسمين، و أزهار الأماني تنبض في رياض الذكريات، وأشواك وادي البطحاء تجتذب إليها الأفئدة.

وقال أصحابنا: إنّ في قبيلة نجد فتاة غدت قِبلة لأهل الوجد، وكأنّها في الجمال والكمال سلمى وليلى، وهي تستميل القلوب بجمالها الأخّاذ كالمغناطيس... وكان أصحابنا يسكّنون نفوسهم عن طريق الميل إلى ذلك المقام![1]

ونأتي فيما يلي على نقل الشواهد التاريخية، التي تحدثت عن مرور الحجاج الإيرانيين عن طريق نجد للوصول إلى الحجاز وأداء فريضة الحج ابتداءاً من العهد الصفوي، ثم نأتي بعد ذلك على ذكر ما جاء منها حول العهد القاجاري.

---

١. حدائق الجنان، مخطوطة مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في إيران، رقم:٩١٢، الورقة:١٧.

العهد صفوي، والأفشاري والزندي (٩٠٧هـ ـ ١٢٠٠هـ)

كما سبقت الإشارة إليه أنه في العهد الصفوي و إلى أوائل العهد القاجاري (الذي بدأ في عام ١٢١٠هـ) كان طريق الحج يمرّ من نجد، وقد كان لها من الصيت بحيث أنه عندما كان يذكر اسم نجد، تتداعى إلى الأذهان قضية الحج.

جاء في كتاب هفت اقليم (= الأقاليم السبعة) في وصف الوضع الجغرافي العام لإيران ما يلي:

... و إلى الجنوب منها بادية نجد، التي تقع على طريق مكّة...[1]

وردت في هذا المجال معلومات متناثرة بين ثنايا الكتب، ولكن لا يتوفر حتى الآن تقرير جغرافي وافٍ، أو مذكّرة مستقلة من مذكّرات رحلات الأسفار. وهذا ما يستدعي جمع ما يمكن جمعه من معلومات من المصادر الموجودة:

* هناك وثائق قليلة على شكل مكاتبات ورسائل، كُتبت من قِبل الحكومة الإيرانية إلى بعض وجوه مكّة، أو رؤساء القبائل التي تقع على طريق نجد، أو إلى حاكم البصرة أو حاكم الهويزة، وتدلّ هذه المكاتبات على أنّ الحكومة الإيرانية كانت تبدي اهتماماً لتوفير الأمن لهذا الطريق، من أجل ضمان سلامة الحجاج.

---

١. هفت اقليم (= الأقاليم السبعة)١ : ٩٤.

عدد من هذه الرسائل جاءت في المخطوطة المرقمة: ١١٦٣٩ المحفوظة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي في قم. ويُفهم من إحدى هذه الرسائل أنه بسبب الأضرار الموجودة في طريق البصرة، أغلقت الحكومة الإيرانية طريق البصرة لمدة من الزمان. وعندما أعيد فتح هذا الطريق في أعقاب الحصول على ضمانات من رؤساء قبيلة بني خالد، تلقّى الأهالي الساكنون على هذا الطريق هذا الخبر بالإستبشار. توجد ضمن هذه المجموعة رسالة تحمل عنوان: «جواب سيد فرج الله خان، والي حويزة في البشارة بفتح البصرة» جاء ذلك في الورقة: ٢٣ منه.

وكذلك جاء في الورقة: ٥٥ منه كتاب يحمل عنوان: «كتاب إلى شيخ بني خالد»حول طريق البصرة، وكُتب في قسم منه ما يلي: «... إنّ في فتح طريق البصرة يفتح لكم أبواب النصرة، وتستفيدون بذلك فوايد غزيرة، ولكم فيها منافع كثيرة، وقد رخّص من ذلك السبيل وفد حجاج بيت الله الحرام، ورهْط المعتمرين المتمتّعين بإدراك المشاعر العظام، وأذن لهم في هذه السنة وأجر من أحسن إليهم أجر من جاء بالحسنة...

وفي عهد الصفويين، كانت تسيطر على تلك المنطقة قبيلة بني خالد، التي كانت تتولى حماية مرور الحجاج وتستوفي حقّ الطريق منهم.

ومن أهمّ تلك الرسائل رسالة كان قد كتبها الشاه عباس إلى شريف مكّة حول طريق البصرة. وجاءت بعض التوضيحات حول

المشاكل التي تكتنف هذا الطريق، وطُرحت بعض المطالب بشأن ذلك. وقد جاء في قسم من هذه الرسالة ما يلي:[١]

«ثمّ المنهّى إلى جنابهم العالي، إنّ قبل ذلك بسنين وصل إلى شرايف مسامع حضّار المجلس الأعلى الخاقاني ـ ما برح محفوفًا بالنصر والتأييد السبحاني ـ أنّ قوافل الحاج والمعتمرين الآمّين لطواف بيت الله الّذي من دخله كان من الآمنين، القاصدين لزيارة رسوله سيّد المرسلين وأئمته الكرام المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ الّذين يجيئون من بلادنا المحروسة ـ حرسها الله تعالى ـ يصل إليهم في الطريق مِحَنٌ كثيرة بَدنيّة وماليّة، ويصيبهم بلايا عظيمة جسمانيّة ونفسانيّة من جهات مختلفة وطرايق شتّى. [حتّى يكون يستلب منهم اللصوص والذؤبان ثيابهم وأسلابهم وجميع ما كانوا يتمتعون، ويذرونهم بالبيداء بايدين، ويحلّونهم منزلة ما كانوا يحرّمون]. ومع ذلك، لأجل تسويف المباشرين لإمارة الحاج في الخروج وتأخيرهم في الذهاب، وبسبب توقّعات في أثناء الطريق من شؤمة سماجة الأعراب، يتفق في بعض السنين أن يفوتهم الحجّ، إذ لم يدركوا الموقفين ويرجعون (ويرجعوا) من هذه الشقّة الشاقّة خائبين بخُفَّيْ حنين. ولما كان فى مثل هذه الحال لما فيها من المخاطرة بالأنفس والأموال، الاستطاعة التي هي شرط وجوب الحج على ما قال الملك

---

١. الورقة ٩٢ ـ ٩٥.

المتعال مفقودة، إذ من جملتها تخلية السرب، وظاهرٌ أنها ليست حينئذ موجودة، ولم يكن الحج في هذه الصورة واجباً ولا مثل هذا السفر سائغاً، فلا جرم قد صدر عن موقف السلطنة العظمى الحكم بمنع القوافل و الوفود، وسدّ الطرائق الصدود، إمتثالاً لأمر الله، و شفقةً على خلق الله، وحماية للرعية، لا رعاية للحميّة، وفي هذه السّنة أرسل حاكم البصرة إلى خدمتنا، واستدعى من حضرتنا أن نرخص الحاجّ [و نفتح هذا الطريق] وشرط [وعرض علي أولياء دولتنا الباهرة مؤكداً بالعهود والمواثيق] أن لايؤخذ منهم من كلّ نفر سوى الجمّال والطبّاخ والبريد في الذهاب والعود جميعًا من كلّ جهة وعلةٍ، أزيد من ثلاثين أحمر نقيراً ولا قطميراً، [وأنّهم لايصيبهم ظمأٌ ولانصب ولامخمصة إلا أن يشاء الله ولايظلمون نقيراً] وأن لايدع أن يصل إليهم أذًى من الأعراب، قليلاً ولا كثيراً، وتعهّد أن يزعجهم [ينفرهم] من البصرة اليوم الأول أو الثاني من شهر ذي القعدة ولايقيمهم بعد ذلك بقدر قومة ولا قعدة. ولما كان حينئذ مظنّة أن يكون منع الحاج في هذا الحال، معاذ الله صدّاً عن سبيل الله ـ جلّ ذكره ــ ومنعاً لمساجده أن يذكر فيها اسمه، فأجبنا مسؤوله [وأسعفنا مأموله] ورخصنا الحجاج والعمّار وأنفذنا الأحكام المُطاعة والفرامين النافذة إلى خوانين [خواقين] الأطراف والأقطار بأن يجهّزوا القوافل ويسبّلوا السبائل [ويتوجّهوا] من درب [صوب] البصرة [إلى الأرض المقدّسة التي بالتهامة، بادين من كل باير وعامر، آتين رجالاً

وعلى كلّ ضامر، جائين من نائي البلاد وجابين للبوادي الصخرة الوعرة من كلّ واد] ليجيبوا الدعوة التّامّة الخليليّة ويدعو في تلك المقامات الكريمة، لدوام هذه الدولة القائمة الصفوية الإسماعيليّة.

وحيث كان خدّامكم الكرام لا يزال يسعون في رعاية الحجاج والزوّار، سيّما أهل هذه البلاد والأمصار، ويبالون جدّاً بمراقبة أحوالهم، ولايألون جهداً في محافظة أنفسهم وأموالهم، ولايتركون أن يصل إليهم أذى وظلم من أحد من الناس، ويكونون لهم بمنزلة الحَفَظةِ والحرّاس، أمرنا أن يؤخذ من كلّ رأس منهم إلا ما استثنى، خمسة حمر سوى الثلاثين المذكور، ويرسل إلى خدمتكم على سبيل النذر والهديّة، ازدياداً للمحبّة والمودّة ومجازاة للمشقّة الّتي يتحمّلها خدمتكم السنيّة.

فإذَنْ طريقة الإخلاص والصفوة التي لا يزال يسلكها تلك الزمرة الشريفة الشريفيّة بالنسبة إلى هذه السلسلة العليّة الصفويّة، أن لايقصّروا في إكرام القوافل الّتي تجيء من ظهر البصرة، وكفّ أيدي الناس عنهم ببطن مكّة، كيف وهم أضياف الله وأضيافكم، وإكرام الضيف من سنن أكارم أسلافكم، وأن لا تدعوا أحداً أن يكلّفهم بالرّجوع من طريق آخر

ويجعلهم إليه ملْجاة، إذ قد سمعنا أنّ في السّنين السابقة كان يلحقهم خسران عظيم من هذه الجهة».[1]

وتعبير: «**مِن ظَهر البصرة**» في هذه الرسالة ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ يدلّ على الطريق الذي يسلكه الحجاج الإيرانيون في الوقت الحاضر للسفر إلى مكّة.

* و يوجد في المخطوطة رسائل أخرى، ذكر فيها مشاكل موجودة في نفس الطريق، منها في مكتوب كتب بعنوان: «جواب مكتوب السيد الرشيد ابن الشريف سعد ابن زيد المسمى بسعيد» هكذا: «**... ثم لا يخفى على ضميره المنير وخاطره الخطير أن المحب لم يبسط في باب سماجة فلان بساط الشكاية، ولم يكشف عند أحد من أولياء الدولة القاهرة عن مساويه التي جاوزت النهاية، ولكن الحجيج الذين كانوا كالأسراء في يديه، ولم يجدوا سبيل التخلص من سوء سلوكه في الطريق، قد وثبوا عليه، فبالغوا في بث شكواه، وحالوا بينه وبين الوصول إلى ما كان يرجوه و يتمناه**».[2]

---

١. (راجع كتابي بعنوان: «سياست وفرهنگ روزگار صفوي (= السياسة والثقافة في العصر الصفوي)» ٢ : ١٥٧٧. وما في المعقوفين من نسخة أخرى غير المخطوطة، المحفوظة في مكتبة آية الله السيد المرعشى بقم).

٢. برگ = الورقة ٤٨.

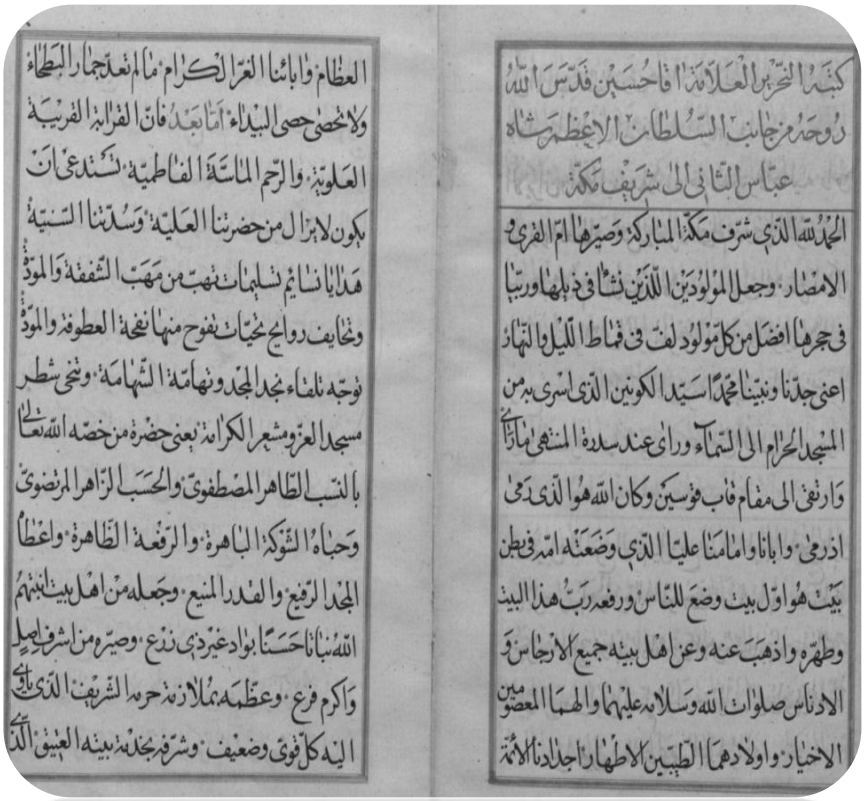

كتبه النحرير العلامة الفاضل حسين قدس الله
روحه من جانب السلطان الاعظم شاه
عباس الثاني الى شريف مكة

الحمد لله الذي شرف مكة المباركة وصيرها ام القرى و
الامصار. وجعل المولودين اللذين نشأ في ذيلها وربيا
في حجرها افضل من كل مولود لفت في قماط الليل والنهار
اعني جدنا ونبينا محمدا سيد الكونين الذي اسرى به من
المسجد الحرام الى السماء ورأى عند سدرة المنتهى ما رأى
وارتقى الى مقام قاب قوسين وكان الله هو الذي رمى
اذ رمى. وابانا وامامنا عليا الذي وضعته امه في بطن
بيت هو اول بيت وضع للناس ورفعه رب هذا البيت
وطهره واذهب عنه وعن اهل بيته جميع الارجاس و
الادناس صلوات الله وسلامه عليهما والهما المعصومين
الاخيار. واولادهما الطيبين الاطهار اجدادنا الائمة
العظام وابائنا الغر الكرام ما تعاقب الليل والنهار
ولا تحصى حصى البداء اما بعد فان القرابة القريبة
العلوية. والرحم الماسة الفاطمية تستدعي ان
يكون لا يزال من حضرتنا العلية وسدتنا السنية
هدايا نسائم نسلمات تهب من مهب الشفقة والمودة
وتخايف روايح تحيات تفوح منها نفحة العطوفة والمودة
توجه تلقاء نجد المجد ونهامة الشهامة. وتحي شطر
مسجد العز ومشعر الكرامة يعني حضرة من خصه الله تعالى
بالنسب الطاهر المصطفوي والحسب الزاهر المرتضوي
وحباه الشوكة الباهرة. والرفعة الظاهرة. واعطاه
المجد الرفيع والقدر المنيع. وجعله من اهل بيت انبتهم
الله نباتا حسنا بواد غير ذي زرع. وصيره من اشرف اصل
واكرم فرع. وعظمه بملازمة حرمه الشريف الذي يأوي
اليه كل قوي وضعيف. وشرفه بخدمة بيته العتيق الذي

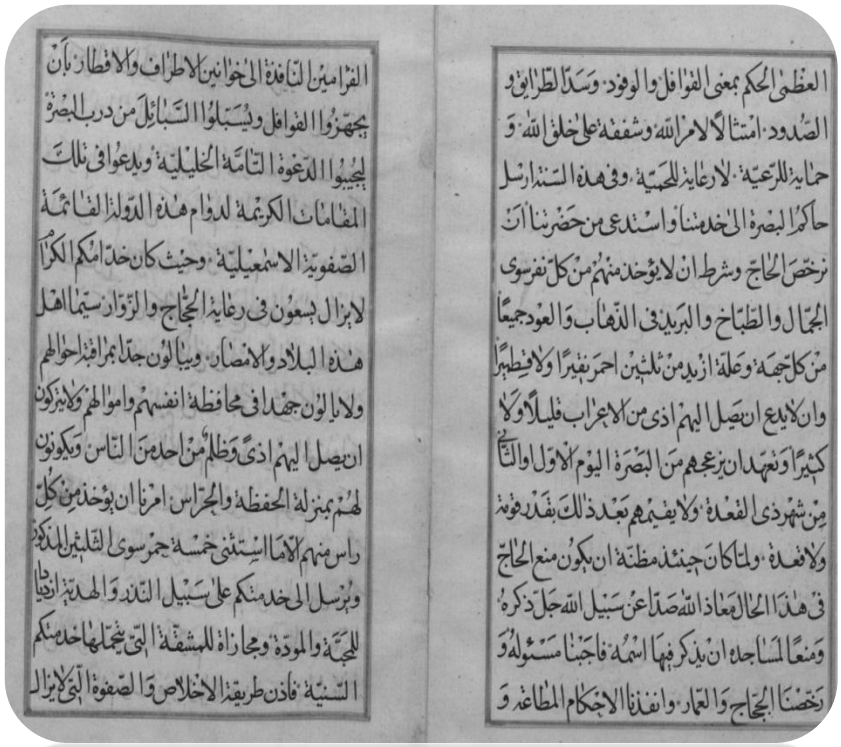

العظمى الحكم بمعنى القوافل والوفود. وسدا لطرايق و
الصدود. امتثالا لامر الله وشفقة على خلق الله. و
حماية للرعية. لارعاية للحمية. وفي هذه السنة ارسل
حاكم البصرة الى خدمتنا واستدعى من حضرتنا ان
نرخص الحاج وشرط ان لا يؤخذ منهم من كل نفر سوى
الجمال والطباخ والبريد في الذهاب والعود جميعا
من كل جهة وعلة ازيد من ثلثين احمر بغيرا ولا فطيرا
وان لا يبيع ان يصل اليهم اذى من الاعراب قليلا ولا
كثيرا وتعهد ان يزعجهم من البصرة اليوم الاول او الثاني
من شهر ذي القعدة. ولا يقيم بعد ذلك بقدر فوة
ولا فعدة. ولما كان حينئذ مظنة ان يكون منع الحاج
في هذا الحال معاذ الله صدا عن سبيل الله جل ذكره
ومنعا لمساجده ان يذكر فيها اسمه فاجبنا مسئوله و
رخصنا الحجاج والعمار. ونفذنا الاحكام المطاعة و

الفرامين النافذة الى خوانين الاطراف والاقطار بان
يجهزوا القوافل ويسبلوا السبائل من درب البصرة
ليجيبوا الدعوة التامة الخليلية ويدعوا في تلك
المقامات الكريمة لدوام هذه الدولة القاهرة
الصفوية الاسمعيلية. وحيث كان خدامكم الكرام
لا يزال يسعون في رعاية الحجاج والزوار سيما اهل
هذه البلاد والامصار. ويبالون جدا بمراقبة احوالهم
ولا يالون جهدا في محافظة انفسهم واموالهم ولا يتركون
ان يصل اليهم اذى وظلم من احد من الناس ويكونون
لهم بمنزلة الحفظة والحراس امرنا ان يؤخذ من كل
راس منهم الا ما استثنى خمسة حمر سوى الثلثين المذكور
ويرسل الى خدمتكم على سبيل التذر والهدية ازديادا
للمحبة والمودة ومجازاة للمشفقة التي يتحملها خدمتكم
السنية فاذن طريقة الاخلاص والصفوة التي لا يزال

يؤتى من كل فج عميق. زاده الله سبحانه تعظيما وتجيلا.
كما فرض حجه على من استطاع اليه سبيلا. وهي الحضرة
الشريفة الشريفية الحسنية. لازالت مهبطا للفيوضات
البهية والفتوحات السنية. ويقتضي ان يكون دائما
جنابهم الشريف ملحوظا بعين العناية السلطانية
وجنابهم المنيف مراعى حق الرعاية الخاقانية. فما زال
انشاء الله الرحمن ذكر المودة بين الجانبين الى قيام
الساعة ركينا. وحبل المواصلة بين الطرفين الى يوم
القيمة متينا. ثم المنهى الى جنابهم العالي ان قبل ذلك
بسنين وصل الى شرايف مسامع حضار المجلس الاعلى
الخاقاني ما يرجح محفوفا بالنصر والتاييد السبحاني. ان
قوافل الحاج والمعتمرين الامنين لطواف بيت الله الذي
من دخله كان من الامنين القاصدين لزيارة رسوله
سيد المرسلين وائمته الكرام المعصومين صلوات

الله عليهم اجمعين. الذين يجيئون من بلادنا المحروسة
حرسها الله يصل اليهم في الطريق محن كثيرة بدنية ومالية
وتصيبهم بلايا عظيمة جسمانية ونفسانية من جهات
مختلفة وطرايق شتى. ومع ذلك لاجل تشويف
المباشرين لامارة الحاج في الخروج وتاخيرهم في الذهاب
وبسبب توقعات تقع في اثناء الطريق من شوشة سماحة
الاعراب يتفق في بعض السنين ان يفوتهم الحج اذ لم
يدركوا الموقفين. ويرجعون من هذه الشقة الشاقة
خائبين يجثى حنين. ولما كان في مثل هذه الحال لما فيها
من المخاطرة بالانفس والاموال الاستطاعة التي هي
شرط وجوب الحج على ما قال الملك المتعال مفقودة
اذ من جملتها تخلية السرب وظاهر انها ليست حينئذ
موجودة. ولم يكن الحج في هذه الصورة واجبا. ولا مثل
هذا السفر سايغا. فلاجرم قد صدر عن موقف السلطنة

طریق نجد و جبل غنم ...

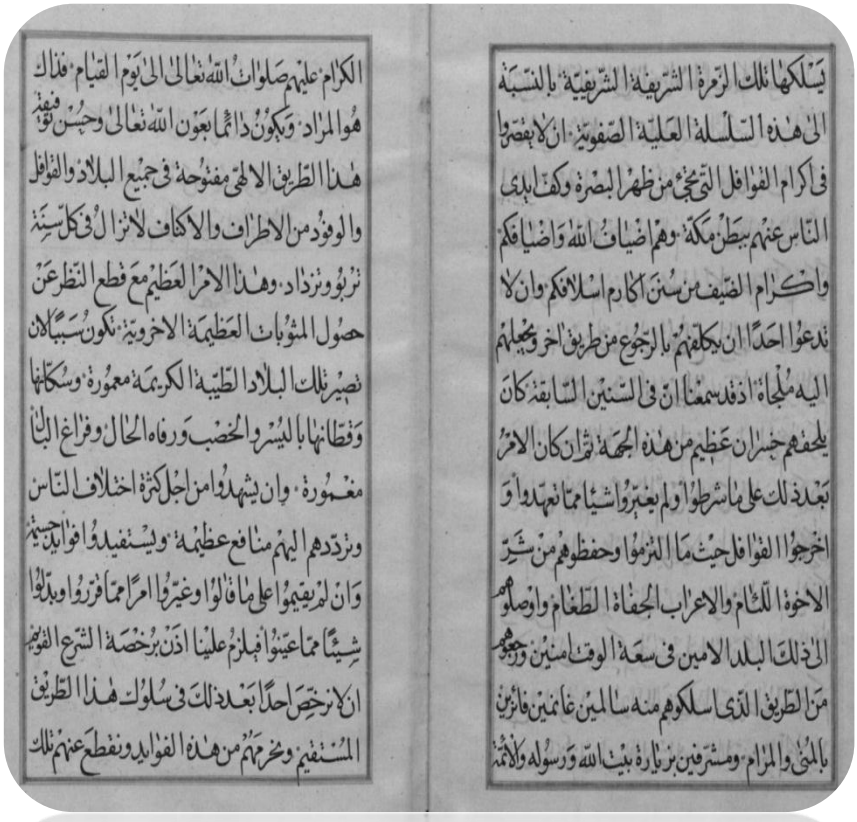

يسلكها تلك الزمرة الشريفة الشريفية بالنسبة
الى هذه السلسلة العلية الصفوية ان لا يقصروا
فى اكرام القوافل التى تجئ من ظهر البصرة وكف ايدى
الناس عنهم ببطن مكة وهم اضياف الله واضيافكم
واكرام الضيف من سنن اكارم اسلافكم وان لا
تدعوا احدا ان يكلفهم بالرجوع من طريق اخر ويحملهم
اليه ملجاة اذ قد سمعنا ان فى السنين السابقة كان
يلحقهم خسران عظيم من هذه الجهة ثم ان كان الامر
بعد ذلك على ما شرطوا ولم يغيروا شيئا مما تعهدوا و
اخرجوا القوافل حيث ما التزموا وحفظوهم من شر
الاخوة اللئام والاعراب الجفاة الطغام واوصلوهم
الى ذلك البلد الامين فى سعة الوقت امنين ورجعوهم
من الطريق الذى سلكوهم منه سالمين غانمين فائزين
بالمنى والمرام ومشرفين بزيارة بيت الله ورسوله والائمة
الكرام عليهم صلوات الله تعالى الى يوم القيام فذاك
هو المراد ويكون دائما بعون الله تعالى وحسن توفيقه
هذا الطريق الالهى مفتوحة فى جميع البلاد والقوافل
والوفود من الاطراف والاكناف لا تزال فى كل سنة
تربو وتزداد وهذا الامر العظيم مع قطع النظر عن
حصول المثوبات العظيمة الاخروية تكون سببا لان
تصير تلك البلاد الطيبة الكريمة معمورة وسكانها
وقطانها باليسر والخصب ورفاه الحال وفراغ البال
مغمورة وان يشهدوا من اجل كثرة اختلاف الناس
وتردهم اليهم منافع عظيمة ويستفيدوا فوائد جسيمة
وان لم يقيموا على ما قالوا وغيروا امرا مما قرروا وبدلوا
شيئا مما عينوا فلزم علينا اذن برخصة الشرع القويم
ان لا نرخص احدا بعد ذلك فى سلوك هذا الطريق
المستقيم ونحرمهم من هذه الفوائد ونقطع عنهم تلك

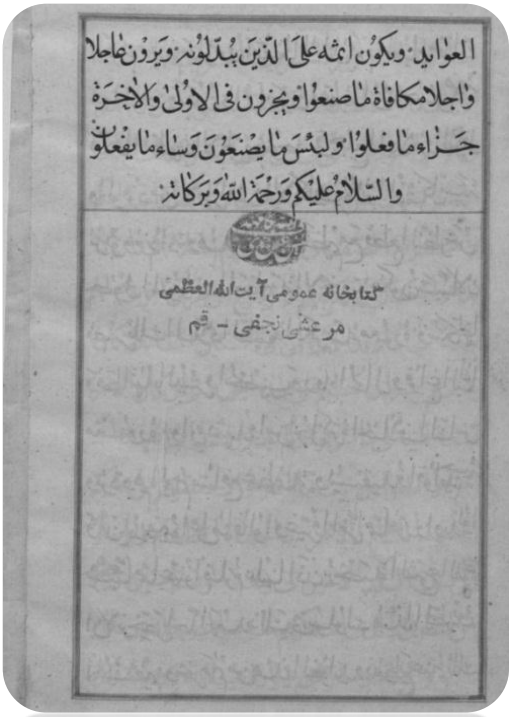
العوايد. ويكون اثمه على الذين يبدلونه. ويرون عاجلا
واجلا مكافاة ما صنعوا ويجزون في الاولى والاخرة
جزاء ما فعلوا. ولبئس ما يصنعون وساء ما يفعلون
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
تابخانه عمومى آيت الله العظمى
مرعشى نجفى - قم

* وفي رسالة أخرى كتب بعنوان: «كتاب مرقوم إلى بعض فضلاء الأحباب» هكذا: ... «وبعد طيّ وادي السلام، وبسط صحايف الشوق والعزام، فالمرتسم في مرايا معلوماته، ومشاعر مدركاته، أنه قد رخص لوفد الحجيج من طريق البصرة ليطوفوا بالبيت العتيق، وأذن في الناس بالحج يأتوه رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كلّ فجٍّ عميق، وهم أضياف الله تعالى، و أبناء سبيله وعباده المكرمون، الأحقّاء بعظيم الإكرام

وجليله، فالمأمول من لطائف لطف ذلك الجناب وإكرامه وشرايف سعيه واهتمامه أن يكرم مثواهم، ويحسن مقرهم ومأواهم، ويبالغ في إجلالهم، ويحترمهم احتراماً يليق بأمثالهم».[1]

* وأيضاً في رسالة أخرى بعنوان: «أيضاً كتاب إلى شيخ بني خالد» ورد هكذا: «.... وبعد نشر صحيفة الدعاء وبسط بساط شوق اللقاء، فلا يخفى على مرآة ذلك الضمير المنير، أنّ في فتح طريق البصرة، يفتح لكم أبواب النصرة، وتستفيدون بذلك فوائد غزيرة، ولكم فيها منافع كثيرة، وقد رخص من ذلك السبيل وفد حجّاج بيت الله الحرام، ورهط المعتمرين المتمتّعين بإدراك المشاعر العظام، وأذن لهم في هذه السنة، وأجر من أحسن إليهم أجر من جاء بالحسنة، وقد خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله جمع كثير وجمّ غفير راجياً للظفر بمأموله، ولقد حاولوا بسرعة الحركة عوائد الاشتياق إلى الخير والبركة، فبادروا إليها عجالاً، ونفروا خفافاً وثقالاً، فينبغي لكم الخروج من عهدة العهود والمواثيق المؤكدة بغلائظ الأيمان، والدخول بذلك في زمرة الذين سارعوا إلى مغفرة من ربهم ورضوان، بأن تحرموا للسعي في سبيل الله على وجه يليق، وتحرسوا سالكيه الآتين رجالاً وعلى كل فجّ عميق، لئلا يصيروا طعمة لكل ذئب مفترس، ونهبة لكل لصّ مختلس، فلايستطيعون لهم نصراً

---

١. برگ = الورقة ٥٥.

ولايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً. فليكن اغتناؤكم بذلك جميلاً، والاهتمام بما فيه صلاح أحوالكم ونجاح آمالكم ضامناً وكفيلاً».[١]

* كتب مسافر أجنبي [من فرنسا] كان يومذاك في بلاط الشاه عباس الثاني (١٠٥٢ ـ ١٠٧٧هـ) عن مقاطعة الحكومة الإيرانية لطريق البصرة، ومنعها الحجاج من السفر على هذا الطريق؛ وذلك بسبب المشاكل التي كان يواجهها الحجاج فيه، وتحدّث عن ذلك بالتفصيل. وكتب حول ذلك ما يلي:

«جاء مبعوث ذو هيبة من قبل حاكم البصرة إلى اصفهان للتعبير عن التقارب والوحدة والتصالح. وكان برفقته شخص مهم اسمه المير حاجي أو أمير الحاج.[٢] وكانت الغاية من مجيء هذين الرجلين إلى العاصمة الإيرانية هي أن يطلبوا من الشاه إلغاء الأمر الذي أصدره بمنع سفر الحجاج الإيرانيين عن طريق البصرة. إذ أنّ هذا القرار قد أدّى إلى حرمان أهالي البصرة من عائدات كثيرة كانت تدرّ عليهم من مرور الحجاج الإيرانيين من هناك؛ إذ لم تمض مدّة طويلة حتى اثر نقصان تلك العائدات الهائلة في حياة عموم أهل البصرة وأوقعهم في ضيق وصعوبة. قبل هذا القرار كان ما يقارب عشرة آلاف شخص يتشرّفون بالذهاب

---

١. برگ= الورقة ٥٦ ـ ٥٧.

٢ . كلمة «أمير الحاج» لقب يُطلق على رؤساء القوافل الكبرى التي تسير تذهب إلى زيارة بيت الله...

إلى مكّة عن طريق البصرة، ولكن منذ بضعة (بضع) سنوات صاروا يسلكون طريقاً آخر. وقد كتب حاكم البصرة في الرسالة التي بعثها مع هذين إلى البلاط الإيراني إنه قد عاقب بشدّة الأشخاص المسيئين الذين تسبّبوا في إيذاء ومضايقة الحجاج الإيرانيين، وإنه قد وفّر جميع مستلزمات الرفاهية والراحة والرضا للزائرين الإيرانيين، الذين يمرّون عن طريق البصرة. وأنهم يستطيعون منذ الآن فصاعداً الذهاب إلى زيارة مكّة المكرمة عن هذا الطريق، وهم مرتاحي (مرتاحو) البال بعيداً عن أي قلق من دفع ضرائب باهضة، أو أية نوع آخر من المضايقات. وقدّم أمير الحاج عهداً بأن لا يكون لدى أي من الزائرين الإيرانيين من الآن فصاعداً أي شكوى ولا تذمّر من عمّال البصرة. وقد أصرّ كثيراً على طلبه هذا حتى استجيب لطلبه. ومن بعد ذلك نُصبت خيمة واسعة في السوق القديم للمدينة، وأعلنوا أنّ كلّ من يريد زيارة بيت الله سواء من النساء أم الرجال أن يأتي إلى هناك ويسجّل اسمه، وأنه يوفّر له مستلزمات السفر بتكلفة ليست بالكثيرة جداً».[1]

* هناك وصف مثير للانتباه لطريق نجد ومقارنته مع طريق الشام في العهد الصفوي، كتبه المير محمد سعيد مشيزي ويعود إلى عام ١٠٨٩هـ. كان المير محمد سعيد يعيش في كرمان في جنوب ايران، وقد سافر إلى

---

١. رحلة (سفرنامه) شاردن الفرنسي: المترجم بالفارسية٢ : ٦١٦.

الحج عن طريق البحر.[١] وبعد أداء مناسك الحج كان متردداً بين أن يعود إلى بلاده عن طريق الشام أو عن طريق نجد، ولكن في ختام المطاف قرر العودة عن طريق الشام؛ لأنه طريق معمور تماماً، غير أنّ جماعة آخرين لم يوافقوه الرأي، وقالوا: إنّ طريق لحسا أقرب إلى الوطن. واحتجّ البعض بصعوبة طريق الشام، بينما تحدّث البعض الآخر منهم حول سوء معاملة عرب البادية وأمير الحاج اللحسائي.

وفي نهاية الأمر قرروا العودة عن طريق لحسا. وقد كتب المير محمد سعيد مشيزي الذي اختار طريق لحسا، حول عودته وما واجهه خلالها من مصائب ومتاعب: الفقير الحقير محمد سعيد، توجّه مع أمير الحاج إلى لحسا ووصل كرمان عن طريق شيراز.[٢]

* لدينا تقرير واضح حول طريق الحج الذي كان يسلكه الإيرانيون منذ عام ١٠١٧هـ. وقد كتبه شخص اسمه ملك شاه حسين ابن غياث الدين في كتاب له تحت عنوان «إحياء الملوك» ويدور موضوع التقرير حول سفره إلى الحج. ووفقاً لما كُتب في هذا الكتاب فإنّ ملك شاه حسين كان في غرّة جمادى الأولى من عام ١٠١٧هـ في الثامنة والثلاثين من العمر. وقد توجّه من «حديقة مؤمن آباد زيارتگاه» إلى بلاد الحجاز لزيارة الحرمين الشريفين، ووصل إلى شيراز عن طريق بهره وبم

---

١. التذكرة الصفوية : ٤٦٨.

٢. التذكرة الصفوية : ٤٧٦ ـ ٤٧٩.

ونيريز... ومن شيراز وصل إلى شطّ الكارون عن طريق دورق إلى شعب بوان وفهليان وشولستان وبهبهان. ومن هناك دخل إلى شط العرب والبصرة.

وفي الثامن من ذي القعدة وصل إلى بلاد الحجاز عن طريق بادية نجد. ووصل إلى الميقات في الموعد المقرر وارتدى ثياب الاحرام، وفي صباح التاسع من ذي الحجة وضع قدمه في أرض الحرم، وانهمك على مدى ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة بالزيارة والإحياء في مكّة. وتوجّه من هناك إلى المدينة ووصلها بعد عشرة أيّام ومكث فيها أسبوعاً. وقد أحيي ليلة الجمعة في السابع عشر من المحرّم، وغادر الروضة الشريفة في صباح اليوم التالي وضع قدمه على طريق نجد. واجتاز الوديان الواحد تلو الآخر إلى أن وصل إلى ديار قيس وليلى. ووصل من هناك إلى البصرة، ومن البصرة إلى «ميناء ريگ» وقطع هذا الطريق البحري على مدى ثلاثة أيّام وأربعة (وأربع) ليال. ومن «ميناء ريگ» انطلق على طريق دشتستان وبعد أن قطع الكثير من المرتفعات والمنخفضات وصل إلى كازرون. ومن بعد كازرون دخل شيراز. ومن شيراز توجّه إلى كرمان. ثم إنه انتقل إلى الموضع الأحمر بعد اجتيازه لطريق التل الأحمر «كتل سرخ»، ومن هناك

وصل إلى بَم، ثم عن طريق وادي ذئب «بيابان گرگ» عاد إلى سيستان، وفي يوم العاشر من جمادى الأولى من عام ١٠١٨هـ وصل إلى سيستان.[١]

أمّا نص عبارة ملك شاه حسين فهي كالآتي:

«ومن هناك قطعتُ المسافات بين المنازل الواحد تلو الآخر، إلى أن وضعتُ قدمي على ساحل شطّ الكارون... وعبرت قلعة بارزة «قلعة معتبر» التي كان بجوارها شطّ، ووصلت من ذلك الشطّ إلى شطّ العرب... واسترحت بضعة أيّام في البصرة، ومن بعد المكوث عدّة أيّام في تلك البلدة... وفي الثامن من ذي القعدة سرنا في البادية، ووصلنا إلى نجد وأصبحنا في وجد، وتكرّمت الجباه بالسجود على أرض الحجاز، إلى أن حان الموعد المقرر للميقات، فأحرم... وفي التاسع من ذي الحجة وصل صباحاً إلى أرض الحرم؛ فأخذ نعليه بيديه وسار حافياً، والعين ملؤها الحسرات، تلك الكرامة لا تستسيغ النعلين، ففعلت ما عليها فعله، إلى أن وصلت إلى مصاف ذلك المطاف، وبلغتُ ما كنت ابتغيه. في ذلك اليوم نلت الإذن بالسجود، واغتنمت الفرصة، وأديت المناسك في الكعبة. وبعد الانتهاء من أداء مناسك حج التمتّع والعمرة، فوفقت للسعي من الصفا إلى المروة ومن المروة إلى الصفا. ثم بعد ذلك حظيت بالذهاب إلى مِنى، وذهبت إلى عرفات وجلست عند عرفات. كان بدني منهكاً ولكنه

---

١. إحياء الملوك، المقدمة : ٣١.

استشعر القوّة بعد السجود في مسجد الثمرة (النمرة) وخيف. وجمعت حصيات جمرة العقبة لرمي الشيطان الرجيم، وصررتها في ذيل قطعة قماش من القطيفة، وبعدها يممتُ وجهي صوب منى، فرأيت القرابين...؛ وبعد أيام التشريق والفراغ من الجمرة الأولى والوسطى وجمرة العقبة سرت إلى بلد مكّة المبارك الذي «من وصله (دخله) كان آمناً»، حيث لم أخش من ذهاب النفس والبدن، وبقيت هناك ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة أواصل الزيارة والإحياء... وقد دفعني الشوق إلى المدينة إلى توديع الكعبة؛ فطفت طواف الوداع وبما أنني كنت قد دخلت من باب السلام، فقد خرجت من باب المدينة، وجئت إلى وادي فاطمة... ثم بعد عشرة أيّام وصلت إلى المدينة المنوّرة، نلت السعادة هناك بزيارة رسول الثقلين، وجعلت زادي لدنياي وآخرتي زيارة أئمة البقيع وسائر الساكنين في تلك البقعة الرفيعة.

واكتست روحي بنور الإيمان بالزيارة والسجود في مسجد قُبا، ومسجد علي ومسجد فاطمة، ومسجد بني النجار وغيرها من المساجد الأخرى. ومكثت في المدينة أسبوعاً، وأحْييت هناك بعض الليالي، وأحييت ليلة الجمعة السابع عشر من شهر محرّم، وفي صباح تلك الليلة ودّعت تلك الروضة البهية متوجهاً إلى طريق نجد. وكان سبب خروجي مبكراً من هناك هو أنّ أهالي مصر والشام كانت في قلوبهم أحقاد على أهل العجم، ولكنهم ما كانوا يجرأون على النزاع في أرض الحرم. وفي

الأيّام التي كانوا فيها في المدينة، كانوا على الدوام يفكّرون في الجدال. وكان خدّام وسادات تلك العتبة يحثّون أهل العجم ويشجعونهم على المغادرة، فحُرِم (فحرمتُ أو فحرمنا) من تلك الهِبة...

وخلاصة الكلام أنّ القافلة كانت تجدّ السير يوماً بعد يوم، وتقطع وادٍ بعد وادٍ إلى أن وصلت إلى ديار قيس وليلى. ومررنا بالطائف كانت جبال وأطلال، وحيثما ذهبنا كانت قلاع وقرى. وبدا لي من بين الأطلال حائط مهدوم، وقال العرب هناك أنّ هذه كانت دار ليلى.[١] حبّ ليلى الذي كان يشغل باله، قد أثقل على كاهل هذا المجنون في وادي العشق، وكأنه ذرى على جرحه الملح، ووصلت إلى قرية من قرى نجد... وتمّ اجتياز تلك البادية خلال مدّة وجيزة بحمد الله؛ وألقت القافلة رحالها في البصرة. ومن البصرة جئت عن طريق الباخرة إلى (بندر ريگ) ميناء ريگ».[٢]

* وجاءت معلومة أخرى حول مسير الحجاج عن طريق نجد في العهد الصفوي، وذلك في كتاب «خلاصة التواريخ» وهو من تأليف أحمد بن المير منشي القمي المتوفى عام ١٠١٥هـ، الذي ذكر حول سفر أحد السادات من أهالي كرمان إلى حج بيت الله الحرام، حيث قال ما يلي:

---

١. كتاب «رحلة ناصر خسرو» : ١٠٤.

٢. إحياء الملوك : ٤٨٠ ـ ٤٨١.

«كان أول سفر غادر فيه دار كرمان هو سفره إلى زيارة المشهد المقدّس [في خراسان] وكان ذلك في شهور سنة اثنين (اثنتين) وسبعين وستمائة ٩٧٢هـ؛ حيث حظي بزيارة تلك البقعة المشرّفة، وبعد ذلك بدأ بإعداد مقدمات السفر لحج بيت الله الحرام، وأخذ يتأهب لزيارة الحرمين الشريفين ـ زادهما الله شرفاً وتعظيماً ـ ولزيارة المشاهد المقدّسة؛ فتوجّه في شهور سنة ٩٧٥هـ نحو كاشان وسار منها على طريق همدان، حتى وصل إلى العتبات المقدّسة. وفي الأوّل من شهر ذي القعدة من ذلك العام حزم أمتعة السفر مع سائر الحجاج؛ وانطلق من النجف الأشرف سالكاً الطريق نحو بادية نجد قاصداً كعبة الآمال، وقد فاز بتلك السعادة. ومن بعد زيارة ضريح رسول الله ـ صلى‌الله عليه وآله ـ و أضرحة أئمة البقيع ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ عاد من ذلك الطريق الذي سلكه في الذهاب. ومكث أيّام المحرّم في كربلاء؛ وعاد من طريق همدان نحو كاشان ومن بعدها إلى يزد ثمّ كرمان. وفي بلدة خبيص انهمك بالطاعة والعبادة والقراءة».[1]

من يسافر على هذا الطريق من عراق العجم أو عراق العرب، أكثر ما يتوجّه نحو الجنوب، أي يسير نحو البصرة ويسير من هناك إلى نجد. ومن الأمثلة على ذلك السفر الذي قام به عالم عربي كان مقيماً في

---

١. خلاصة التواريخ ٢ : ٨١١.

اصفهان حيث قال إنه عندما أراد الذهاب إلى مكّة، إنطلق من اصفهان صوب البصرة، ومن هناك ذهب إلى مكّة.[١]

* هذه الحكاية جاءت أيضاً في كتاب الدر المنثور نقلاً عن مؤلف شيعي عربي يسكن في إيران في العهد الصفوي، حيث كتب فيها ما يلي: رأى رجل في طريق مكة امرأة فتبعها، فقالت: مالك؟ قال: قد سلب حبُك قلبي. قالت: فلو رأيت أختي؟ فالتفت فلم يرَ أحداً. فقالت: أيها الكاذب في دعواه، لو صدقتَ ما التفتّ![٢]

* وكتب الشيخ أحمد بن الحسن بن علي بن محمد الحرّ العاملي في كتاب الدر المسلوك ما يلي:

«وفي سنة سبع وثمانين وألف أخذت الأعراب حجاج العجم، في طريق لحسا بعد ما حجّوا، وفقد منهم خلق كثير، وكان في من فقد، أخي الأصغر الشيخ علي وسلم أخي الأكبر الشيخ محمد، وكان قد مضى على طريق البحرين ومعه ابن ملا خليل القزويني الأخباري وجماعة، ونظم قصيدة مطلعها: «ركبنا منون البحر في لجة الأسرى»ـ الأبيات».[٣]

* طريق البصرة، وهو الطريق الذي كان يُعرف أيضاً باسم طريق لحسا، وكان هذا الطريق يسلكه الحجاج في العهد الأفشاري أيضاً. وكما

---

١. الدر المنثور ٢ : ٧٠٧.

٢. المصدر نفسه ١ : ٣١٤.

٣. الفوائد الرضوية ١ : ٤٦٢.

جاء في نصّ المعاهدة التي أُبرمت في بين نادر شاه أفشار ١١٦٠م والسلطان العثماني في ذلك الوقت، حيث تمّ الاتّفاق على أن تصدر الدولة العثمانية أوامر لإرسال ما يكفي من الجيش والحماية لمرافقة قوافل الحجاج الإيرانيين على طريق لحسا والنجف، بحيث يوصلوهم (يوصلونهم) إلى مكّة المعظّمة بأمن وأمان، على شرط أن يكون لرئيسهم لقب غير أمير الحاج.[١]

استبدال طريق نجد بطريق حائل في العهد القاجاري

وفقاً للمعطيات الجغرافية، فإنّ الجبل ونجد منطقتان معزولتان كلّ واحدة منهما عن الأخرى، ولكن نظراً إلى شهرة اسم نجد ومسير الحجاج على طريقها منذ زمن بعيد، لذلك أصبحت هذه التسمية تطلق في كتب الرحلات الإيرانية حتى على منطقة جبل شمّر.

وهذا ما أشارت إليه إحدى رحلات السفر المنظومة شعراً في العهد القاجاري، ويعود تاريخها إلى عام ١٢٦٠هـ، وقد نُظّمت من قبل شخص سافر في تلك الأثناء إلى حج بيت الله.[٢]

ومع ذلك فإنّ المعروف أنّ هاتين المنطقتين منفصلتان كل واحدة منهما عن الأخرى.

---

١. تاريخ امپراطوري عثماني ٤ : ٣٢١٨.

٢. خمسون رحلة قاجارية في الحج = پنجاه سفرنامه حج قاجاري ١ : ٥٥٨.

كانت أهمّ قضية تشغل بال قوافل الحج هي قضية الأمن على الطريق. وبالإضافة إلى أهمية هذه القضية بالنسبة إلى الحجاج فإنها كانت أيضاً موضع اهتمام وقلق ثلاث جهات أخرى، وهي الحكومة العثمانية، والحكومة الإيرانية، ورؤساء القبائل التي كانت قوافل الحجاج تمرّ في مضاربها، ومن كانت في أيديهم الحكومات المحلية يومذاك.

وللاطلاع على الظروف السياسية التي أدّت إلى تغيير مسار طريق الحجاج من نجد إلى حائل، لابد من تقديم نبذة عن علاقة الحكومة الإيرانية مع حكومة نجد على مدى العقود الثلاثة الأولى من القرن الثالث عشر للهجرة.

إنّ امتداد سلطة حكومة نجد إلى منطقة الأحساء في عام ١٢٠٨هـ، أدّى إلى إثارة قضية العلاقات السياسية مع إيران. وكان من دواعي إثارة هذه القضية هي الحدود المشتركة مع إيران عن طريق البحر من جهة، إضافة إلى قضية المذهب المشترك بين عدد كبير من أهالي الأحساء وإيران، حيث كانت هذه القضية موضع اهتمام إيران طبعاً. وبعد مدّة أصبحت منطقة الحجاز تحت سيطرة حكومة نجد أيضاً. وهذا ما كان يفرض على إيران الدخول في جهود سياسية جديدة بسبب ما يستدعيه أمر الحج وأمن الحجاج.

كما قد أدى امتداد المعارك إلى العراق وإلى مدن البصرة والنجف وخاصة الهجوم العنيف على كربلاء في عام ١٢١٦هـ [الذي قُتل فيه

خمسة آلاف شخص] دخلت إيران في بحث قضية نجد، وقد استمرت هذه الهجمات من عام ١٢١٤هـ إلى عام ١٢٢٥هـ.[١]

وفي سنة ١٢١٧هـ بعث فتحعلي شاه رسالة مطولة إلى حكومة نجد، وعبّر فيها عن استيائه الشديد للهجوم على كربلاء.[٢]

أدّى مجموع هذه القضايا والوقائع إلى أن تجري مراسلات بين الحكومة الإيرانية ودولة نجد إلى عام ١٢٣٣هـ حيث سقطت تلك الدولة على يد الجيش الذي بعثه محمدعلي باشا بقيادة ابنه إبراهيم باشا.

خلال هذه المدّة (أي ٢٥سنة)، التي استمرّت من عام ١٢٠٨هـ إلى عام ١٢٣٣هـ حيث كانت هناك قضية اسمها العلاقات بين إيران ونجد، إذا استثنينا منها الجوانب الأخرى، كان لها تأثير واضح على قضايا الحج والحجاج الإيرانيين وقوافل الحج والطرق التي تسلكها، وهذا هو موضع بحثنا هنا.

من المعروف أنّ عبدالعزيز بن محمد بن سعود كان يحكم دولة نجد من عام ١١٧٩هـ إلى عام ١٢١٨هـ وهو العام الذي قُتِل فيه. وكان ابنه سعود حيّاً إلى عام ١١٢٩هـ وهذا هو الشخص الذي ذُكِر في المصادر الإيرانية وكانت له مكاتبات مع الحكومة الإيرانية. فهو الذي بعث رسالة إلى فتحعلي شاه شرح فيها مبادئ المذهب الذي يحظى بدعم حكومة

---

١. عنوان المجد١ : ١٢٣ـ١٢٤.

٢. ناسخ التواريخ ١ : ١٢٠ طبعة المطبعة الإسلامية، نقلاً عن تاريخيات :١٩٠.

نجد، ودعاه فيها إلى التوحيد. النصّ العربي لهذه الرسالة غير موجود، وأما نصّها الفارسي فقد أورده الميرزا أبوطالب في كتابه المطبوع تحت عنوان: «مسير طالبي»، ص ٤١٢، وهو كالآتي:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد العزيز أمير المسلمين إلى فتحعلي شاه ملك العجم: بما أنّ الشرك وعبادة الأوثان قد انتشرا في الأمّة بعد رسول الله، مثلما هو الحال بالنسبة إلى أهالي كربلاء والنجف الذين يسجدون لقبور صنعوها من الحجر والطين ويطلبون منها حاجاتهم. وهذا أضعف عباد الله؛ لأنه يعلم أنّ سيدنا علي (علياً) وسيّدنا الحسين لا يرضيان بهذه الأفعال. فنحن قد عقدنا العزم على تنقية الدين المبين، وبتوفيق الله طهّرنا نواحي نجد وأكثر بلاد العرب من الرجس.

إنّ خدمة وسكنة كربلاء والنجف بما تسوّل لهم أنفسهم لا يمتنعون عن هذه المنكرات، ولهذا فإنّ الخير والصلاح إبادتهم والقضاء عليهم. وبناءاً على ذلك أرسلنا فوجاً من الغزات إلى كربلاء لأجل أن ينالوا جزاء أفعالهم القبيحة. وإذا كان ملك العجم على هذه العقيدة أيضاً عليه أن يتوب منها؛ لأنّ كلّ من يصرّ على الشرك والكفر سيصيبه ما أصاب أهل كربلاء. والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب فتحعلى شاه، شاه ايران رسالة فى جواب ما كتبه سعود ابن عبدالعزيز، وتصوير الجواب على ما جاء في كتاب «گنجينه نشاط»؛ و كتاب تاريخيات:

«تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير. وبعد: فقد أتانا منك كتاب مصدق لساناً عربياً تضوع منه عرف المعارف منتشراً ومطوياً. والعجب ثمّ العجب أنك دعوتنا إلى التوحيد ونفي الشريك عن الله الحميد المجيد، ونحن بين يديه مفطورون عليه، نحدث به قديماً وأنّ هذا صراطي مستقيماً. نعم وجد أولياؤنا كتابك دليلاً على أنك قد أخذت في هذا الطريق سبيلاً إذاً لاتخذوك خليلاً، ولا تجد لسنتنا تحويلاً، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، وعزّ من قال:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقد ذكرتم أنكم ترسلون عالماً منكم إلينا لنطلع عليكم، وتطلعوا على ما لدينا، وليكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا، فأرسلوه من لديكم إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخوتكم وعملوا (عجّلوا) فيه فإنما المعروض على حضرتنا من مذهبكم غير ما تكتبون والناس من عندهم يقولون ويسمعون، وإن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

٢٥٦

بسعود وهابی فرمانروای نجد وحجاز مرقوم شد

تبارک الذی بیده الملک وهو علی کل شیئ قدیر وبعد فقد اتانا منک کتاب مصدق لسانا عربیا تضوع منه عرف المعارف مشتملا وطیا والعجب ثم العجب انک تدعو الی التوحید ونفی الشریک عن الله الحمید المجید وتحتی بین یدیه مغفورون علیه یحدث به قدیما وان هذا صراط علی مستقیما نعم وجد اولیانا کتابک دلیلا علی انک قد اخذت فی هذا الطریق سبیلا اذا لاتخذوک خلیلا ولا تجدوا لسنتنا تحویلا والمؤمنون بعضهم اولیا بعض وعز من قال بطنا اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض وقد ذکرتم انکم ترسلون عالما منکم الینا لنقطع علیکم وتطلعوا علی ما لدینا ولیکون لکم مالنا وعلیکم ما علینا فارسلوه من لدیکم اتما المؤمنون اخوة فاصلحوا بین اخوتکم واعلموا فیه فانما المعوض علی حضرتنا من مذهبکم غیبا تکتبون والناس من عندهم یقولون ویسمعون وان متبعون الا الظن وانتم الا تخرصون ثم استعجلوا حتی ینکشف من امرکم الحجاب ویرتفع الارتیاب وظل المسلمون فی ظل الوداد ودوحنا الموحدون ولا یلیق بنا الا الاتحاد فیا حبذا ان صحت الاعلام واتفقت منا ومنکم الاقوام ولو انفقت ما فی الارض جمیعا ما الفت بین قلوبهم ولکن الله الف بینهم انه عزیز حکیم ان الله ربی وربکم فاعبدوه هذا صراط مستقیم وان کان الامر کذا فهذا اتفاق المسلمین وکان حقا علینا نصر المؤمنین فمدکم باموال وبنین موقعین علی شمائل الخلافة ومن له علی سواحل العمان قدره وشرفه حسنعلی میرزا ان یعاملکم بالمودة متراوحها ویمدکم بما تشتهونه تراوبحرا ان الله یحق الاصفا ودبر لنا البحار وهو الذی یسیرکم فی البر والبحر انه علی ما یشاء قدیر والحمد لله علی ما هدانا والسلام

جواب ذریعه پادشاه یمن

ادام الله عزه واقام نصره ومتع به المسلمین وایده لنصر الدین فانه وصل الی حضرتنا کتابک احسن الله تعالی مآبک مبتدئا بتحمید الله الحمید ومتجددا رسول الله المجید حاویا حالات تلک السجیة

الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكنّ الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم، إنّ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، وإن كان الأمر كذا فهذا اتفاق المسلمين، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، نمدكم بأموال وبنين، وموقعين على شبل هزبر الخلافة، ومن له على سواحل العمان قدرة وشرافة، حسينعلي ميرزا أن يعاملكم بالمودة سراً وجهراً ويمدكم بما تستمدونه براً وبحراً. فإنّ الله سخر لنا الأمصار ودبر لنا البحار. وهو الذي يسيركم في البر والبحر إنه على ما يشاء قدير. والحمد لله على ما هدانا والسلام على النبي البشير النذير».[1]

في أعقاب التطوّرات، التي حصلت في المناطق المختلفة من شمال شبه الجزيرة العربية إلى حدود العراق وحتى في أعماق هذه المنطقة، كانت إيران تبدي تحفّظها إزاء قضية أمن الحجاج ومرورهم من مناطق غير آمنة. وفي هذا المجال جرت الكثير من المراسلات بين حكومة نجد والحكومة القاجارية بُحثت فيها قضايا مختلفة. ولم يتوقف الأمر من قبل حكومة نجد على الجوانب السياسية، بل إنّ امتداداتها العسكرية دفعت الحكومة الإيرانية إلى التدخّل. وقد دفَعت هزيمة حكومة نجد على يد الجيش الإيراني في مسقط في عام ١٢٢٦هـ وكذلك سقوط المدينة على يد قوات محمد علي باشا في عام ١٢٢٧هـ دفعت حكومة نجد إلى

---

١. گنجينه نشاط : ٢٥٦؛ و راجع كتاب تاريخيات : ٢٩٥.

إرسال مندوب إلى إيران طلباً لتحسين العلاقات معها. وعندما جاء هذا الشخص وكان اسمه إبراهيم بن عبد الكريم، إلى إيران، استقبلته الحكومة الإيرانية.[١] ويبدو أنّ قضية طريق الحج كانت من جملة الأمور التي بُحثت معه. وهذا ما جاء ذكره في عدد من المصادر القاجارية.

ورد في كتاب ناسخ التواريخ:

«وفي هذه السنة أيضاً أرسل سعود وفداً يحمل رسالة وهدية عبارة عن قطعة من الزمرّد النقي بحكم اترجّة، طالباً أن يمرّ حجّاج العجم إلى مكّة المكرّمة عن طريق أراضي نجد».[٢]

وفي روضة الصفا ناصري أورد تحت وقائع عام ١٢٢٨هـ ما يلي:

«وصل في هذه الأيّام موفدو سعود، وقدموا بين يدي شاه ايران عريضة وتحفاً كان من بينها فصّ من الزمرّد مسطّح وبحجم كف اليد، وطلبوا منه إكراماً للجوار بين البلدين أن يأذن لأهالي إيران من الآن فصاعداً أن يذهبوا إلى حج بيت الله عن طريق نجد، وإنهم سيقومون بكل ما يلزم لخدمة الحجاج».[٣]

وقد جاء هذا النص أيضاً في فارسنامه ناصري، ولكن مع إضافة مقطع قرب طريق نجد أي: **طلبوا أن يُسمح للحجاج العجم من الآن**

---

١. راجع: تاريخيات : ٢٩٩ نقلاً عن وثائق بومباي.

٢. ناسخ التواريخ، القسم القاجارية ١ : ٢٥١، نشر أساطير، طهران.

٣. روضة الصفا، ناصري ٩ : ٧٦٦٧ ، القسم ٢.

فصاعداً أن يسافروا إلى مكّة عن طريق نجد؛ وذلك بسبب قرب هذا الطريق، وإنهم سيقومون بكل ما يلزم لرعاية أحوالهم.[١]

وقد ورد هذا الخبر أيضاً في كتاب تاريخ ذي القرنين على النحو التالي:

«جاء بضعة نفر من قبل السعود اللامسعود بتحف لا تعدّ ولا تُحصى، وكان من بينها قطعة زمرّد بمقدار كفّ اليد نقيّة جداً وشفّافة وخالية من البقع والكدورات، وطلبوا في عريضة قدّموها ما يلي: يتقرر منذ الآن فصاعداً أن يكون ذهاب ومجيء الزوار الحجاج العجم عن طريق نجد بسبب قرب هذا الطريق حيث ستتخذ الإجراءات اللازمة لرعاية أحوال كل واحد منهم».[٢]

وكما جاء في النص المذكور آنفاً أنّ هذا اللقاء كان في عام ١٢٢٧هـ أو في عام ١٢٢٨هـ وجرى فيه بحث قضية طريق الحج وتوفير الأمن للحجاج.

وفي هذه الزيارة أو بعدها كتب صدر أعظم إيران رسالة إلى حكومة نجد بحث فيها قضية أمن الحجاج أيضاً. في ما يلي نص تلك الرسالة كما جاءت في كتاب «گنجينه نشاط، ص ٣٠٥»:

---

١. فارسنامه ناصري ١ : ٧١٠.

٢. تاريخ ذي القرنين ١ : ٣٧٧.

و لدينا نصّ يعود تاريخه إلى عام ١٢١٩هـ، ولابدّ أنه يتحدث عن مرحلة كانت فيها العلاقات متأزّمة بين إيران ونجد. وكانت قوافل الحج الإيرانية لا تذهب على طريق نجد وإنما عن طريق حائل، الذي كان هو الطريق الذي يسلكه الحجاج من قبل.

هذا النص يُعتبر من أقدم نصوص كتب الرحلات منذ بداية العهد القاجاري، وهي رسالة «منازل الحج» لمؤلفها بنده علي بن الميرزا خيرات علي، وكان قد كتبها في عام ١٢١٩هـ. «والمخطوطة موجودة في جامعة ميشيغان» في هذه الرحلة التي كانت في العقد الأوّل من عهد الحكم القاجاري، ذُكر أنّ مسير الحجاج كان عن طريق حائل، وهذا يدل على أنّ الوضع قد تغيّر عما كان عليه في السابق؛ أي في عهد الدولة الصفوية والدولة الزندية. وبما أنّ هذه الرسالة لم تُطبع، ننقل هذا المقطع في ما يلي عيناً:

«المسافة من النجف الأشرف إلى الرهبة خمسة فراسخ، والرهبة في الوقت الحاضر قرية تسكنها مائة عائلة تعمل في الزراعة، وأرضها ذات مرتفعات ومنخفضات. ويُقال: إنّ زبيدة خاتون كانت قد أمرت ببناء منارة بين كل فرسخين على امتداد المسافة من الرهبة إلى بغداد. وبما أنّ قوافل الحجاج كانت تسير ليلاً من منزل الرهبة إلى مكّة المكرّمة، وكانوا يضيئون فانوساً في منارة الرهبة، وكان على الناس أن يضيؤوا أيضاً فوانيس في المنارات الأخرى إلى بغداد، ليكون في علم زبيدة خاتون أنّ

قافلة الحجاج قد انطلقت في هذه الليلة. وفي الوقت الحاضر بقيت آثار قليلة من تلك المنائر.

وأما المسافة من الرهبة إلى أمّ القرون فهي اثنا عشر فرسخاً، وفيها حوض من الخزف[آجر]، وهي ليست عامرة، ويمتلئ حوضها بمياء الأمطار. ومن أمّ القرون إلى البركة اثنا عشر فرسخاً، ومن البركة إلى بركة سنگ چخماق (فيها المطرقة = **Flintstone**) اثنا عشر فرسخاً، ومن بركة سنگ چخماق إلى الحمام اثنا عشر فرسخاً؛ حيث كانت زبيدة قد بَنت حماماً هناك، وقد اندثر حالياً.

ومن الحمام إلى البركة اثنا عشر فرسخاً، ثم إلى البركة الأخرى اثنا عشر فرسخاً، وأيضاً إلى البركة الأخرى اثنا عشر فرسخاً. ومن البركة إلى لينة اثنا عشر فرسخاً، وفيها ثلاثمائة وست وستون بئراً، وهي موضع قبيلة شَمّر العرب الذي بناه النبي سليمان عليه السلام. وهذه الآبار كلّها مبنية بالحجر. ومن لينة إلى أول الصحراء فرسخ واحد، وثلاثة منازل في الصحراء وهي خالية من الماء. وهذه الصحراء ذات مسافة طويلة جداً.

وبعد هذه المنازل الثلاثة في الصحراء، تأتي أوائل موضع ماء جبل شمّر. ويمتدّ الطريق من البئر إلى جبل شمّر اثنا عشر فرسخاً، ومن جبل شمّر إلى داخل القلعة المعروفة باسم حائل يمتدّ الطريق ستّة فراسخ. وفي هذه المواضع تسكن قبائل شمّر.

شمّر هذه تمثّل واحدة من مدن نجد التي فيها مدن أخرى كثيرة. وأما أهالي قلعة شمّر خمسة عشر ألف عائلة، وهناك أربعون ألف عائلة في البادية عند مواضع الماء، ولديهم جمال وأغنام وخيل...

ومن قلعة حائل إلى غفار أربعة فراسخ، وهناك يعيش خمسة آلاف عائلة من أهل غفار. ومن غفار إلى ثلاثة منازل يبلغ طول مسافتها ست (ستة) وثلاثين فرسخاً وتكون البادية فيها خالية من الماء، ثمّ بعد ذلك يأتي موضع ماء يُسمّى غزالة وفيها بئر ماء.

ومن بعد منزل غزالة تأتي ثلاثة منازل أخرى مسافتها ست (ستة) وثلاثون فرسخاً لا ماء فيها، حيث يأتي بعد ذلك موضع بئر يُسمّى الملح.

ومن بئر الملح أربع وعشرون فرسخاً إلى داخل الطريق السلطاني حيث يصل هناك إلى موضع ماء.

ومن موضع ماء يمرّ اثنا عشر فرسخاً إلى البركة الشريفة التي هي موضع إحرام، وهي أول وادي العقيق الذي يسمّى الأولى، وهو موضع إحرام الفرقة الناجية الإمامية».

از جانب صدر اعظم بسعود فرمانروای نجد و حجاز نوشته شده

سلام از بهی من الزهر و اهی من الدرر موشح به صدر الاخلاص و المحبه مزجاه علیه کالدلاص علی حضرت
علیه بهیته قد علی بهاجیل النجد و انبسط لها بارالمجد ارتسم السعود فی السماء باسمها و ابتسم النحوس فی البلاد

۳۰۵

بحضمها بر ها علی البریه بحر فی البر تموج وجودها علی الخلیقه فجر من الیمن تبلج سلک قوافل الارب محلات النسب
الیها فلا زالت رواحل المجد معقوله الزمامها و بعد فلا یخفی علی الضمیر المنیر و الشمس منه تستنیر انه عرض مرارا
اسرا و جهارا علی الحضره السنیه العالیه النجاقانیه روحی فداه و اعلی الله علاها ان خدامکم الکرام لا یزالون
یسعون فی رعایه عابری ذاک السبیل و قاصدی بیت الله الجلیل سیما مساوی هذه البلاد فرعوا فیهم
حق الوداد و لا غرو اذ الرسوم بین الجانبین محفوظه و القلوب من الود محفوظه فلما انکشف امر العشیر انتهی
فی بدی الممالک عن سلوک طریق غیر تلک المسالک فشد الرحال الی المحال علی حسب الحکم المتعال
و اذا غرم السید الجلیل و الحبر النبیل ذو الحسب المنیع و النسب الرفیع مقتدی الانام علامه الایام میرزا
هدایت الله مع اخویه المحترمین علی طواف الحرمین المکرمین و معهم جم من الحجاج و هم هموا ذلک المنهاج
و نرجو منکم ان تبقوا الیهم بعین العنایه و تامروا اتباعکم و اشیاعکم بحسن الرعایه فاسلکوهم الی الدار
النهایه و ادخلوهم الی البلد الامین و لنا ایضا امل ان یکون مرفوعا بینکم الحجاب و یسعی الرسل
عن امرها بالکتاب و السلام علیکم و رحمه الله و برکاته

استمرار المشاكل وتأثيرها على طريق الحج

تواصلت جهود ايران لتطويق نشاطات حكومة نجد، وذلك عندما أرسلت إيران سفيراً إلى مصر للقاء محمدعلي باشا. وقد وردت أخبار ذلك مصادر الحكم القاجاري.[١]

هناك احتمال كبير، أنه في كثير من السنوات الواقعة بين عام ١٢١٤هـ إلى عام ١٢٢٧هـ لم يتمكن الحجاج من أداء مناسك الحج، وإن كُنّا غير متأكدين تماماً من ذلك. فالأخبار التي كانت تصل إلى إيران يومذاك حول الأحداث في تلك البلاد، أثارت الهلع في النفوس بحيث أنه لم يتجرّأ أحد على الذهاب إلى نجد. وقد قدّم الميرزا أبوطالب الأصفهاني (م١٢٢١هـ) وصفاً تفصيلياً لتلك الأوضاع.[٢]

وقد أورد الميرزا أبوطالب الرسالة التي كانت قد بعثتها حكومة نجد إلى الحكومة الإيرانية، إلاّ أنّ هذه الرسالة بالفارسية، ولابدّ أنها كانت ترجمة عن رسالة مكتوبة باللغة العربية.

هناك تقرير يعود تاريخه إلى عام ١٢٣٠هـ أي قبل ثلاث سنوات من سقوط حكومة نجد الأولى، وهو يظهر أنّ منطقة الجبل أيضاً كانت تحت سيطرة تلك الحكومة عن نحو ما، ولم يكن الحجاج الإيرانيّون

---

١. روضة الصفا، ناصري ٩ : ٧٧٦٥، الباب ٢.

٢. مسير طالبي: ٤١١.

والشيعة يشعرون بالأمان في ظل تلك الظروف. وقد كتب عبد الحسين كرناتكي في ذلك التاريخ ما يلي:

«في يوم الثلاثاء، العشرين من شهر ذي القعدة: حملوا أمتعتهم عند منتصف الليل. في تلك الليلة كان الجوّ ملبّداً بالغيوم، وكانت الرياح شديدة، ثمّ أخيراً هطل المطر وكان الظلام شديداً. وبعد قطع مسافة ذلك المنزل، وصلت القافلة في أول العصر إلى جبل شمّر، وكان الشخص الوجيه هناك يسمّى محمد بن علي، وكانت تلك القرية اسمها حائل. ونزل الحجاج هناك وفي الحقيقة كان موضعاً جيداً جداً وكان فيه ماء عذب. وكانت هناك عند قاعدة ذلك الجبل مدينة تمتدّ طولاً، وكانت هناك بساتين كثيرة. وامتدت الإقامة هناك عدّة أيّام، وكان الجوّ لطيفاً والهواء منعشاً والطبيعة زاهية... كانت أجواء تلك المدينة في غاية الحسن، والطرق فيها مسطّحة وقويمة، والناس فيها حسنو البشرة وصباح الوجوه وملاح، ولكنها وللأسف في أيدي الوهابية، والناس فيها لصوص وأشرار. ولكن كبار القوم فيها من ذوي المجاملة، مثلما هو الحال بالنسبة إلى محمد ابن علي الذي أرسل إليَّ خروفاً على وجه الضيافة، وقدّمت أنا لمبعوثه كوفية (غترة)، ففرح بها وانصرف».[1]

---

١. خمسون رحلة سفر إلى الحج، من العهد القاجاري (پنجاه سفرنامه قاجاري) ١ : ٢٨٤.

ثمّ إنه يشير ـ بعد التوقّف هناك عدّة أيّام ـ ، إلى أنه عند انطلاقهم في السفر، كان معهم دليلان: أحدهما من قِبل حاكم الجبل، والآخر من قِبَل سعود حاكم نجد. وكان من المقرر أن يصلوا إلى مكّة المكرّمة خلال عشرة أيّام.

يوم الأحد الخامس والعشرين من ذي القعدة، بعد صلاة الصبح، حمل الحجاج أمتعتهم. الدليل الذي أُرسل من قبل جبل ابن علي، كان اسمه قتلان. وأما الدليل الذي أرسله سعود بن عبد العزيز فكان وهابياً، ولم يكن هناك دليل أفضل منه. ففي تلك الأيّام كان يسير حتى في الليالي الحالكة الظلام. وكان قد قطع عهداً على إيصال قافلة الحجاج إلى مكّة المكرّمة خلال عشرة أيّام.[1]

لم يكن الطريق آمناً، ورغم أنّ حاكم الجبل كان قد أوصى بأن يصطحبوا معهم جنوداً ومسلحين، إلا أنّ رؤساء القوافل لم يفعلوا ذلك، فهجم اللصوص عليهم في الطريق وسلبوا منهم كل شيء:

«ولم يصطحب الحجاج ورؤساء القوافل معهم مسلحين من الجبل، رغم أنّ محمد بن علي حاكم الجبل كان قد أوصاهم بذلك. وكان التقصير في ذلك من قِبل رؤساء القوافل. فنهبوا من الحجاج كلّ شيء ولم يبقوا

---

١. المصدر نفسه : ٢٨٦.

على رأس الحجاج عمامة ولا عباءة ولا كوفية. فضاقت الأمور على الحجاج، ولم يجرء أحد منهم على الخروج من الخيمة إلى الخلاء».

شرحه في هذا الباب وحكايته حول عدم أمن الطريق كان مروّعاً، والمعلومات التي قدّمها تتحدث عن القبائل الساكنة على طول الطريق.

وفي تلك الأثناء وصل مندوب من حكومة نجد، وعبّر عن احتجاجه قائلاً: لماذا فعلوا على خلاف ما أرادته حكومة نجد، وجاءوا عن طريق الجبل؟! فهم يستحقون ما جرى عليهم. في هذا الوقت كان مبعوث عبد الله بن سعود من الدرعية، مبارك الظاهري قد دخل وبرفقته مائة مسلّح، وقال: إنه قد جعلني أميراً مكلفاً بإدارة شؤون الحجاج، وبعثني إليكم. وقال عبد الله: إنّ الحجاج جاءوا عن طريق الجبل خلافاً لما أمرتُ به؛ ولذلك فهم يستحقون أن يُقتلوا وتُنهب أموالهم. ولكنني عفوت عنهم وهم الآن في أمان.

ووفقاً لما جاء في سرده لتلك الأوضاع أنّ القافلة كانت تواجه ثلاثة مشاكل أساسية، وهي: العرب الذين كانوا يأخذون الضرائب (الخاوة) وهم من أفراد قبيلة عنيزة، والبدو الذي كانوا يسلبون أموال الحجاج، وكانت حكومة نجد قد أوفدت مندوباً ولكن لم يكن قادراً على بسط الأمن أو أنه لم يكن يريد فعل ذلك.

في ذلك الوقت كانوا نادمين تماماً؛ لأنهم لم يصغوا لنصائح أحد علماء النجف وكان اسمه سيد علي، الذي كان قد أمرهم بعدم المسير على

هذا الطريق، ودعاهم إلى السفر عن طريق الشام: «نـدمنا وأسـفنا علـى المجيء نحو جبل شمّر وبقينا نوبّخ أنفسنا على الدوام بسبب مخالفتنا لـرأي وأمر سماحة السيد مجتهد العصـر والزمـان سـيد علـي ــ دام فضـله ــ ولم نذهب عن طريق الشام».[١]

لحق بنا شخص اسمه مبارك، كان قد بعثه سعود حاكم نجـد، ومعـه شخص اسمه قتلان، وأرادوا مالاً معيناً وأقفوا القافلة كلّها. وانتاب القلـب جميع أفراد القافلة الذين أخذوا يشعرون بأنّ وقت الحج سيفوتهم. وعلـى كلّ الأحوال فقد كان من الصعب على الحجاج إعطاءه ذلك المال، ولكـن مبارك أصرّ على أخذ المال منهم.[٢] وأخيراً رضي بمبلغ من المال وتحركـت القافلة، وما لبث أن جاء أفراد من قبيلة حـرب! وأرادوا أخـذ ضـرائب (الخاوة) بالقوّة؛ فانتاب الخوف والهلع جميع الناس، فبـادروا بـالفرار مـن ناحية إلى ناحية أخرى من دون اختيار، ولكن في نهاية الأمـر جمعـوهم؛ فأصبحت هناك على جوانب القافلة مجموعتان: إحداهما من قِبـل حـاكم نجد، والأخرى من قِبل قبيلة حرب. وحينئذ لم يكن قد بقي إلا ستة أيّام لبدء مناسك الحج، فسقط وقـت الحضـور لأداء المناسـك عمليّـاً، فعـزم الحجاج على الذهاب إلى المدينة المنوّرة والبقاء فيهـا. وبنـاءً علـى ذلـك وبسبب انعدام الأمن في الطريق، و وجـود قـوات متعارضـة بعضـها مـع

---

١. المصدر نفسه: ٢٩١.

٢. المصدر نفسه: ٢٩٣.

بعض، لم تصل قافلة الحجاج في ذلك العام إلى مكّة المكرّمة في وقت الحج.

هذه القصة التي كانت قد وقعت في عام ١٢٣٠هـ نقلها عبد الحسين كرناتكي بالتفصيل.[١]

وهدفنا من وراء نقلها هنا، هو تقديم صورة عمّا كانت عليه الأوضاع يومذاك؛ مما يدعو إلى الأسف أنّ كتب الرحلات التي كُتبت بعد عام ١٢٣٠هـ يعود أول واحد منها إلى عام ١٢٦٠هـ فكان هذا سبباً لعدم حصولنا على المعلومات اللازمة حول ما كان قد وقع آنذاك.

إنّ **محمد ولي ميرزا** قد سافر إلى الحج في عام ١٢٦٠هـ عن طريق الجبل. ومن بعد ذلك كان الحجاج يسلكون هذا الطريق عادة. ورغم المصاعب الكثيرة التي كانت تكتنف هذا الطريق، إلاّ أنه غدا الطريق الرئيسي الذي يسافر عبره الحجاج الإيرانيون إلى الديار المقدّسة. ويُعزى سبب ذلك إلى أنه كانت سيطرة حكومة معيّنة على ذاك الطريق، ولم يكن لتلك الحكومة من منافس سوى القبائل البدوية، وهي قبائل كانت حكومة الجبل قادرة على إخضاعها لسلطتها.

هذه العبارة التي أوردها محمد ولي ميرزا تكشف عن هذا التفاهم:

---

١. المصدر نفسه: ٢٩٧...

«في يوم الثلاثاء المصادف الخامس عشر من الشهر وصلنا إلى الجبل. ومنذ الصباح الباكر صدر أمر بأن لا تسير قافلة الحجاج قبل شروق الشمس. ومن بعد شروق الشمس أخذوا يسيرون جماعات جماعات؛ أي أنه دعا كل رئيس قافلة مع الحجّاج من أفراد قافلته وسجّل أسماءهم، وقد تأخروا لمدّة ساعتين. وبعد ساعتين سار الحجاج. وفي الطريق استقبلهم ما يقارب ثلاثون (ثلاثين) فارساً، فقد كان عبد الرحمن آل رشيد قد جاء مع إبني عبد الله، وجالوا قليلاً على خيولهم. وقد سقط أحد ابني عبد الله من على ظهر الفرس واصطدم بالأرض بشدة. وبعد الظهر دخلنا منزلاً يتصل بالجبل في موضع بنوا فيه حائطاً. ونزل الجميع في ذلك الموضع وفي يوم وصولنا قدّم عبد الله للحجاج ما يُقارب مائة خروف من باب التكريم، وأرسل لنا أيضاً رأسين منها».[١]

وهذا يدلّ على أنّ طريق نجد قد ذهب أدراج النسيان تقريباً، وأدنى ما يمكن قوله هو إنّ الحجاج الإيرانيين الذين كانوا يتجمّعون في النجف كانوا يعوّلون على حكام الجبل، ويذهبون إلى مكّة من هذا الطريق، ولا يذهبون من طرق أخرى.

ويؤيد ذلك ما كتب بلجريف (پالگريو انگليسى) في سنة ١٨٦٢م/١٢٧٨هـ حول التفاوت بين سياستين، سياسة آل رشيد

١. خمسون رحلة سفر إلى الحج، من العهد القاجاري، (پنجاه سفرنامه قاجاري) ١ :٥٠٥.

و سياسة الوهابيين بالنسبة إلى الشيعة وما يعتقد كل واحد منهم بالنسبة إليهم. بلجريف يشير إلى سياسة طلال في جذب قسم من فلوس الحجاج إلى الحائل ويقول:

«الطريق عبر وسط الجزيرة العربية مرور (مروراً) بنجد، وهو طريق أقصر نسبتاً (نسبةً) وسهل، ولكن تسامح الوهابيين كانوا يظنون أنّ أراضيهم ستصاب بالدنس، إذا ما وطأتها أقدام أولئك الملحدين التعساء...!!! ولكن السنة والشيعة في ظلّ حكم طلال، كانوا عنده سواء، ولم يكن من طبعه فرض رسوم إضافية، أو تقديم متطلبات إضافية، على إي حاج من الحجاج، سبب آرائه الدينية مهما اختلفت ألوانها».[1]

المصادر:

ـ إحياء الملوك، شاه حسين بن غياث الدين محمد، طهران، دار نشر علم، ١٤٢٥هـ.

ـ پنجاه سفرنامه حج قاجاري، باهتمام رسول جعفريان، طهران، دار نشر علم، ١٤٣٢ هـ.

ـ تاريخ امپراطوري عثماني، هامر پورگشتال، ترجمة (إلى اللغة الفارسية) الميرزا زكي علي‌آبادي، طهران، دار نشر أساطير، ١٤٢٧هـ.

ـ تاريخ ذو القرنين، فضل الله خاوري شيرازي، دار نشر طهران.

---

١. وسط الجزيرة العربية ١ : ٢٣٥.

ـ تاريخيات، حسين مدرسي، نيوجرسي، دار النشر زاگرس، ٢٠٠٩م
ـ تذكره صفويه كرمان، مير محمد سعيد مشيزي، باهتمام محمد إبراهيم باستاني پاريزي، طهران، دار نشر علم، ١٤١٠هـ.
ـ حدائق الجنان، المخطوطة المحفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في إيران، برقم ٩١٢، الورقة ١٧.
ـ خلاصه التواريخ، أحمد بن المير منشي القمي، طهران، جامعة طهران، ١٤٢٥هـ.
ـ الدر المنثور.
ـ راهنماي دانشوران، علي أكبر برقعي، قم، ١٤٢٦هـ.
ـ روضة الصفا، باهتمام جمشيد كيان فر، طهران، دار نشر أساطير، ١٤٢٢هـ.
ـ سفرنامه شاردن (= رحلة شاردن)، طهران، دار نشر توس، ١٤١٣هـ.
ـ سياست وفرهنگ روزگار صفوي (= السياسة والثقافة في العصر الصفوي)، رسول جعفريان، طهران، دار نشر علم، ١٤٣٠هـ.
ـ عنوان المجد، ابن بشر، مكة، المطبعة السلفية.
ـ فارسنامه ناصري، حسن فسائي شيرازي، طهران، دار نشر أميركبير، ١٤٢٤هـ.
ـ الفوائد الرضوية، الشيخ عباس القمي رحمه الله، قم، ١٤٢٧هـ.

ـ گنجينه نشاط: كليات ديوان نشاط اصفهانى، انتشارات كتابفروشى محمودى.

ـ المجموعة المخطوطة المرقّمة: ١١٦٣٩ المحفوظة في مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

ـ مسير طالبي، ميرزا أبوطالب، تحقيق حسين خديو جم، طهران، ١٤٢٥هـ.

ـ منازل الحج، مخطوطة جامعة ميشيغان.

ـ ناسخ التواريخ، باب القاجارية، محمد تقي سپهر، طهران، دار نشر أساطير، ١٤١٩هـ.

ـ وقايع السنين والأعوام، خاتون آبادي، تحقيق محمد باقر بهبودي، طهران، ١٤٩٣هـ.

ـ وسط الجزيرةالعربية وشرقها، ويليام جيفورد بلجريف، ترجمه صبري محمد حسن، القاهره، ٢٠٠١م.

ـ هفت اقليم (= الأقاليم السبعة)، أمين أحمد رازي، طهران، دار نشر علي أكبر علمي.

* * *

فضائل الحرمين الشريفين

في تراث أهل البيت عليهم السلام (٦)

محمّدعلي المقدادي

تمهيد:

ما زلنا نواصل ما ذكرناه في الأعداد (٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و٤٠ و٤١) من هذه المجلة حول ما يتعلق بفضائل حرمي مكة والمدينة، اللذين احتلّت فضائلهما وأحكامهما وآدابهما مساحةً واسعةً في التراث الإسلامي،

وعند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، وبالذات فيما وصل إلينا من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والتي تتميّز بأنها الأفضل والأصحّ؛ لأنها تصدر عن الثقل الثاني بعد التنزيل العزيز، اللذين هما مصدرا العقيدة والتشريع، وفقاً لما جاء به الحديث النبويّ المعروف بحديث الثقلين، الذي رواه أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بألفاظ عديدة لكنها متقاربة، منها:

«يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله؛ وعترتي أهل بيتي».[١]

«إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما».[٢]

وكيف لا تتوفر للحرمين تلك المساحة اللائقة، وهما يشكلان وجودين مباركين في حياة المسلمين في دينهم ودنياهم؛ لما يتمتعان به من خصائص نفتقدها في غيرهما، ولما أسند إليهما من دور في بناء الإنسان

---

١. كمال الدين، الشيخ الصدوق : ٢٣٨؛ بحار الأنوار ٢٩ : ٣٤٠؛ مسند الرضا عليه السلام، داود بن سليمان الغازي : ٢٠٣.

٢. أنظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله للشيخ منصور علي ناصف، من علماء الأزهر الشريف ١: ٤٧ ؛ كتاب الإسلام والإيمان. و٣: ٣٤٨ كتاب الفضائل، وغيره من المصادر.

المسلم روحيّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً.. ولما سنّ لهما وخاصةً للحرم المكي بمواقيته المتعدّدة من شرائع ومناسك وآداب بين ما يجب على المسلم أداؤه، وما ينبغي ويستحب له ذلك، حين تواجده فيهما في فريضة أو مستحب يؤديه، وأيضاً لفريضة الحج، وهي السبب الأهم، حين أذّن لها نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، بأمر من الله سبحانه وتعالى، فأحيا به هذه البلاد يوم أن بثّ فيها الخير والعطاء، وغدا الناس يأتونها من كل مكان في عالمنا قديماً وحديثاً، ومنذ ذلك الوقت الذي شرع فيه منسك الحج المبارك، وصار يؤديه أنبياء وصالحون.. وما زال وسيبقى هذا المنسك يتوجه نحوه المسلمون والمؤمنون لأدائه، حتى يأذن الله تعالى بنهاية دار الابتلاء والتكاليف، فينتقل الجميع إلى دار الجزاء والأجر والثواب ؟!

فقداسة الحرمين الشريفين «مكة المكرمة و المدينة المنورة» وما لهما من وظائف جليلة، أمرٌ أجمع عليه أهل التوحيد، مما جعلهما محلّ اهتمام أحاديث كثيرة ومواقف جليلة لأهل البيت عليهم السلام، وهم الأدرى بفضائل هذين الحرمين، وما لهما من دور كبير ومبارك في حياة المسلمين في البناء الإيماني لهم، أو الروحي والأخلاقي، فضلاً عما تتركه مناسك الحج واجتماعه السنويّ الحاشد من آثار في ثقافتهم، وتوحيد صفوفهم، وما يتمخض من منافع جليلة.. وقد شكلت تلك الأحاديث والأقوال والمواقف تراثاً كبيراً، صار مورد عناية ودراسة من قبل المسلمين، وبالذات أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، على المستوى الفقهي والروحي

والخلقي... ونحن هنا نقتبس ما يتيسر لنا منه، وبما يتعلق بفضائل هذين الحرمين المباركين مكة والمدينة، وننشره إن شاء الله تعالى على شكل حلقات في هذه المجلة.

* * *

١٣ـ المزدلفة (المشعر الحرام):

١ ـ الحسين بن سعيد، عن القاسم بن عروة، عن عبيد الله وعمران ابني علي الحلبيين، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا فاتتك المزدلفة فقد فاتك الحج».[١]

٢ ـ ... عن أحمد بن محمد، عن علي بن النعمان، عن سعيد الأعرج، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ملكان يفرجان للناس ليلة مزدلفة عند المأزمين الضيقين».[٢]

٣ ـ ... حدثني أبي، عن فضالة بن أيوب، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ إبراهيم عليه السلام أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية... فقال: يا إبراهيم! ازدلف إلى المشعر الحرام، فسميت المزدلفة، وأتى به المشعر الحرام، فصلى به المغرب والعشاء

---

١. الاستبصار ٢ : ٣٠٥، ح١٠٨٩.

٢. وسائل الشيعة ١٤ : ٧، ح١٨٤٥٣.

الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثم بات بها حتى إذا صلى بها صلاة الصبح أراه الموقف...».[١]

٤ ـ عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن صفوان أو رجل عن صفوان، عن ابن بكير، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ المزدلفة أكثر بلاد الله هواماً، فإذا كانت ليلة التروية نادى مناد من عند الله يا معشر الهوام ارحلن عن وفد الله، قال: فتخرج في الجبال فتسعها حيث لاتُرى، فإذا انصرف الحاج عادت».[٢]

---

١. تفسير علي بن إبراهيم القمي: سورة صافات.

٢. الكافي ٤ : ٣١٦، ح٢٦٧٩٣.

Hajj.ir

٥ ـ حدثنا الحسين بن علي بن أحمد الصايغ رحمه الله، قال حدثنا الحسين بن الحجال، عن سعد بن عبدالله قال حدثني محمد بن الحسن الهمداني، قال: سألت ذا النون المصري، قلت يا أبا الفيض لم صير الموقف بالمشعر ولم يصير بالحرم؟ قال: حدثني من سأل الصادق عليه السلام ذلك فقال: «لأنّ الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والمشعر بابه، فلما أن قصده الزائرون وقفهم بالباب حتى أذن لهم بالدخول، ثم وقفهم بالحجاب الثاني وهو مزدلفة فلما نظر إلى طول تضرّعهم أمرهم بتقريب قربانهم فلمّا قربوا قربانهم وقضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب التي كانت لهم حجاباً دونه أمرهم بالزيارة على طهارة...».[١]

٦ ـ علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن معاوية وحماد، عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال: «لا تصلّ المغرب حتى تأتي جمعاً، فتصلّي بها المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، وأنزل ببطن الوادي عن يمين الطريق قريباً من المشعر، ويستحب للصرورة أن يقف على المشعر الحرام ويطأه برجله، ولا يجاوز الحياض ليلة المزدلفة، ويقول: ***اللهم هذه جمع، اللهم إني أسألك أن تجمع لي فيها جوامع الخير، اللهم لا تؤيسني من الخير الذي سألتك أن تجمعه لي في قلبي***».[٢]

---

١. علل الشرائع ٢ : ٢١٩.

٢. الكافي ٤ : ٦٦٤.

٧ ـ ما رواه محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد ابن محمد، عن محمد بن سنان، عن ابن مسكان، عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك إنّ صاحبي هذين جهلا أن يقفا بالمزدلفة فقال: «يرجعان مكانهما، فيقفان بالمشعر ساعة». قلت: فإنه لم يخبرهما أحد حتى كان اليوم وقد نفر الناس؟ قال: فنكس رأسه ساعة ثم قال: «أليسا قد صليا الغداة بالمزدلفة»؟ قلت: بلى. قال: «أليس قد قنتا في صلاتهما»؟ قلت: بلى. قال: «تمّ حجهما، ثم قال: المشعر من المزدلفة والمزدلفة من المشعر، وإنما يكفيهما اليسير من الدعاء».[1]

٨ ـ علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير ومحمد ابن إسماعيل، عن الفضل ابن شاذان، عن صفوان بن يحيى وابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أصبح على طهر بعد ما تصلي الفجر، فقف إن شئت قريباً من الجبل، وإن شئت حيث شئت، فإذا وقفت فاحمد الله، واثن عليه، واذكر من آلائه وبلائه ما قدرت عليه، وصلّ على النبيّ صلى الله عليه وآله، وليكن من قولك: ***اللهم ربّ المشعر الحرام فُكَّ رقبتي من النار، وأوسع عليَّ من رزقك الحلال، وادْرأْ عنّي شرّ فسقة الجنّ والإنس، اللهم أنت خير مطلوب إليه، وخير مدعوّ، وخير مسؤول، ولكل وافد جائزة، فاجعل جائزتي في موطني هذا***

---

١. الاستبصار٢ : ٣٠٥؛ الكافي ٤ : ٦٦٩.

أن تقيلني عثرتي، وتقبل معذرتي، وأن تجاوز عن خطيئتي، ثمَّ اجعل التقوى من الدنيا زادي.

ثم أفض حين يشرق لك ثبير، وترى الإبل موضع إخفافها».[١]

٩ـ علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سأله رجل في المسجد الحرام مَن أعظمُ الناس وزراً؟ فقال: «من يقف بهذين الموقفين عرفة والمزدلفة، وسعى بين هذين الجبلين، ثم طاف بهذا البيت، وصلى خلف مقام إبراهيم عليه السلام ثم قال في نفسه أو ظنّ أن الله لم يغفر له، فهو من أعظم الناس وزراً».[٢]

١٠ ـ روينا عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أنه: «كان يستحب أن يأخذ حصى الجمار من المزدلفة».[٣]

١١ـ وعن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «خذ حصى الجمار من مزدلفة، وإن أخذتها من منى أجزأك».[٤]

١٢ـ أبي رحمه الله قال: حدثنا سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمد ابن خالد، عن أبيه، عن محمد ابن سنان، عن إسماعيل بن جابر

---

١. الكافي ٤ : ٦٦٥.

٢. الكافي ٤ : ٧٦٦.

٣. دعائم الإسلام ١ : ٢٨٨.

٤. المصدر نفسه.

وعبدالكريم بن عمرو، عن عبدالحميد بن أبي الديلم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «سميت المزدلفة جمعاً، لأنَّ آدم جمع فيها بين الصلاتين المغرب والعشاء.[١]

١٣ـ وقال أبي رضي الله عنه في رسالته إليَّ: «إنما سميت المزدلفة جمعاً، لأنه فيها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين».[٢]

قال العلامة المجلسي رحمه الله إعلم: أنه قد يطلق المشعر بفتح الميم، وقد يكسر على جميع المزدلفة، وقد يطلق على الجبل المسمى بقزح، وهو المراد هاهنا في الموضعين كما ذكره الشيخ، وفسرها ابن الجنيد بما قرب من المنارة، وقال في الدروس: الظاهر أنه المسجد الموجود الآن، وما ذكره بعض المتأخرين أنَّ المراد المزدلفة، فلا يخفى بعده.[٣]

١٤ـ حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، قال: حدثنا الحسين ابن الحسن بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن صفوان، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث إبراهيم عليه السلام: «إنّ جبرئيل عليه السلام انتهى به إلى الموقف، فأقام به

---

١. علل الشرايع ٢ : ٢٠٥.

٢. المصدر نفسه.

٣. مرآة العقول، العلامة المجلسي رحمه الله ١٨ : ١٢٧.

حتى غربت الشمس، ثم أفاض به فقال: يا إبراهيم ازدلف إلى المشعر الحرام، فسميت مزدلفة».[١]

١٥ـ أبي رحمه الله قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن إبراهيم ابن مهزيار، عن أخيه علي بن مهزيار، عن فضالة بن أيوب، عن معاوية ابن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنما سميت مزدلفة، لأنهم ازدلفوا إليها من عرفات».[٢]

١٦ـ وصحيحة أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «لا بأس بأن تقدم النساء إذا زال الليل، فيقفن عند المشعر الحرام ساعة، ثم ينطلق بهنّ إلى منى فيرمين الجمرة، ثم يصبرن ساعة ثم يقصرن وينطلقن إلى مكة، إلا أن يكنّ يرون أن يذبح عنهنّ فإنهنّ يوكلن من يذبح عنهنّ».[٣]

١٧ـ وروي عن الرضا عليه السلام: «ما وقف أحد بتلك الجبال إلاّ استجيب له، فأمّا المؤمنون فيستجاب لهم في آخرتهم (آخريهم)، وأما الكفّار فيستجاب لهم في دنياهم».[٤]

---

١. علل الشرايع ٢ : ٢٠٤.

٢. المصدر نفسه.

٣. جامع المدارك، السيد الخوانساري ٢ : ٤٨٢ ؛ الكافى ٤ : ٤٧٤.

٤. عدة الداعي، ابن فهد الحلي : ٤٧ ؛ بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٩٦ : ٢٦١.

١٨ـ في الحدائق: وممّا روي في فضل هذا المكان، ما رواه ابن بابويه في الصحيح، عن معاوية ابن عمّار قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: «ما لله عزّوجلّ منسك أحب إلى الله ـ تعالى ـ من موضع المشعر، وذلك أنه يذلّ فيه كلّ جبار عنيد».[١]

١٩ـ يسمى المزدلفة باعتبار أنه يتقرب فيه إلى الله تعالى، قال الصادق عليه السلام في صحيح معاوية: «ما لله تعالى منسك أحب إلى الله تعالى من موضع المشعر الحرام، وذلك أنه يذل فيه كلّ جبّار عنيد». أو لازدلاف الناس فيها إلى منى بعد الإقامة، أو لمجيء الناس إليها في زلف من الليل، كما في صحيح معاوية، أو لأنها أرض مستوية مكنوسة، وفي صحيح معاوية عن الصادق عليه السلام في حديث إبراهيم عليه السلام: «إنّ جبرئيل عليه السلام انتهى به إلى الموقف، وأقام به حتى غربت الشمس، ثم أفاض به؛ فقال: يا إبراهيم ازدلف إلى المشعر الحرام، فسميت مزدلفة». وقال أيضاً في خبر إسماعيل ابن جابر وغيره: «سميت جَمْعٌ لأنَّ آدم عليه السلام جمع فيها بين الصلاتين: المغرب والعشاء». والأمر في ذلك سهل، والله العالم.[٢]

٢٠ـ (١١٤١٠) بعض نسخ الرضوي (عليه السلام) : فإذا سقطت القرصة فامض إلى المزدلفة وعليك السكينة والوقار، وأكثر الاستغفار

---

١. الحدائق الناضرة ١٦ : ٤١٩؛ الحج والعمرة ومعرفة الحرمين الشريفين :٩١.

٢. جواهر الكلام، الشيخ محمدحسن النجفي رحمه الله ١٩ :٦١-٦٢.

والتلبية، فإذا انتهيت إلى الكثيب الأحمر عن يمنة الطريق فقل: «أللهم ارحم موقفي، و زدْ في علمي».[١]

٢١ـ و روي عن سفيان أيضاً أنه قال للصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله لم جعل الموقف من وراء الحرم ولم يصر في المشعر؟ فقال عليه السلام: «الكعبة بيت الله والحرم حجابه والموقف بابه، فلما قصدوه وقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم بالدخول أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلمّا نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلمّا رحمهم أمرهم بتقريب قربانهم، فلمّا قربوا قربانهم وقضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب، أمرهم بالزيارة لبيته». فقال له سفيان: فلم كره الصوم أيام التشريق؟ قال عليه السلام: «لأنهم في ضيافة الله ولا يحب للضيف أن يصوم». قال سفيان: جعلت فداك، فما بال الناس يتعلقون بأستار الكعبة وهي خرق لا تنفع شيئاً؟ فقال عليه السلام: «ذلك مثل رجل بينه وبين آخر جرم، فهو يتعلق به ويطوف حوله رجاء أن يهب له جرمه».[٢]

---

١. مستدرك الوسائل، الميرزا النوري رحمه الله ١٠ : ٤٦.

٢. علل الشرائع، باب ١٩٠ العلة التي من أجلها صير الموقف بالمشعر ولم يصير بالحرم : ٤٤٣ ؛ الأنوار البهية، الشيخ عباس القمي رحمه الله : ١٥٣؛ بحار الأنوار ٩٩ : ٣٤، ح ١٢، وفيه بعض الاختلاف في الألفاظ.

٢٢ـ محمد بن أحمد بن يحيى عن يعقوب بن يزيد عن ابن فضال عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الوقوف بالمشعر فريضة ...».[١]

٢٣ـ فقه الرضا عليه السلام: «...فأدنى ما يتمّ به فرض الحج ... والموقفين ... فإذا أصبحت فصلّ الغداة، و قِفْ بها (أي بالمشعر) كوقوفك بعرفة، وادع الله كثيراً.[٢]

٢٤ـ (١١٤٣٣) الصدوق رحمه الله في الفقيه: «وليكن وقوفك على غسل، وقل: أللهم ربّ المشعر الحرام، وربّ الركن والمقام، وربّ الحجر الأسود وزمزم، وربّ الأيام المعلومات، فكّ رقبتي من النار، وأوسع عليّ من رزقك الحلال، وادرأ عني شرّ فسقة الجن والإنس، وشرّ فسقة العرب والعجم، أللهم أنت خير مطلوب إليه، وخير مدعو، وخير مسؤول، ولكل وافد جائزة، فاجعل جائزتي في موطني هذا أن تقيلني عثرتي، وتقبل معذرتي، وتجاوز عن خطيئتي، وتجعل التقوى من الدنيا زادي، وتقبلني مفلحاً منجحاً مستجاباً لي، بأفضل ما يرجع به أحد من وفدك، وحجاج بيتك الحرام».

وادع الله عز وجل لنفسك، ولوالديك وولدك وأهلك ومالك، وإخوانك المؤمنين والمؤمنات، فإنه موطن شريف عظيم، والوقوف فيه

---

١. جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي ١١ : ٥٠٧.

٢. المصدر نفسه.

فريضة، فإذا طلعت الشمس، فاعترف لله تعالى بذنوبك سبع مرات، واسأله التوبة سبع مرات.[١]

٢٥ـ (١٤٦٧٤) علي بن الحسين المرتضى في رسالة (المحكم والمتشابه) نقلاً من (تفسير النعماني) بإسناده عن علي عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «وأما حدود الحج فأربعة، وهي: الإحرام، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف في الموقفين (عرفات والمشعرالحرام) وما يتبعها ويتصل بها، فمن ترك هذه الحدود وجب عليه الكفارة والإعادة».[٢]

٢٦ـ قال الإمام عليه السلام: «قال الله عزوجل للحاج: ﴿**فاذا أفضتم من عرفات**﴾ ومضيتم إلى المزدلفة ﴿**فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾ بآلائه ونعمائه، والصلاة على محمد سيد أنبيائه، وعلى عليٍّ سيد أصفيائه، واذكروا الله ﴿**كما هديكم**﴾ لدينه والإيمان برسوله ﴿**وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾ عن دينه من قبل أن يهديكم إلى دينه. ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ ارجعوا من المشعر الحرام من حيث رجع الناس من "جمع" والناس هاهنا في هذا الموضع الحاج غير الحمس، فإنّ

---

١. مستدرك الوسائل ١٠ : ٥٣ ـ ٥٤.

٢. وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي ١١ : ٢٣٥.

الحمس كانوا لا يفيضون من جمع. ﴿واستغفروا الله﴾ لذنوبكم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ للتائبين».[١]

٢٧ـ [٩٠٦٦] الشيخ الطبرسي في كنوز النجاح: قال: قال السيد السعيد ضياء الدين فضل الله بن علي بن عبيد الله بن محمد الحسيني الراوندي: أخبرني السيد السعيد مرتضى بن الداعي الحسني في الرّي، قال: أخبرني جعفر بن محمد الدوريستي، قال: أخبرني أبي، قال: أخبرني الشيخ أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، قال: حدثني عبد الله بن رواحة بن مسعود، قال: حدثني إبراهيم بن محمد بن الحارث النوفلي، قال: حدثني أبي، وكان خادماً وملازماً للرضا عليه السلام، وذكر حديث تزويج المأمون بنته من الجواد عليه السلام، وأنه عليه السلام أصدقها عشرة وسائل إلى عشرة مسائل، مما أخذه عن أبيه، عن آبائه، عن النبي صلى الله عليه وآله، عن جبرئيل، عن الله تبارك وتعالى، وتعرف بأدعية الوسائل إلى المسائل، منها لطلب توفيق الحج إلى بيت الله الحرام:

«أللهم ارزقني الحج الذي افترضته على من استطاع إليه سبيلاً، واجعل لي فيه هادياً وإليه دليلاً، وقرب لي بعد المسالك، وأعني فيه على تأدية المناسك، وحرّم بإحرامي على النار جسدي، وزد للسفر في زادي

---

١. تفسير الإمام العسكري عليه السلام : ١١٧.

وقوتي وجلدي، وارزقني ربّ الوقوف بين يديك والإفاضة إليك، واظفرني بالنجح وأحبني بوافر الربح،

وأصدرني ربّ من موقف الحج الأكبر إلى مزدلفة المشعر، واجعلها زلفة إلى رحمتك وطريقاً إلى جنتك، وقفني موقف المشعر الحرام ومقام وفود الإحرام، وأهلني لتأدية المناسك،

ونحر الهدي التوامك، بدم يثج، وأوداج تمج، وإراقة الدماء المسفوحة من الهدايا المذبوحة، وفري أوداجها على ما أمرت، والتنفل بها كما رسمت، وأحضرني اللهم صلاة العيد راجياً للوعد، حالقاً شعر رأسي ومقصراً، مجتهداً في طاعتك مشمراً، ورامياً للجمار بسبع بعد سبع من الأحجار، وأدخلني اللهم عرصة بيتك وعقوتك، وأولجني محل أمنك وكعبتك، مساكينك وسؤالك ووفدك ومحاويجك، وجد علي اللهم بوافر الأجر من الانكفاء والنفر، واختم لي مناسك حجي وانقضاء عجي، بقبول منك لي، رأفة منك بي، يا غفور يا رحيم».[1]

ثواب المارّ بالمأزمين

٢٨ـ عنه، عن ابن فضال، عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من مرّ بالمأزمين وليس في قلبه كبر، نظر الله إليه، قلت: ما الكبر؟

---

١. مستدرك الوسائل٨ : ٥٨ ـ ٥٩.

قال: يغمص الناس و يسفه الحق؛ وقال: وملكان موكلان بالمأزمين يقولان: ربّ سلم سلم».[١]

❊ ❊ ❊

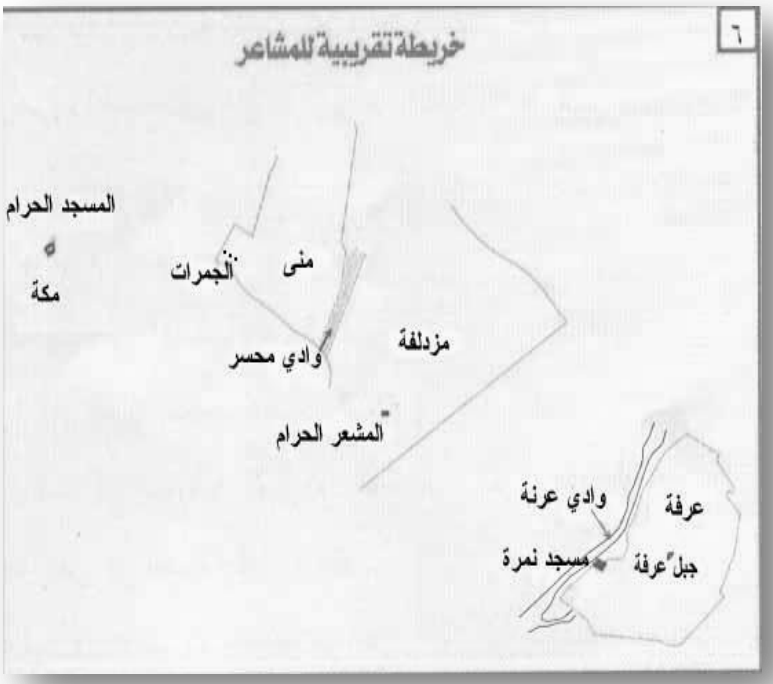

١. المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي ١ : ٦٦.

١٤ ـ وادي المحسِّر[١]:

١ ـ الحسين بن سعيد، عن محمد بن سنان، عن عبدالله بن مسكان قال: حدثني عبدالأعلى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا مررت بوادي محسر فاسع فيه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سعى فيه».

ومن ترك السعي في وادي محسر فإنه يرجع فيسعى فيه.[٢]

٢ ـ علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حفص ابن البختري، وغيره عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال لبعض ولده: «هل سعيت في وادي محسر؟ فقال: لا، قال: فأمره أن يرجع حتى يسعى، قال: فقال له ابنه: لا أعرفه، فقال له: سل الناس».[٣]

---

١. ذكر الأزرقي أن وادي محسر خمسمائة ذراع وخمسة وأربعون ذراعاً؛ قالوا: فلما أتى بطن محسَّر حرك ناقته، وأسرع السير، وهذه كانت عادته «صلى الله عليه وآله» في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، فهنالك أصاب الفيل ما قص الله علينا. ولذلك سمي الوادي وادي محسر، لأن الفيل حُسِر فيه. أي أَعْيَى وانقطع عن الذهاب. الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ١ :٣٨.

٢. التهذيب٥ : ١٩٥.

٣. الكافي ٤ : ٦٦٧.

٣ ـ عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الحجال، عن بعض أصحابنا قال: مرّ رجل بوادي محسر فأمره أبوعبدالله عليه السلام بعد الانصراف إلى مكة أن يرجع فيسعى».[١]

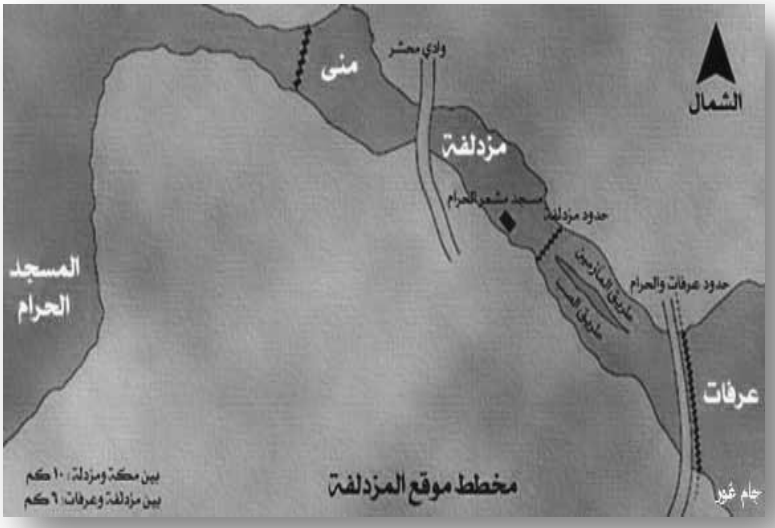

٤ ـ التهذيب: بإسناده عن موسى بن القاسم ، عن إبراهيم الأسدي، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام (في حديث الإفاضة من المشعر) قال : «فإذا مررت بوادي محسِّر ـ و هو واد عظيم

١. المصدر نفسه.

بين جمع و منى وهو إلى منى أقرب ـ ، فاسع فيه حتى تجاوزه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حرك ناقته وهو يقول: أَللّهُمَّ سَلِّم لِي عَهْدي وَاقْبَلْ تَوْبَتي، وأجبْ دَعْوَتي، واخلُفْني بخَيْرٍ فِيمَنْ تَركْتُ بَعدي».[١]

٥ ـ فقه الرضا عليه السلام: «فإذا بلغت طرف وادي محسِّر، فاسع فيه مقدار مائة خطوة، فإن كنت راكباً فحرك راحلتك قليلاً».[٢]

٦ـ الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله لَمّا أفاضَ مِن مُزدلِفَةَ جَعَلَ يَسيرُ العَنَقَ، وهُوَ يَقولُ: أيّهَا النّاسُ، السّكينَةَ السّكينَةَ، حَتّى وَقَفَ عَلى بَطن مُحَسِّرٍ».[٣]

٧ـ الإمام الصادق عليه السّلام يستأجر من يحجّ عن إسماعيل:

روى الكليني بسنده، عن عبد الله بن سنان، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ دخل عليه رجل فأعطاه ثلاثين ديناراً يحجّ بها عن إسماعيل، ولم يترك شيئاً من العمرةِ إلى الحجّ إلاّ اشترط عليه أن يسعى في وادي مُحسِّر، ثمّ قال: «يا هذا، إذا أنت فعلتَ هذا كانَ لإسماعيل حجة بما أنفق من ماله، وكانت لك تسْع بما أتعبَت من بدنك».[٤]

---

١. بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، نقلاً عن الكافي: ٨.

٢. مستدرك الوسائل ١٠ : ٥٤.

٣. الحج والعمرة في الكتاب والسنة: ٤٤.

٤. الكافي ٤ : ٤٤٧؛ الوسائل: الجزء ٨، الباب ١ من أبواب النيابة في الحجّ، الحديث ١؛ بحوث في الملل والنحل، آية الله الشيخ جعفر السبحاني ٨ : ٧٤.

٨ ـ دعائم الاسلام: عن جعفر بن محمد عليهما السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أفاض من المزدلفة... إلى أن قال ـــ حتى وقف على بطن محسر قال: فقرع ناقته فخبت حتى خرج، ثم عاد إلى مسيره الأول، قال: والسعي واجب ببطن محسر».[١]

❊ ❊ ❊

١. مستدرك الوسائل ١٠ : ٥٤.

دور الحج في التواصل الثقافي

بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة

الدكتور عبد العزيز صالح الغامدي

المكانة العلمية لمكة والمدينة:

وُجدت مكة لتكون مركز إشعاع ديني وعلمي على مدى الزمان، وذلك من خلال نشاط علمائها عبر التاريخ منذ أصبحت دار إسلام ومهبط وحي ومنطلق رسالة إلهية.[1] وعن تفاوت درجات نشاطه قوة وضعفاً حسبما تمرّ به من استقرار وازدهار ورخاء، وإلى ذلك يشير الحافظ الذهبي

---

١. محمد السيد بلاسي، أسماء مكة والمدينة في اللسان العربي، : ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

بقوله عن مكة: «كان العلم بها يسيراً في زمن الصحابة، وكذلك في أيام التابعين...»، إلى أن يقول: «ثم في أثناء المائة الثالثة تناقص علم الحرمين وكثر بعدهما...».[١]

وكثرة العلم وتناقصه الذي يشير إليه الذهبي، مرجعه إلى حركة العلماء المسلمين، ونزولهم بمكة أو المدينة واستقرارهم بهما في رياض الحرمين الشريفين، ومجاورتهم لفترة زمنية، ثم انتقالهم إلى بلد آخر طلباً للعلم، والأخذ عن العلماء في شتّى الأمصار الإسلامية، فكانت تنشط الحركة العلمية في بلاد الحرمين مكة والمدينة، وتتزايد بكثرة الوافدين من علماء المسلمين لأداء الحج أو العمرة أو الزيارة، وتقل في بعض الأحيان، وتصبح في نطاق العلماء المقيمين إقامة دائمة في مكة والمدينة.

ومع ذلك لم تتوقف الحركة العلمية في أيّ عصر من العصور الإسلامية، وإنما ظلت مستمرة بفضل الله عزّوجلّ من القرن الأول الهجري حتى اليوم، فمكة المكرمة كانت ولا زالت نقطة التقاء، ومركز تجمع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية؛ ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة الإسلامية والتواصل العلمي الثقافي بين تلك الأقطار الإسلامية في الشرق والغرب والشمال والجنوب، وبقي لمكة مكانتها الدينية في نفس كل مسلم تجعلها دائماً محطّ اهتمامهم، وملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم، وهي

---

١. الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، : ١٥٩.

بحكم دينهم الإسلامي الحنيف لا يمكن أن ينصرفوا عنها، حيث إليها قبلتهم في صلاتهم، وفيها شعائر حجّهم، ومنذ جاء الإسلام أصبحت مركزاً للثقافة الإسلامية يجتمع في رحاب مكة والمدينة في كلّ عام بما لا يجتمع في أيّ مدينة أخرى من مدن البلاد الإسلامية.

وكان العلماء في العصور الأولى يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلامي ليؤدّوا ركناً من أركان دينهم الحنيف، وليضيفوا على ذلك أموراً أخرى، من أهمّها: التزوّد بزاد التقوى، والعمل الصالح، والعلم، والمعرفة.

فالعالم المسلم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقي بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده، فيحصل بهذا الالتقاء تقارب وتفاهم، واستزادة علم بينهم، وتواصل علمي وتعارف واستمرار لروافد المعرفة، وانتشار للعلوم والمعارف بين مختلف الأقطار الإسلامية.[١]

وعلى أيّ حال لم تعد بلاد الحرمين الشريفين في مكة والمدينة في عصر من العصور الإسلامية العلماء والفقهاء من المقيمين أو المجاورين أو الوافدين إليها من أبناء الأمة الإسلامية، ويؤكد انتساب بعض أبناء الأمم والشعوب الإسلامية إلى مكة إقامتهم فيه لفترة من الزمن تعلّماً أو تعليماً، فأصبحت لهم ألقاب متنوعة يعرفون بها ويتميزون شرفاً بها، مثل: «إمام الحرمين»، و «جار الله»، أو «المكي»، أو «المدني»، وهي شواهد صادقة

---

١. حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج رحلتي ابن عبد السلام الدرعي، دار الرفاعي للنشر والتوزيع، ط. ١، ١٤٠٢ هـ :١١.

عبر التاريخ على الدور العلمي للبلدتين مكة والمدينة في المجالين العلمي والفكري والثقافي، للأفراد خاصة، والأمة الإسلامية عامة.[١]

وقد أنجزت في الرحاب الطاهرة وفي حمى الحرمين الشريفين بمكة والمدينة الكثير من المؤلفات العلمية القيمة التي كتب الله لها الانتشار في الأقطار الإسلامية.

ومنها على سبيل المثال: «صحيح البخاري»، يقول عنه الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري: «صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام...».

ومنها: «الكشاف عن حقائق التنزيل» و «عيون الأقاويل في وجوه التأويل»، للإمام جار الله الزمخشري، فقد شرع في تأليفه وأتمه بين ظهراني المسجد الحرام بمكة حرسها الله، حيث وقع التأويل، وحيث وجد التنزيل.[٢]

وقدمت مكة والمدينة للعلوم الإسلامية علماء أجلاء فضلّت كتب التراجم والطبقات في ذكر أحوالهم ومؤلفاتهم على مدى العصور الإسلامية، ومن تلك المؤلفات على سبيل المثال كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، لتقي الدين الفاسي (ت. ٨٣٢ هـ)، الذي اهتم فيه مؤلفه بتراجم علماء مكة، مرتبين على حروف الهجاء ألفه، فكانت أعدادهم تصل إلى الآلاف.

---

١. عبدالوهاب أبوسليمان، الحرم الشريف الجامع والجامعة، نادي مكة الثقافي الأدبي:٦ـ٧.
٢. محمد السيد علي بلاسي، أسماء مكة والمدينة في اللسان العربي، : ٢٣٤.

وكتاب: «الدر الكمين بذيل العقد الثمين»، الذي وضعه النجم: عمر بن فهد (ت. ٨٨٥ هـ)، فأكمل فيه ما نقص من كتاب «العقد الثمين من تراجم المكيين»، وذيل عليه بتراجم من ظهروا بعد تأليف العقد الثمين، فأورد فيه آلافاً أخرى من تراجم العلماء المكيين.

وهذان الكتابان من أهمّ المراجع العلمية والتاريخية لأخبار المكيين من علماء وفقهاء وأهل ثقافة وأدب.[١]

وكان لمكة المكرمة والمدينة المنورة ولعلمائها وفقهائها الفضل الكبير بعد الله عزّوجلّ على النهضة العلمية في كثير من البلاد الإسلامية؛ إذ فتحت أبوابها لأبناء المسلمين، واستقبلتهم ساحاتها العلمية، وتهيأ لهم طلب العلم في رحاب الحرمين الشريفين ولقاء العلماء الأجلاء، فانتشرت العلوم إلى البلاد الإسلامية الأخرى بفضل الله عزّوجلّ، ثمّ بفضل علماء الحرمين الذين كانوا صلة الوصل ونقطة الالتقاء بين العلماء المسلمين وأبناء الأمة الإسلامية على اختلاف بلادهم.

وغدت مكة والمدينة ـ حرسهما الله ـ مقصداً لطلاب العلم من شتى أنحاء البلاد الإسلامية، وتطورت الحياة العلمية فيها نتيجة لجهود العلماء المسلمين في مكة والمدينة وغيرهم من العلماء، الذين استوطنوا مكة أو المدينة، أو جاوروا فيهما لفترات زمنية، وكتب تراجم العلماء تبين

---

١. المرجع نفسه، : ٢٣٥.

بوضوح أثر هؤلاء العلماء، وتؤكد على النشاط العلمي الذي تزايد مع مرور الوقت من خلال حلقات التدريس في أروقة الحرمين الشريفين، أو من خلال بعض المدارس العلمية التي أقامها الأمراء والسلاطين بمكة المكرمة والمدينة، وأوقفوا عليها الأوقاف والمخصصات المالية، وعينوا العلماء للتدريس فيها، وأنفقوا بسخاء على طلاب العلم لمساعدتهم على التفرغ لطلب العلم.[١]

الحج وأثره في التواصل الثقافي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة:

إذا كان عامة المسلمين يشتاقون لأداء فريضة الحج والوصول إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة، فإنّ العلماء أشد شوقاً ورغبة منهم، وذلك بسبب معرفتهم بأهمية أداء هذه الفريضة وما يحصل عليه المسلم من المنافع والفوائد الدنيوية والأخروية من أداء هذه الشعيرة العظيمة، وما يجدونه من لذة العبادة لله عزّوجلّ والخضوع له، وتوحيده والاستجابة لأمره وسنة نبيه ﷺ، وهم ينتقلون بين المشاعر المقدسة في مكة ومنى ومزدلفة وعرفات، واشتغالهم بأنواع العبادات القلبية والبدنية والمالية،

---

١. أنظر للفائدة: الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١ : ٢٥٣؛ العقد الثمين ١: ٢٣٥، ٢٣٦، ٣٠١؛ خالد عبدالمحسن، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، من إصدارات مؤسسة الفرقان للتراث، ١٤٢٦ هـ : ٣٦٨.

خلال أيام الحج المباركة، فيزيد إيمانهم وتطمئن قلوبهم وتصفوا نفوسهم بتلك الطاعات والأعمال الصالحة، وهذا اللقاء الإسلامي الكبير في هذه الأراضي المباركة وفي جوار الحرمين الشريفين لا يتيسر لبعض المسلمين إلا مرة واحدة في العمر، فيدفعه ذلك إلى الحرص على استغلال أداء تلك الفريضة بما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه، فهو إما مشتغلاً بعبادة أو طلب علم أو تجارة، ولا تخلو جميعها من فائدة عليه وعلى أمته الإسلامية.

والحج عبادة ذات فضاء فسيح جمعت المقاصد الدينية والدنيوية، وهي من قبل هذا شعار ناطق يوضح جوهر الإسلام؛ لما اشتملت عليه من مقاصد دينية تتلخص في القرب إلى المولى عزّوجلّ بما وضعه لعباده من مناسك يؤدونها، وعبادات يقومون بها في أمكنة معينة وأزمنة محدودة.[١]

ومقاصد الحجاج ومصالحهم الخاصة على اختلاف أنواعها وتعدد أغراضهم مشروعة معتبرة معتد بها ما دامت في حدود المشروع، وهي تحقق مدلولات نداء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام واستجابة للأمر:

---

١. عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمة في موسم الحج في القرن الرابع عشر، ندوة الحج الكبرى، ١٤٢٦ هـ :٣٤٥.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.[١]

وفيما يخص العلم والعلماء؛ فإن أداءهم لفريضة الحج يمكنهم من الالتقاء بغيرهم ممن يحضر موسم الحج، حيث تلتقي أمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأعراقهم، وأصبحت رحاب الحرمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ملتقى لصفوة علماء الأمة ومفكريها على مدى التاريخ الإسلامي، وغدا الحج إلى مكة فرصة مواتية للقاء العلماء والأدباء والمفكرين من شتى بقاع العالم الإسلامي، يتم من خلاله التعارف والإطلاع على المؤلفات، وأخذ الإجازات العلمية فيما بينهم، ويحققون من خلال أداء فريضة الحج أكثر من فائدة، وغاية لا تحقق لهم من دون أداء هذه الفريضة العظيمة والوصول إلى مكة والمدينة ـ حرسهما الله ـ.[٢]

وإلى هذه الغاية العظيمة التي يسعى إليها العلماء، يقول الذهبي: «ولقد كان من خلق طلبة الحديث أنهم يتكلفون الحج، وما المحرك لهم سوى لقيّ سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلوّ إسناده، وجاور عند غير واحد من الحفاظ».

---

١. سورة الحج، الآية: ٢٧.

٢. عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمة في موسم الحج في القرن الرابع عشر، مرجع سابق، : ٣٤٨.

ويقول عبد الرحمن بن يحيى المعلمي: «... كان من أعظم ما يهتم به العالم إذا حج الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم وإفادتهم، لقد كان بعض العلماء يحج ومن أعظم البواعث له على الحج طلب العلم والاجتماع بالعلماء...».

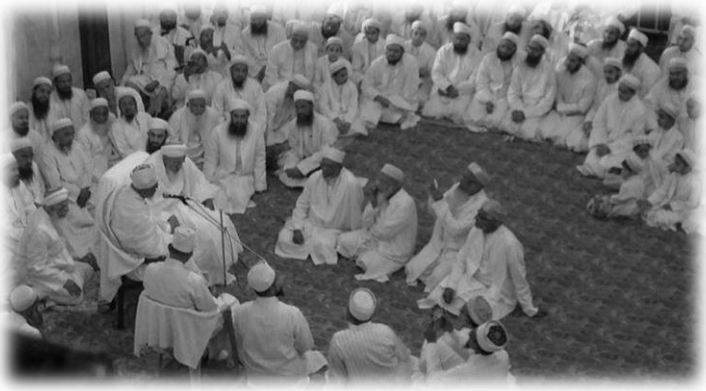

وقد أثمرت هذه اللقاءات العلمية تعاوناً علمياً وفكرياً عبر العصور بين علماء الأمصار الإسلامية.

وأما أخذ الإجازات العلمية فيما بين العلماء وطلبة العلم؛ فقد حرص الوافدون إلى بلاد الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ على لقاء علماء مكة والمدينة؛ لمكانتهم العلمية، ولأخذ العلوم منهم وحصولهم على إجازات علمية في علوم إسلامية مختلفة، تدل على اعتراف العالم باستحقاق الطالب وجدارته، ولها مدلولها وإفصاحها عن قدر الشيوخ الذين أجازوه، فكلما كانوا ذوي قدر كبير وشأن عظيم في العلم، عظمت

النظرة للطالب، وارتفع قدره؛ إذ مكانته من مكانتهم، وقدره حسب ارتفاع أقدارهم.[١]

ولقد كان الحج أكبر وأعظم وأهم وسيلة قدمها الدين الإسلامي الحنيف للمسلمين أينما وحيثما كانوا، والحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر ولاكتشاف الآخرين وما لديهم من ثقافات وحضارات، وثقافة الحج وحدها تعبر عن فكر خلاق تجلى فيما قدمه العلماء والفقهاء للأمة الإسلامية من أحكام فقهية تتعلق بأداء الحج، أو الجوانب الأخرى المرتبطة به مثل السفر وآدابه والعلاقات مع الآخرين، وكيفية التدرب على تحمل المتاعب ومواجهة المشاق والمصاعب وغيرها مما يحتاجه الحاج في هذه الرحلة المهمة عند كل مسلم.[٢]

وقد كان للحجاج المغاربة عموماً وللعلماء منهم خصوصاً فوائد متعددة استفادوها من أدائهم لهذه الفريضة العظيمة، فكانوا يحرصون أثناء موسم الحج على الاستفادة العلمية من علماء الحرمين، ويعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، ويعود العلماء المغاربة وهم يحملون معهم صورة صادقة عن الدين الإسلامي الحنيف، وما تلقوه من علماء الحرمين الشريفين، ويعود الحجاج المغاربة

---

١. المرجع نفسه، : ٣٤٩.

٢. عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي١ : ١٤.

بعدما عاشوا أياماً جميلة في رحاب الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، وساروا على الأرض التي سار عليها وعاش فيها نبيّ الإسلام محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله وصحابته وخلفاؤه الراشدون وعلماء الإسلام من مختلف البلاد الإسلامية عبر العصور التاريخية.

ويلاحظ عند الحديث عن العلماء المغاربة ودور الحج في حياتهم: أنّ الحجاج المغاربة فاقوا غيرهم في الاهتمام بهذه الفريضة وتدوين ما يرافق أداءها من مواقف وأحداث، وقد ترك العلماء المغاربة كثيراً من الرحلات المكتوبة فيها المقتضب وفيها المسهب، وفيها المنثور وفيها المنظوم، والفصيح والعامي، وتدل هذه الرحلات على أنّ الزاد المغربي فيما يتصل بالحج وبمكة المكرمة والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة وزيارة المدينة المنورة يحتاج إلى مؤلفات؛ لأنه أدب مليء بالإيمان والعظة والفائدة.[1]

وكان العلماء المغاربة مولعين بالرحلة إلى المشرق فهم بذلك يبحثون عن ذاتهم وعن منابعهم وأصولهم، وتشير المصادر التاريخية إلى هذه الاتصالات، وإلى هذا التواصل الديني والثقافي والاجتماعي بين المغاربة وإخوانهم المشارقة في بلاد الحرمين الشريفين، وكان المغاربة يفاخرون غيرهم بلقب: (الحاج)، ويضيفونه إلى نعوتهم الشخصية، وذلك لأن

---

١. المرجع نفسه ١ : ١٤، ١٦.

المسافة بينهم وبين مكة لم تكن مسافة قصيرة ولا سهلة ولا آمنة، وأصبحت الأسرة المغربية تزهد في ألقابها السابقة مهما كانت وتكتفي بكلمة (الحاج)، ونجد اليوم من العائلات المغربية المعروفة اليوم في الأندلس وبلاد المغرب، عائلة: (ابن الحاج) عوضاً أن تقول: القرطبي، أو القيرواني، أو التلمساني، أو الفاسي،[1] أو غيرها من الألقاب، مما يدل على مكانة الحج إلى بيت الله الحرام في نفوسهم.

وإذا كان الحجاج يفدون إلى الحرمين من جميع بقاع العالم الإسلامي، فإنّ أهم الوفود الإسلامية كما دونتها المصادر التاريخية تتكون من الركب الفاسي المغربي، ثم المصري، ثم الشامي، وكان الحجاج يتعرضون لمخاطر عظيمة، وأهوال كبيرة، ومضاعفات خطيرة على أرواحهم أثناء مرورهم ببعض البلدان أثناء سيرهم إلى بلاد الحرمين الشريفين أو رجوعهم منها، وكانت هذه المخاطر تزيد في فترة السفر اللازمة؛ لقطع تلك المسافات وتتضاعف إلى شهور متتابعة، وما ذلك إلا بسبب كثرة الفساد في بعض البلدان وقلة الأحكام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[1]

---

١. عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، المرجع السابق، ١ : ٢٤.

١. عبد الكريم كريم، «بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٥، ١٤١٨ هـ : ١١٥-١١٧.

ونجد الشوق العظيم يدفع العلماء المغاربة إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله والصلاة في الروضة الشريفة، وكانوا يتطلعون بشوق ولهفة للوصول إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة، ومما يؤكد ذلك ما سجله الحاج الحسن بن الطاهر،[1] عن رحلته إلى بلاد المشرق والحرمين، فيحدثنا عن رحلته قائلاً: «وقع في قلبي شوق عظيم للحج عام ١٣٤٦هـ بسبب أني سمعت منادياً ينادي في وسط السوق بأنّ من أراد الحج فعليه بفلان فليتخابر معه في ذلك...». ثم يقول: ولكثرة الراغبين في الحج تعذر عليه أداؤه في تلك السنة، وأخذ يستعد له، ويجدد الرغبة للعام القابل، فيقول عن ذلك: «وفي عام ١٣٤٧هـ وطدت نفسي على ذلك، وعزمت عليه، وشرعت في أسبابه مع بعض الناس من أهل بلدتي وغيرهم...».

وفاتت عليه وعلى غيره من راغبي أداء فريضة الحج فرصة السفر أيضاً هذه المرة ومات بعض المنتظرين نظراً لصعوبة الإجراءات والشروط التي أشار إليها أثناء حديثه عن هذه الرحلة، حتى تيسر له السفر لأداء الحج سنة ١٣٥١هـ برفقة حجاج آخرين من العلماء والصالحين، فمروا ببلدة آسفي، ثم الرباط، ثم طنجة؛ لركوب السفينة التي تنقل الحجاج من ميناء

---

١. من علماء المغرب، ولد سنة (١٣١٤ هـ)، أخذ عن علماء فاس والقرويين، تقلد منصب نائب القاضي بأسفي، وتولى الإمامة والخطابة بالمسجد الكبير فيها، توفي سنة ١٩٦٩ م.

السويس أو ميناء بور سعيد بالديار المصرية، ومنها إلى الموانئ الحجازية إلى جدة أو الينبع.[١]

وقد واصل هذا الركب رحلته المباركة؛ لأداء فريضة الحج حتى وصل إلى ميناء السويس، ومنه ركبوا الباخرة ضمن من ركبوا من الحجاج الذين وصل عددهم إلى قرابة ٤٨٠ حاجاً، ما بين عراقيّ واسطنبوليّ وشاميّ وفاسيّ ورباطيّ ومراكشيّ ومصريّ، وغيرهم. نزل منهم قرابة ١٧٠ حاجاً في ميناء ينبع، أكثرهم مغاربة قاصدين المدينة للصلاة في مسجدها قبل التوجه إلى ميناء جدة، ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج.[٢]

ونلاحظ من خلال هذه الرحلة اجتماع هذه الأعداد المختلفة الأعراق واللغات والألوان في باخرة واحدة لغاية واحدة، وهي: أداء فريضة الحج، وفي هذا إشارة واضحة إلى دور الحج إلى بيت الله الحرام في توثيق أواصر الأخوة، وتحقيق الوحدة والاجتماع بين أبناء الأمة الإسلامية.

---

١. يعرف حالياً بميناء ينبع، ويقع على البحرالأحمر في غرب المدينة المنورة، وعلى مسافة تقارب ٢٥٠ كيلومتر.

٢. الطاهر وعزيز، «رحلة الحاج الحسن بن طاهر إلى المشرق والحرمين عام ١٩٣٣ م»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٩، ١٤١٩ هـ : ٢٢٣.

ولا زالت ملامح التواصل الثقافي العلمي بين علماء الحرمين الشريفين وعلماء البلاد المغاربية موجودة حتى الوقت الحاضر، حيث يشترك الجميع في حضور المناسبات العلمية والندوات والملتقيات الثقافية خلال موسم الحج.[١] من حين لآخر، فضلاً عن مشاركة العلماء المغاربة لغيرهم من المسلمين لأداء فريضة الحج، يدفعهم الشوق إلى الديار المقدسة في رحاب الحرمين الشريفين، ويجددون بذلك التواصل العلمي القديم فيما بينهم، وهو تجديد وإحياء لصلات علمية وثقافية بين علماء الحرمين الشريفين ـ حرسهما الله ـ والعلماء المغاربة، وساعدت تلك الصلات على انتظام هؤلاء العلماء المسلمين من أقطار الأندلس والمغرب ومصر وبلاد الحرمين الشريفين في صف طويل من العلماء العاملين عبر العصور الإسلامية المتتابعة.

التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين

حرص العلماء المغاربة ـ رحمهم الله تعالى ـ على استغلال وقت أداء فريضة الحج بلقاء العلماء المسلمين الوافدين إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج وبعلماء المسجد الحرام والمسجد النبوي والأخذ عنهم والاستفادة مما لديهم من علوم من جهة، ومن جهة أخرى حرصوا على الاشتغال بتعليم

---

١. حسن محمد بافقيه، «العلاقة الثقافية بين علماء المغرب وعلماء الحرمين» جريدة المدينة المنورة، ملحق الأربعاء، بتاريخ ١٤٢٧/٢/٢٩ هـ : ١٠.

غيرهم ممن يفد إليهم في أماكن بمكة والمدينة، أو يجلس إليهم في حلق دروسهم العلمية بين أروقة الحرمين الشريفين، وأهمَّ هؤلاء العلماء شراءُ الكتب العلمية النافعة، ونسخ بعضها، واستعارة البعض الآخر للاستفادة منها فترة بقاءهم في رحاب الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ.

ومن خلال قراءة بعض المصادر التاريخية التي أشارت إلى بعض الجوانب من أخبار رحلات هؤلاء العلماء المغاربة لأداء فريضة الحج العظيمة، يلاحظ أنّ بعض هؤلاء العلماء يتوجهون من ميناء ينبع عن طريق البرّ إلى المدينة؛ للصلاة في المسجد النبوي الشريف والبقاء في المدينة ما كتب الله لهم من الأيام ثم يتوجهون بعد ذلك إلى مكة لإكمال شعائر الحج، وبعض آخر من هؤلاء العلماء يصلون أولاً إلى ميناء (جدة)، ثم يؤدون فريضة الحج ويتوجهون بعد ذلك إلى المدينة في المرحلة الثانية من رحلتهم، ويعود ذلك ـ والله أعلم ـ لارتباطهم ببقية الحجاج الذين يرافقونهم في هذه الرحلة الدينية العظيمة، فيسيرون بمجموعة واحدة من بداية الرحلة حتى عودتهم إلى بلادهم.[١]

والرحلة الحجية إشارة إلى أداء فريضة الحج وطلب الركن الخامس من أركان الإسلام، وهذه الرحلة يقطع فيها الحاج المغربي المسافر أطول المسافات متوجهاً إلى البيت العتيق، يسير في البر ويركب السفن في بعض

---

١. سعيد بن سعيد، «أدب الحج في المغرب العربي، نماذج من الرحلة الحجية المعاصرة في المغرب»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢١، ١٤٢٢هـ : ٣١٨.

الطريق أو كله، يطول الطريق، وتتعدد فيها وسائل السفر، وتتنوع المشاهد والمشاهدات، ولا يخلو الطريق من المغامرات والتعرض للأخطار من موقع لآخر، بدءاً من ساحل مدينة طنجة، ومروراً بالصحراء الجزائرية، ثم الأرض التونسية والليبية والمصرية، ثم فلسطين، ومنها جنوباً باتجاه البيت العتيق والأرض المقدسة بمكة المشرفة.

ورحلة الحج والزيارة إلى الحرمين الشريفين والأماكن المقدسة تستغرق ما بين ستة إلى ثمانية أشهر في الذهاب إلى مكة، ومثله في العودة إلى البلاد المغاربية، وهذه الفترة الزمنية الطويلة تبين لنا حجم المشاق التي يتعرض لها الحاج في سيره إلى بيت الله الحرام، ولكنه كان يكابدها رغبة في الأجر والثواب من الله عزّوجلّ ويصبر على تلك المشاق بقوة إيمان، وعزيمة صادقة، وهمة عالية، ونية خالصة.

وفيما يخص التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة فإننا نجد أخباراً كثيرة وروايات عديدة في كتب التراجم والتاريخ والرحلات، التي أشارت إلى هذه الظاهرة العلمية المميزة في التواصل بين أبناء الأمة الإسلامية عامة والعلماء وطلبة العلم خاصة، وهي لم تحقق لأمة من الأمم على وجه الأرض إلا لأبناء

الأمة الإسلامية وأتباع الرسالة المحمدية الخالدة على مرّ العصور والأزمان ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ.[١]

ومن خلال هذا التواصل العلمي الثقافي يظهر لنا بوضوح أثر أداء فريضة الحج العظيمة على العلماء المسلمين من شتى الأقطار الإسلامية ولله الحمد والمنة، وقد دوّن بعض هؤلاء العلماء أحداث تلك الرحلة الدينية إلى بيت الله العتيق بمكة، والمشاعر المقدسة بمنى ومزدلفة وعرفات، ثم الوصول إلى المسجد النبوي بالمدينة في مؤلفات خاصة بذلك، مما يؤكد مكانة هذه الفريضة في نفوسهم، وتطلعهم لأدائها، وشوقهم الجارف لرؤية تلك الأماكن المقدسة، وحبهم للاقتداء بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم.

وفيما يلي بعض النماذج الرائعة لهؤلاء العلماء، وأخبارهم من خلال رحلتهم لأداء فريضة الحج.

فهذا الحاج: محمد بن علي بن محمد الرافعي الأندلسي التطواني، يشير إلى رحلته لأداء الحج، وشوقه إلى مكة المكرمة، ورؤية الكعبة المشرفة، بقوله: «... وتشوقي إلى مكة وحِماها، وشغفي بالكعبة الباهية سناها...».

---

١. محمد بن الحسن الحجوي، «رحلة الحج»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢١ : ٣٢٩؛ وانظر: العدد: ٢٠، ٢٢.

وعن استعداده للحج، يقول: «لما عزمت على حج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد نبينا صلى الله عليه وآله منة من الله وإرشاداً، ونعمة منه سبحانه

وإسعاداً...».

ويضيف أنه بذل جهده في محاولة لتأمين المال اللازم لنفقات رحلة الحج، فيقول: «... وشمرت ساعد جدي، واتخذت من الحزم والعزم جهدي، ولم أزل أحاول أن أرهن أو أبيع ما كان بيدي من الطارف والتليد السريع؛ لأتزود في تلك الطريق، وأتعاون مع الصاحب والرفيق...».[1]

---

١. مصطفى الغاشي، «صورة الشرق من خلال المعارج المرقية في الرحلة المشرقية»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥، ١٤٢١ هـ : ٩٣-٩٤.

وعن أثر الحج في التواصل بين العلماء وأهمية الالتقاء بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، يقول العلامة عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي عن لقائه بعالم الحديث، الشيخ أبو العطار بمكة: «وخدمني التوفيق والسعد في ذلك أكبر الخدمات، وأنالني الحظ بوافر القسمات، حتى أنني لما لقيت مسند الشرق الشيخ أبو الخير أحمد بن عثمان العطار المكي سنة ١٣٣٣هـ جثى بين يدي، وقال: شاركتني في تراجم المشارقة أهل بلادي وأسانيدهم، ومعرفة خطوطهم وأخبارهم، ولم أشاركك في أخبار أهل بلادك ولا لي اطلاع على تراجمهم وآثارهم...»، ويضيف عالم المغرب عبد الحي الكتاني أنه التقى بعالم مكة وعابدها، الشيخ محمد بن سليمان المكي الشافعي، وأخذ إجازة منه بكل ما له من مؤلف ومرويّ...

ويذكر بعد ذلك مقابلته لعدد من علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.[١]

وبعد وصول الحاج الحسن بن الطاهر وعزيز إلى مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ تمكن بفضل الله من أداء فريضة الحج، ثم استغل فترة وجوده بمكة للتواصل مع علماء مكة، فلقي الفقيه الشيخ محمد عابد الفاسي، ورافقه لزيارة مكتبات بعض علماء مكة، مثل الشيخ الفقيه: محمد

---

١. عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمة في موسم الحج، مرجع سابق؛ وانظر للفائدة: فهرس الفهارس والأثبات، للشيخ عبد الحي الكتاني ١ : ٣٥٦.

كامل بن محمد ماجد كردي، والفقيه محمد الطاهر الكردي، والفقيه الشيخ إبراهيم الكردي، وتذاكر الجميع في كتب الحديث والشمائل، واطلع الحاج الحسن بن الطاهر على بعض محتويات تلك الخزانة التي احتوت على قرابة عشرين ألف مجلد، كلها للعلماء السابقين من آل الكردي.[١]

وهذه الرحلة المباركة لأداء فريضة الحج هي خير مثال ودليل على التواصل العلمي بين علماء الحرمين الشريفين وعلماء البلاد المغاربية، التي كان أداء فريضة الحج من أهم أسباب استمرارها وتواصلها عبر القرون؛ لتكون رافداً مهماً من روافد الصلة الأخوية بين المسلمين في البلاد المغاربية، والحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ.

ونجد بعض العلماء المغاربة وصفوا رحلتهم لأداء فريضة الحج، ودونوا أحداث تلك الرحلة المباركة، ومنهم: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي، المعروف بـ(ابن بطوطة)، ولقب بالطنجي، نسبة إلى مدينة طنجة، الواقعة شمال غرب المغرب الأقصى، وهي المدينة التي ولد فيها، في ١٧ رجب سنة ٧٠٣ هـ.

وهذه الرحلة تندرج ضمن الرحلة الأولى من رحلاته الكبرى الثلاث التي استغرقت حوالي ٢٨ سنة من الزمن.

---

١. الطاهر وعزيز، «رحلة الحاج الحسن بن طاهر»، مجلة التاريخ العربي، مرجع سابق، العدد: ٩ : ٢٥٢.

وبعد انتهاء رحلاته الكبرى عاد إلى المغرب وأملى بأمر من السلطان عنان المريني (حكم بين سنتي٨٤٩ ـ ٨٥٩ هـ) رحلته على الكاتب المريني ابن جزي، الذي انتهى من تدوينها في ٣ من ذي الحجة سنة ٧٥٦ هـ.[١]

وقد قدم الرحالة المغربي في هذه الرحلات معلومات مهمة عن البلدان التي وصل إليها، وتعتبر من الوثائق التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، وهي وسيلة من الوسائل التي ساعدت على التواصل بين العلماء المغاربة وعلماء بلاد الحرمين الشريفين ـ رحمهم الله ـ.

ويظهر تشوق العلماء المغاربة إلى رحلة الحج وزيارة مسجد الرسول ﷺ والأماكن المقدسة ببلاد الحرمين الشريفين من خلال الإشارات الواضحة الجلية في مؤلفاتهم ورحلاتهم، حيث تكتسب تلك المؤلفات خصوصية مميزة؛ إذ يشغل الراحل فيها شوق إلى الحج ويتطلع إلى اللقاء والاستفادة منهم، ونجد أنّ أغلب الرحلات الحجازية إلى بلاد الحرمين الشريفين بمكة والمدينة التي كتبها العلماء المغاربة قد تضمنت قسطاً كبيراً من أعمال الفهرست، والإشارة إلى نشاط صاحب الرحلة في طلب العلم ولقاء العلماء في تلك الرحلة، ومن الأمثلة على ذلك، العالم: ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ) في كتابه «ملء العيبة، فيما جمع بطول الغيبة في

---

١. إبراهيم بوتشيش، «أضواء على مجتمع قفار وعاداته الشعبية من خلال رحلة ابن بطوطة»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢٦، ١٤٢٤ هـ : ٢٧٠ ـ ٢٨٩.

الرحلة إلى مكة وطيبة»، والعالم أبي العباس المقري (ت١٠٤٠هـ) في كتابه «روض العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس»، والعالم محمد بن زاكور الفاسي (ت١١٢٠هـ) في كتابه «نشر أزاهر البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان».[١]

وقد كان هاجس هؤلاء العلماء المغاربة ـ رحمهم الله ـ لقاء الشيوخ، والاستفادة منهم، والجلوس إليهم، والحمل عنهم مما لديهم من علوم ومعارف، فكان ذلك الشغل الشاغل لهم خلال تلك الرحلات، ورصدوا فيها أسماء الشيوخ ومجالسهم العلمية، وأشاروا إلى مؤلفاتهم فكانت تلك الرحلات أشبه بفهرس ضخم لتلك العلوم والمعارف وأصحابها.

وتعتبر رحلة أبي سالم العياشي (ت١٠٩٠هـ)، «ماء الموائد» نموذجاً للرحلة الحجازية التي كتبها علماء المغرب في القرون الأربعة الأخيرة؛ حيث استوفت الحديث عن كل العناصر الثابتة التي جرى بها عرض الرحلة الحجازية من قبل ومن بعد، وأصبحت وعاءاً لحفظ النصوص العارضة من أجوبة فتاوى ومقدمات كتب ورسائل علمية وشخصية، وقصائد شعرية، ونصوص إجازات، ومؤلفات صغيرة وغير ذلك، وأصبحت هذه الرحلة النموذج الذي سار عليه من جاء بعده من كتاب

---

١. عبد الله بن المرابط، «الرحلة الفهرسية نموذج للتواصل داخل العالم الإسلامي: رحلة العياشي (ماء الموائد) نموذجاً»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢٩، ١٤٢٥ هـ : ٣٥٣.

الـرحلات في المنطقـة المغاربيـة، خاصـة في اهتمامـه بعلمـاء الأمصـار الإسلامية، بقوله: فيمن لقيته بمصر، أو مكة، أو المدينة، بعبارة: «ذكـر مـن لقيته بالمدينة من المشايخ والأعلام والأصحاب الكرام، ممـن أخـذت عنـه، أخذ عني، أو صاحبته في الله، ولم يخب فيه ظني...».[١]

وبذلك ترجم العياشي لأعلام العلمـاء والشـيوخ في بـلاد المغـرب ومصر والشام والحجاز، وعلومهم ومؤلفاتهم ودروسـهم وحلقـات العلـم التي وقف عليه أثناء زيارته لتلك البلاد.[٢]

وهذه الرحلة تعدّ من الأدلة على التواصـل العلمـي والثقـافي بـين علماء البلاد المغاربية وعلماء الحرمين الشريفين ـ حماهمـا الله ـ ، وتؤكـد توجهات العلماء المغاربة نحو الشرق، وذلك من خلال رحلاتهم الحجازية التي انطلقت من البلاد المغاربية، وكانت تتناول تجربة الرحالـة مـن بلـده حتى وصوله الحجاز، أي: رحلات أداء الحج ثم رجوعه إلى بلاده، وكـان طريق الحج شاقاً ويحتاج إلى التزود بالمال والمؤونة، والاسـتعداد للـدفع؛ من أجل القوت، والحمل، والركوب، والكسوة، ومصاريف أخرى معروفة، أو طارئة.[١]

---

١. المرجع نفسه، : ٣٥٥، ٣٥٧ بتصرف.

٢. عبد الله بن المرابط، «الرحلة الفهرسية...»، المرجع السابق، : ٣٥٩.

١. أبو القاسم سعد الله، «مع العياشي في رحلته إلى القدس»، مجلة التاريخ العـربي، العـدد: ١٠، ١٤٢٠ هـ : ١٩٤.

وكان الرحالة المغربي لا يسافر وحده بل في جماعة، وهنا تصبح الجماعة ظاهرة اجتماعية حيوية، والحاج المغربي كان واحداً من كلّ، وفرداً في جماعة يتضامنون ويتكافلون ويسيرون على مصالح البعض، مما قوى الرابطة الأخوية فيما بينهم خلال رحلة الحج وبعدها.

وقد أشار عبد الله بن محمد العياشي ـ صاحب الرحلة الشهيرة ـ أنه خلال مجاورته بالحجاز لعدة سنوات أخذ عن علماء الحرمين الشريفين، ومنهم زين العابدين الطبري، وعبد الله باقشير، وعلي ابن الجمال، وعبد العزيز الزمزمي، وإبراهيم الكردي، وحسن العجمي، بالإضافة إلى العلماء المغاربة المجاورين بمكة والمدينة في تلك الفترة، مثل: عيسى الثعالبي، أحد أعيان العلماء الجزائريين المهاجرين إلى مكة والمدينة.[١]

وفي طريق هذه الرحلة إلى مكة لأداء فريضة الحج رافق العياشي وفداً جزائرياً يرأسه: عبد الكريم الفكون، فأخذ العياشي عنه مؤلفاته، وأخذ أيضاً العلم عن مجموعة من العلماء في فلسطين، وغيرها، منهم: قاضي القدس في وقته، الشيخ عبد العزيز النفاتي التونسي.

وبيّن العياشي أنه حرص خلال أدائه لفريضة الحج على زيارة بيت المقدس بفلسطين والصلاة فيه، وأشار إلى أنه دعا الله عزّوجلّ وسأله أن

---

١. المرجع نفسه، : ١٩٧.

يعينه على تلك الزيارة وهو بالملتزم بجوار الكعبة المشرفة... فمنّ الله بالإجابة...[١]

وتشير مصادر التاريخ المكّي بما كان للعلماء القادمين إلى مكة المكرمة والمدينة والمجاورين بهما من إسهامات جليلة، ومن جهود ومشاركات كبيرة في النهضة العلمية، وفي مقدمة ذلك: التدريس في أروقة الحرمين الشريفين وساحاتهما وفي أماكن إقامتهم، وتظهر آثار ذلك النشاط العلمي بما استفاده علماء مكة والمدينة من اقتباس أو كتابة وتأليف، وأكّدوا تلك الفائدة بالثناء العطر والذكر الحسن لأولئك العلماء المجاورين بمكة والمدينة، أو القادمين لأداء فريضة الحج، وما حملوه عنهم من إجازات ومؤلفات علمية، ومذكرات شخصية، بينت ما حصل من فوائد علمية في تلك اللقاءات العلمية في رحاب الحرمين الشريفين، ووردت أسماء هؤلاء العلماء الأجلاء الوافدين إلى مكة للحج في كتب التراجم، مثل: كتاب «الجواهر الحسان في تراجم من لقيته من الأساتذة والخلان»؛ للشيخ الفقيه زكريا بن عبد الله بن بيلا المكي، (ت١٤١٣هـ).[١]

ومن العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى الحرمين الشريفين وقاموا بالتدريس فيهما وفي غيرهما من البلاد الإسلامية أثناء توجههم إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج، وفي طريق عودتهم إلى بلادهم المغاربية:

---

١. المرجع السابق، : ١٩٨ ـ ١٩٩.

١. عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، : ٣٦٣.

ـ الشيخ محمد بن علي الدهان الغرناطي، درس بمكة ومصر والشام، واحترف التجارة وكانت وفاته، بقوص من أراضي مصر.[١]

ـ والشيخ شرف الدين محمد بن عبد المرسي (ت٦٥٥هـ) درس بالأندلس، ومصر، والشام، والحجاز، والعراق، وإيران، وما وراء النهر، وجاور بمكة، وحظيت دروسه بإقبال عظيم، وصنف مؤلفات جليلة.

ـ والشيخ محمد بن حجاج الإشبيلي (ت٧٠٦هـ)، قام برحلة إلى بلاد المشرق، فمرّ بالإسكندرية وعدن، ومكة التي استقر بها حتى وفاته، وعرف بالصلاح، وتميز في علوم اللغة العربية.[٢]

ـ والشيخ محمد بن عبد الرحمن اللخمي، المعروف بابن الحكيم (ت٧٠٨هـ)، درس بمكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة، وشيوخه كثيرون بالمشرق وأقطار المغرب.[١]

ولقد ارتبط العلماء المغاربة عبر العصور مع بقية المدارس العلمية في بلاد المغرب والمشرق الإسلامية، بصفتهم طلاباً درسوا بها، وحصلوا على

---

١. إبراهيم حركات، «الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٨، ١٤١٩ هـ.

٢. المرجع السابق، : ٦٣.

١. المرجع نفسه : ٦٣ـ٦٤؛ وللفائدة انظر كتاب «نفح الطيب»٢ : ٢٦٤؛ وكتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»،٢: ٤٤٨؛ وكتاب «طبقات المفسرين»٢ : ١٧٣.

إجازات من علمائها، أو بصفتهم أساتذة درس عليهم طلاب من مختلف المدن المغاربية.[١]

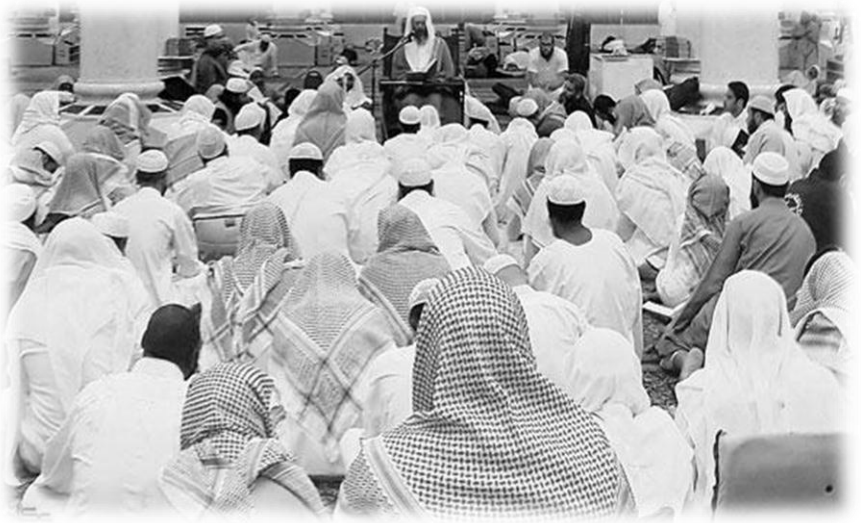

وتشير المصادر التاريخية إلى طائفة من علماء المغاربية الذين درسوا في مصر ومكة والمدينة، وكان أداؤهم لفريضة الحج من أهم الأسباب التي ساعدتهم على هذا التواصل بينهم وبين علماء الحرمين الشريفين، ومنهم على سبيل المثال:

ـ الشيخ أحمد الغربي (ت١١٧٨هـ)، رحل إلى المشرق وأخذ عن شيوخ مصر والحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

---

١. عبد الكريم كريم، رباط الفتح عاصمة الثقافة العربية، مجلة التاريخ العربي، العدد:٣٩، : ٢٤ ـ ٢٦.

ـ والشيخ محمد بن التهامي بن عمرو (ت١٢٤٣هـ)، رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج وطلب العلم الشريف، واجتاز بأرض تونس الخضراء وتلاقى بجماعة من علمائها فأخذوا عنه وأخذ عنهم.

ـ والشيخ إبراهيم التادلي (ت١٣١١هـ)، ارتحل إلى بلاد المشرق مرتين، وأخذ في كل مرة عن شيوخ مصر والحرمين الشريفين.

ـ والشيخ أحمد بن قاسم جسوس (ت١٣٣١هـ)، رحل إلى بلاد مصر وبلاد الحرمين الشريفين، وتلاقى بعلماء الكل واستجاز واستفاد.

وهكذا كان هؤلاء العلماء المغاربة منارات علم وهدى في أقطارهم وخارجها، ينشرون العلم بين الناس ويقومون بالدعوة بين أهلهم وذويهم، برعوا في العلم والدعوة، وضربت إلى مجالسهم العلمية أكباد الإبل طلباً لعلومهم ومعارفهم.[١]

وقد أكّد علماء مكة على حصول هذا التواصل العلمي بينهم وبين العلماء المغاربة، وصرحوا به.

ومن ذلك ما ورد في ترجمة الشيخ حسن المشاط المكي، حيث قال عن ذلك: «وحين قدم العلامة حمدان بن سيدي أحمد الجزائري الونيسي القسطنطيني إلى مكة المشرفة حاجاً عام (١٣٣٧هـ) أنه تشرف بالاجتماع به، وقرأ عليه من أول مختصر خليل بمكة وبمنى أيام الحج وبعد النزول

---

١. عبد الكريم كريم، رباط الفتح عاصمة الثقافة العربية، المرجع السابق.

بمكة، ومكث إلى نهاية ذي الحجة ومحرم الحرام، وانتفع به الشيء الكبير...».[١]

ومن العلماء الذين جاءوا إلى مكة لأداء فريضة الحج، واستفاد منهم علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة في العصور القريبة:

ـ الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، جاء للحج مرتين في سنة (١٣٢٣هـ)، وسنة (١٣٥١هـ).

ـ والشيخ محمد الكي بن مصطفى بن عزوز التونسي.

ـ والشيخ الخطيب المراكشي.

ـ والشيخ السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي (ت١٣٥١هـ).

ـ والشيخ المحدث محمد بن حبيب الله بن سيدي عبد الله الجكني الشنقيطي.[١]

ومما يؤكد على التواصل العلمي بين علماء الحرمين عامة، وعلماء المدينة النبوية خاصة، وعلماء البلاد المغربية، وتشير المصادر إلى قائمة طويلة من أسماء العلماء الذين نقلوا العلوم الإسلامية من بلاد الحرمين الشريفين إلى البلاد المغاربية وبلاد الأندلس، حيث تشير المصادر التاريخية إلى طائفة من العلماء الفضلاء الذين نقلوا مذهب الإمام مالك بن أنس (ت٢٠٤هـ)، وتمكنوا من نشره خارج المدينة النبوية، ومنهم على سبيل

---

١. عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، : ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

١. عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، المرجع السابق، : ٣٦٧ بتصرف.

المثال، الشيخ الفقيه زياد بن عبد الرحمن اللخمي، والشيخ الفقيه يحي ابن يحي الليثي، والشيخ الفقيه سعيد بن عبد الحكم بن محمد الجمحي المصري، والشيخ الفقيه علي بن زياد التونسي، الذي يعدّ الناشر الأول للمذهب المالكي في إفريقية، وبجهوده عمّت المالكية أقطار المغرب وأقبل الناس عليها بكثرة.[1]

ومنهم العالم: سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، والعالم: شجرة بن عيسى المغافري التونسي، وغيرهم ممن نقلوا «الموطأ» و«مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله»، رواية ودراية إلى أقطار البلاد المغاربية.

وقد حرص الحجاج من العلماء المغاربة على التواصل مع علماء المدينة النبوية الذين يقومون بالتعليم بالمسجد النبوي الشريف وزيارة المكتبات العلمية، وعن ذلك يقول الحاج بن الطاهر بن وعزيز أنه اجتمع بكل من:

ـ الفقيه المحدث: إبراهيم بن عبد القاهر بري الديني، وحضر درسه في الحديث والفقه ونال منه إجازة.

ـ الفقيه: محمد بن أحمد بن محمد حمد العمري، نسبته إلى عمر ابن الخطيب، وأنه تذاكر معه في بعض المسائل وأجازه مشافهة.

ـ الفقيه السيد: خليل، من علماء المدينة النبوية.

---

١. محمد الصادق عبد اللطيف، «السراج المشرق في رواة كتاب الموطأ من المغرب والمشرق»، مجلة التاريخ العربي، العدد:٣٠، سنة ١٤٢٥ هـ : ٢٧١.

وأضاف إلى ذلك زيارته لخزانة الكتب المشهورة بجوار المسجد النبوي الشريف، وهي مكتبة شيخ الإسلام: أحمد عارف حكمت الحسيني، التي احتوت على قرابة ستة عشر ألف مجلد.[١]

وقد حصلت عدة لقاءات علمية بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين لطلب العلم منهم، وأخذ الإجازة منهم، كما حصل من محمد بن حديدي الحنبلي بن الشيخ محمد سنبل الفقيه من علماء الحنابلة بالمسجد النبوي الشريف من إجازة للعالم المغربي الرحالة عبد الله أبو مدين بن أحمد الصغير الدرعي في سنة (١١٥٣هـ).

وتولى بعض العلماء المغاربة التدريس والتعليم بالحرمين الشريفين، والفتوى للمستفتين، أثناء نزولهم بمكة المشرفة وزيارتهم للمسجد النبوي الشريف بالمدينة.

وكان العلماء المغاربة يستفيدون من المكتبات وخزائن الكتب الموقوفة على الحرمين الشريفين، ويستعيرون بعضها للقراءة والاستفادة منها، فضلاً عن شرائهم للعديد من المؤلفات في مختلف العلوم الإسلامية، فكان العلماء المغاربة من أسباب حفظ هذه المخطوطات ونقلها إلى خزائن الكتب بالبلاد المغاربية. ولله الحمد والمنة.

---

١. الطاهر وعزيز، «رحلة إلى المشرق والحرمين»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٩، :٢٥٠ ـ ٢٥١. وقد مكث هذا العالم في هذه الرحلة لزيارة المدينة من ١٢ مارس، إلى ٢٣ منه، في سنة ١٣١٥هـ/ ١٩٣٣م.

وفيما يخصّ التواصل العلمي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة بواسطة الرحلة العلمية من بلاد المشرق إلى البلاد المغاربية؛ فإنّ المصادر التاريخية تشير إلى هذا التواصل العلمي الثقافي بين الجانبين، ولكنه لا يقارن بما يحصل في رحاب الحرمين الشريفين بمكة والمدينة أثناء السنة عامة، وفي موسم الحج خاصة، فالعلماء المغاربة الأجلاء ـ رحمهم الله ـ كانوا يأتون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء ركن من أركان الإسلام وعبادة الله عزّوجلّ وزيارة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فساعد ذلك على تزايد توافدهم باستمرار إلى بلاد الحرمين الشريفين بأعداد كبيرة في موسم الحج طاعة لله واتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، مع ما يجدونه من لذة وسعادة وراحة

نفسية أثناء سيرهم لأداء هذه الشعيرة العظيمة، وخلال مدة إقامتهم بمكة المشرفة والمشاعر المقدسة وفي المدينة المنورة، فهم بين طاعة وعبادة وطلب للعلم، وتواصل وتحقيق أخوة إسلامية مميزة وفريدة ونادرة مع إخوانهم حجاج بيت الله الحرام، أو أقرانهم من العلماء من بقية الأمصار الإسلامية الذين اجتمعوا في رحاب الحرمين الشريفين.

ويلاحظ قلة عدد العلماء الوافدين من المشرق باتجاه بلاد المغرب، ويعود ذلك لعدة أسباب، منها: سوء الأوضاع الداخلية والسياسية في بعض الأحيان في تلك البلدان، ومنها: الخوف وعدم الأمن على النفس؛ بسبب هيمنة الأساطيل البحرية المسيحية على مياه وسواحل أجزاء كبيرة من البحر الأبيض المتوسط، فكانت الأعمال عدوانية مستمرة، واعتداءات القراصنة عليها في عرض البحر أو في الموانئ.

ومن الأمثلة على ما تعرض له بعض العلماء من تلك الأعمال، ما حدث للشيخ إبراهيم بن خلف السنهوري، الذي توجه من مدينة دمشق إلى تونس، وقضى مدة بالمغرب بعد إفلاته من أسر القراصنة.[١]

ومن الأسباب التي قللت من التواصل بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة عن الرحلة العلمية إلى البلاد المغاربية ـ من وجهة نظري والله أعلم: أنّ ما يبحث عنه العلماء وطلبة العلم بمكة والمدينة

---

١. إبراهيم حركات، «الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار»، مجلة التاريخ العربي، مرجع سابق، العدد: ٨ :٥٧.

ـ حرسهما الله ـ من علم والتقاء بالشيوخ والعلماء المسلمين الآخرين؛ قد تهيأ لهم بفضل الله عزّوجلّ وتيسّر لهم ذلك من خلال قدوم العلماء المسلمين المغاربة وغيرهم إلى رحاب البيت العتيق لأداء فريضة أو إلى الروضة الشريفة بالمدينة للصلاة في المسجد النبوي، فخفف الله عنهم عناء السفر والانتقال والارتحال لطلب العلم بوصول هؤلاء العلماء الفضلاء من شتى أقطار البلاد الإسلامية، مما شجعهم على استغلال الأوقات في الاستفادة من هؤلاء العلماء، وحثّهم على لقاءهم والجلوس إليهم للأخذ من علومهم، فكانت أروقة الحرمين الشريفين خلال موسم الحج خاصة منهلاً عذباً عاماً ينهل منه العلماء وطلبة العلم المسلمين في كافة العلوم الإسلامية، وهذه إحدى المنافع المباركة من أداء فريضة الحج وسوف تستمر هذه المنافع والفوائد مع استمرار توافد العلماء إلى الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

صفحات مشرقة من تاريخ العلماء المغاربة

للعلماء المسلمين المغاربة صفحات مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك بسبب ما قدموه من أعمال جليلة في مجال نشر العلم والتعليم في بلدان عديدة، وإن كان هذا البحث يتناول التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين؛ إلا أنه تجدر الإشارة إلى النشاط العلمي والثقافي وغيره من الأنشطة الأخرى التي ساهم فيها العلماء المغاربة الفضلاء، وقد كان هؤلاء العلماء أشبه بمدارس

علمية متنقلة في الأمصار الإسلامية، يفيدون ويستفيدون من غيرهم في المجال العلمي والثقافي في أيّ مكان مرّوا به أو استقروا فيه، وفيما يلي إشارة إلى جانب من هذه الصفحات المشرقة من تاريخ العلماء المسلمين المغاربة ونشاطهم العلمي والتعليمي، خلال أداءهم لفريضة الحج أو ارتحالهم لطلب العلم عبر العصور الإسلامية المختلفة:

أشارت المصادر التاريخية إلى تواصل وثيق بين علماء البلاد المغاربية وبلاد المشرق، فنجد طائفة من العلماء المغاربة ارتحلوا إلى المشرق الإسلامي، واستقروا في طريقهم بالديار المصرية، ونزلوا بها وقد تركوا للأجيال بعدهم عدداً كبيراً من المؤلفات العلمية، وساهموا في إثراء الحركة الثقافية والفكرية في الشرق الإسلامي عامة والبلاد المصرية خاصة، وأورد الرحالة في مؤلفاتهم عن رحلاتهم وصفاً لما شاهدوه أثناء إقامتهم في بلاد مصر والحجاز، مثل المساجد والآثار والأسواق والمكتبات ودور العلم وما تحتويه من ذخائر وكنوز علمية، وحضر بعض هؤلاء الرحالة دروس العلماء فوصف أساليب التعليم وضلاعة رجالات الفقه والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية.[١]

---

١. عبد العزيز بن عبد الله، «ريادة فكرية بين مصر والمغرب»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥، ١٤٢١ هـ: ١٠ــ١١؛ وانظر بحث: علي أحمد، «بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥.

وقد كان التوجه لأداء فريضة الحج من أهم الأسباب التي ساعدت على هذا التواصل بين المسلمين في البلاد المغاربية وبلاد الحرمين الشريفين مروراً بالديار المصرية.

وتشير المصادر إلى قائمة طويلة من العلماء المغاربة الذين نزلوا بمصر واستقروا بها للتعليم والفتوى والإمامة والقضاء.

ومن أشهر من أقام بمصر في مطلع القرن الرابع الهجري: أبو الخير التيناني (ت١٣٤٣هـ)، وقد كان من أهم أسباب استقرار العلماء المغاربة بمصر أنها على طريقهم، وهم يتجهون إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله.[١]

وقد شهدت العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب ومصر في العصرين المريني والمملوكي ازدهاراً ملحوظاً، وذلك بفضل عملية التواصل العلمي التي اهتم بها العلماء المغاربة في ذلك الوقت من خلال رحلاتهم المتعددة والمتواصلة إلى الديار المصرية، ويلاحظ تعدد رحلات العلماء المغاربة نحو البلاد المصرية في حين تقل رحلات العلماء المصريين إلى بلاد المغرب، ويرجع هذا التفاوت بين الجانبين إلى أنّ علماء المغاربة كانوا يقصدون المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج أولاً، ثم لطلب العلم أو البيع والشراء والتجارة، أو للمشاركة في الجهاد في سبيل الله ضدّ عدوان الصليبيين على

---

١. طه عبد الرحمن، «الإسهام المغربي في التراث الإسلامي»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٤، : ١٦.

البلاد الإسلامية في مصر وبلاد الشام، بالإضافة إلى أنّ ركب الحاج المغربي يضم عدداً وافراً من العلماء وطلبة العلم الذين يرغبون في تحقيق مقصدين شريفين هما:

١ ـ الحج إلى بيت الله الحرام.

٢ ـ طلب العلم والاستزادة من العلماء، والحصول على الإجازات من كبار الشيوخ وسماع الروايات، وحفظ الأسانيد والاطلاع على المصنفات العلمية والأدبية؛ حيث تشير المصادر إلى ازدهار العلم في المشرق الإسلامي في هذه الفترة الزمنية.[١]

وقد نتج عن هذا التواصل العلمي بين العلماء المغاربة وعلماء الديار المصرية ـ رحمهم الله ـ استفادة كل منهم من الآخر علمياً، ونشطت مراكز التدريس في المدارس والجوامع والزوايا، وانتشرت هذه النهضة العلمية إلى بقية الأقطار الإسلامية حيث نقلها العلماء المغاربة بعد ذلك باتجاه بلاد الشام والحجاز، عبر الإقامة المؤقتة أو الدائمة في تلك البلدان

---

١. عبد العزيز الضعيفي، «علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الاستفادة والإفادة نماذج من العصر المريني»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢٩، : ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

واشتغالهم بالعلم والتعليم والتأليف واقتناء المؤلفات العلمية والعودة بها معهم إلى البلاد المغاربية.[١]

ومن الأمثلة على التواصل العلمي بين علماء البلاد المغاربية وغيرهم من العلماء، نجد الشيخ مرتضى الزبيدي إمام أهل اللغة في القرن الثاني عشر الهجري يتتلمذ لأبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي (ت ١١٧٠هـ) في أكبر موسوعة لغوية في العصر الحديث، وهي: «تاج العروس من جواهر القاموس، وتتلمذ لمحمد الحسني البليدي الجزائري.

لقد استوثقت أبلغ الروابط وأعمقها بين المشرق العربي والبلاد المغربية على يد العلماء الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحداناً في موجات غامرة كل عام للحج، أو علماء المشرق الذي يفدون إلى ملوك المغرب، من أمثال الملك: المنصور السعدي، الذي احتضن بلاطه رجالات أفذاذ من علماء الحرمين الشريفين والقدس ومصر والشام والعراق وغيرها، وكانت الوسيلة الوحيدة لعبور الحدود من المشرق إلى المغرب أو

---

١. المرجع نفسه، : ٤٠٠ ـ ٤٠٢ بتصرف. وللفائدة، انظر: «بحث البيوت التجارية المغربية بالقاهرة في القرن السادس عشر»، عبد الرحيم عبد الرحمن، المجلة التاريخية المغاربية، العدد: ١٢١، : ٢٣.

العكس، هي: الإسلام والعروبة التي زادت من قوة التواصل العلمي بين العلماء المسلمين في تلك البلدان.[١]

وحظيت ما يعرف ببلاد الأندلس بالتواصل العلمي من قبل العلماء المغاربة، فقد كانت هناك حركة تواصل ثقافي وثيقة بين علماء البلاد المغاربية وبلاد الأندلس، حيث انتقل العلماء بين الناحيتين فازدهرت الحركة العلمية والثقافية ونشطت حركة التأليف والتصنيف في مختلف العلوم فضلاً عن الحلقات العلمية والدروس التي في المساجد والمدارس.[٢]

إنّ هذه الإشارة الموجزة لجهود العلماء المغاربية تبيّن لنا الأعمال الجليلة التي قاموا بها في مجالات العلم والتعليم والفتوى والقضاء والإرشاد والتوجيه في مختلف الأقطار الإسلامية التي مرّوا بها أو استقروا فيها خلال رحلات الحج أو طلب العلم أو نشره بين أبناء الأمة الإسلامية، وهي أعمال جليلة لهؤلاء العلماء ما زالت آثارها وفوائدها شاهدة على فضلهم حتى وقتنا الحاضر، وما تلك الأعمال إلا ثمرة طيبة من ثمار ومنافع

---

١. عبد العزيز بن عبد الله، «التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٨، ١٤١٩ هـ : ٣٠ ـ ٣٢ وما بعدها، وفيها إشارة إلى العلماء المغاربة الذين عاشوا في العراق والشام، وشاركوا في الحياة العلمية والثقافية والعسكرية وجهاد الصليبيين بالشام.

٢. إبراهيم حركات، «الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار»، مجلة التاريخ العربي: ٨، : ٦٠ ـ ٦١.

التوجه إلى الحرمين الشريفين؛ لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله ﷺ، ونتج عنها عبر العصور التاريخية ذلك النموذج الفريد للتواصل بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

الخاتمة:

فبعد هذه الإطلالة العلمية التاريخية عن التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ـ حماهما الله ـ نجد الأثر العظيم الذي تركه أداء فريضة الحج على العلماء المسلمين عامة وعلماء الحرمين الشريفين خاصة، حيث سنحت الفرصة لهؤلاء العلماء الأجلاء من مختلف البلاد الإسلامية للالتقاء في رحاب الحرمين الشريفين وبين أروقتها مهبط الوحي بمكة المكرمة والمدينة المنورة وفي أرض الرسالة والنبوة، فكانت حلقات العلم والتعليم للمقيمين فيهما والوافدين إليهما من مشارق الأرض ومغاربها فازدهرت ونشطت الحركة العلمية بمكة والمدينة بجهود العلماء فيهما وبمشاركة العلماء المسلمين الوافدين إليها أثناء موسم الحج العظيم، وتحقق لهم جميعاً كثيراً من المنافع الدينية والدنيوية الناتجة عن أداء هذه الشعيرة الدينية العظيمة والركن الخامس من أركان الدين الإسلامي الحنيف، وما هذا التواصل بين هؤلاء العلماء إلا فائدة طيبة مباركة من فوائد ومنافع أداء فريضة الحج.

ومن خلال اجتماع العلماء المسلمين عامة والعلماء المغاربة خاصة مع إخوانهم علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة أصبحت بلاد الحرمين

الشريفين مقصداً دينياً وعلمياً وثقافياً لطالبي العلم من شتى الأقطار الإسلامية، وأصبح الحجّ منذ أن فرضه الله عزّوجلّ على الأمّة المحمّدية من أهمّ الأسباب التي ساعدت على قوّة الأمّة واتحادها واجتماعها وتعاونها فيما بينها في شتّى المجالات.

وما زالت الأمّة الإسلامية ـ ولله الحمد والمنة ـ تجني ثمار هذا الركن العظيم: «الحجّ إلى بيت الله الحرام» حتى وقتنا الحاضر، و إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وستبقى منافع الحج تتابع وتتزايد باستمرار قدوم حجاج بيت الله الحرام وعمّاره وزواره وقاصدي مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أدركوا ما للحج من فوائد ومنافع، فتسابقوا للمشاركة في ركب حجاج بلدانهم يدفعهم إلى ذلك الرغبة في الأجر والثواب من الله عزّوجلّ، ونيل فضائل الحجّ إلى بيت الله الحرام ويحثّهم الشوق لرؤية البيت الحرام والصلاة فيه، والكعبة المشرفة والطواف بها، وشرب زمزم، والسعي بين الصفا والمروة، واقتفاء سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله، و يحدوهم الأمل بالوصول إلى المدينة النبوية والصلاة في مسجده الشريف، ثم السلام على خير البرية وخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله.

وإذا كان هؤلاء العلماء ـ رحمهم الله ـ قد لاقوا في العصور السابقة المشاق والمصاعب والأخطار المتعددة؛ فإنه ـ ولله الحمد والمنة ـ قد زالت تلك المشاق التي كانوا يتعرضون لها أثناء توجههم لأداء فريضة الحج في

الوقت الحاضر، وأصبح أداء الحج في أمن وأمان واطمئنـان، وفي سـهولة ويسر... وما ذلك إلا بفضل ربّ العزة والجلال...

❊ ❊ ❊

شخصيات من الحرمين الشريفين (٣٥)

الصحابي «هاشم المرقال»

محمد سليمان

كان واحداً من الصفوة المؤمنة، التي ضمّتهم تلك الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ، وكان واحداً من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ومن الذين يدعون ربَّهم يريدون وجهه..

إنه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص: مالك ابن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة... بن نزار بن معدّ بن عدنان القرشي الزهري المدني. وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص. وأخو مصعب ابن عمير لأمّه..

أبوه:

وعتبة بن أبي وقاص أبو هاشم كان قد شهد أحداً كافراً، و هو الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد حين رماه بأربعة أحجار فكسر رباعيته وشجه في وجهه حتى غاب حلق المغفر في وجنتيه وأدمى شفتيه.. ومات عتبة هذا كافراً قبل فتح مكة..

أمّا إخوته: فقد ذكرت المصادر أنه له إخوة، وكان منهم نافع ابن عتبة ابن أبي وقاص، وقد شهد أحداً مع أبيه كافراً، ثم أسلم نافع يوم فتح مكة.[1]

كما ذكر بعضهم أنّ نافعاً هذا كان من شهداء معركة صفين ضدَّ معاوية ابن أبي سفيان، جاء هذا في كتاب الثقات لابن حبان: «نافع ابن عتبة بن أبي وقاص بن زهرة بن كلاب محدِّث، صحابيّ. سار إلى صفين مع علي عليه السلام، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص. وأمّه زينب بنت خالد

---

١. أنظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب١ : ٤٦٩؛ شرح نهج البلاغة؛ لابن أبي الحديد١٥ : ٤ عن الواقدي؛ وانظر أسد الغابة والإصابة: نافع.

بن عبيد بن سويد الكنانية. شهد أحداً مع أبيه كافراً، وعتبة أبوه هو الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد، ومات كافراً قبل الفتح، ثم أسلم نافع يوم فتح مكة.. ذاكراً مصادر ترجمته».[1]

فيما الذي وجدته، ويبدو أنه الصحيح أنّ أخاه حمزة بن عتبة، هو الذي شارك في معركة صفين، وكان يقاتل فيها إلى جانب الإمام علي عليه السلام حتى استشهد فيها، وكان يقول حين يطعن بالرمح وذلك عند غروب الشمس:

ماذا يُرجى من رئيس ملاَّ ❊ لستُ بفرّار ولا زُميلا
في قومه مستبدلاً مدلاَّ ❊ قد سئم الحياة واستملَّا
وكلَّ أغراضٍ له تملاَّ

وحين دعاه عمرو بن العاص في ميدان القتال بصفين، قال:

دعاني عمرو للقاء فلم أقِل ❊ وأي جواد لا يقال له هنى
وولى على طرف يجول بشكة ❊ مقلصة أحشاؤه ليس ينثنى
فلو أدركته البيض تحت لوائه ❊ لغودر مجدولاً تعاوره القنى
عليه نجيع من دماء تنوشه ❊ قشاعم شهب في السباسب تجتنى

---

١. كتاب الثقات، لابن حبان، الرقم ١١٣٧.

فرجع عمرو إلى معاوية فحدثه، فقال: لقد لقيت اليوم رجلاً هو خليق أن تدرسه الخيل بسنابكها، أو تُذريه في مداركها، كدَوس الحِصرم، وهو ضعيف الكبد، شديد البطش، يتلمظ تلمظ الشمطاء المفجعة..

وقال حمزة يوم التُّليل المنفرد، وهو الوقت الذي استشهد فيه رضوان الله تعالى عليه:

بلغا عني السكون وهل لي ❊ من رسول إليهم غير آن

لم أصد السنان عن سبق الخيل ❊ ولم أتقي هذام السنان
حين ضج الشعاع من ندب الخيل ❊ لحرب وهر الكماة وقع اللدان

ومشى القوم بالسيوف إلى القوم * كمشي الجمال بين الإران.[١]

أما أبناؤه:

فقد ذكروا له عدداً من الأولاد وإن اختلفوا في أسمائهم، فمنهم من ذكر أنّ له ثلاثة أولاد وهم:

عبد الرحمن وعبد الله وعبد الملك، وأمهم أمية بنت عوف.. من الأزد، وله ابنة اسمها درة.[٢]

فيما ذكر آخرون أنّ له هاشم بن هاشم، وإسحاق بن هاشم، وسليمان، وحفصاً.[٣]

ومما تحدثت به المصادر أنّ لهاشم المرقال ابنين استشهدا معه في معركة صفين، وأنهما المقصودان بقول أميرالمؤمنين عليه السلام في رثائه لهاشم بعد استشهاده:

يزيد وعبد الله بشر ومعبد * وسفيان وابنا هاشم ذي المكارم

إلا أني وجدت البيت المذكور في شرح نهج البلاغة كالتالي:

---

١. وقعة صفين: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

٢. أنظر تاريخ دمشق٣٣ : ٣٤٧؛ والإصابة٤ : ٦٠١.

٣. أنظر التاريخ الصغير، للبخاري٢ : ٧٢؛ والثقات، لابن حبان٢ : ٣٤٢؛ وسير الذهبي٦ : ٢٠٦؛ والإصابة، لابن حجر٣ : ٢٠١؛ وتقريب التهذيب١ : ٢٢٩.

يزيد وسعدان وبشر ومعبدٌ * وسفيان وابنا معبدٍ ذي المكارم.[١]

عبدالله بن هاشم:

أما ابنه عبد الله، فيعدُّ أشهر أولاده، ويعدُّ وجيه الشيعة في البصرة.. وكان على سيرة أبيه إيماناً وجهاداً وشجاعةً، ولهذا أفردنا له هذه الوجيزة، التي ذكرت له بعد أن استُشهد أبوه هاشم يوم صفّين، فما إن استشهد حتى أخذ الراية بيده بعد أن دفعها إليه الإمامُ عليٌّ عليه السلام، وهو ما ذكره صاحب وقعة صفين وغيره من المؤرخين.

وقد راح يُرثي أباه قائلاً:

أهاشم بن عتبة بن مالك * أعزز بشيخ من قريش هالك
تخبطه الخيلات بالسنابك * في أسود من نقعهن حالك
أبشر بحور العين في الأرائك * والروح والريحان عند ذلك

فيما ذكر ابن أبي الحديد خطبةً بليغةً ألقاها عبدالله بعد استلامه الراية من الإمام عليٍّ عليه السلام، كانت محطّ اهتمام الرواة، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: «يأيها الناس، إنّ هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدر أرزاقهم، وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم؛ فدعاه الله

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد٨ : ٣٥ مطبوعات إسماعيليان، قم المقدسة. وتأتينا كامل الأبيات في رثائه عليه السلام لهاشم وصحبه.

ربُّه فاستجاب لأمره، وسلّم لأمره، وجاهد في طاعة ابن عمٍّ رسوله، أول من آمن به، وأفقههم في دين الله، الشديد على أعداء الله، المستحلّين حُرم الله، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، و زين لهم الإثم والعدوان. فحقّ عليكم جهادُ من خالف الله، وعطّل حدوده، ونابذ أولياءه، جودوا بمهجكم في طاعة الله؛ في هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى، والأبد الذي لا يفنى. فوالله لو لم يكن ثوابٌ ولا عقابٌ، ولا جنَّةٌ ولا نارٌ؛ لكان القتال مع عليٍّ أفضل من القتال مع معاوية، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون»؟![1]

كما عرف بأجوبته المفحمة لمعاوية وعمرو بن العاص، لما قبض عليه وأشخص به أسيراً إلى معاوية، بعد أن راح يقاتل جند معاوية بكلِّ قوة وبسالة أدهشت معاوية وعمرو وغيرهم من جند الشام، وفي أسره جرى بينه وبين عمرو بن العاص كلام أعجب معاوية، فكفّ عن قتله وأمر به إلى السجن. أما عن قصة اعتقاله، فقد جاء أن معاوية لما تمَّ له الأمر بعد وفاة علي عليه السلام بعث زياداً على البصرة ونادى منادي معاوية: أمن الأسود والأحمر بأمان الله، إلا عبد الله بن هاشم بن عتبة!

فمكث معاوية يطلبه أشدّ الطلب ولا يعرف له خبراً، حتى قدم عليه رجل من أهل البصرة فقال له: أنا أدلك على عبد الله بن هاشم ابن

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد٨ : ٢٩-٣٠.

عتبة، أكتب إلى زياد فإنه عند فلانة المخزومية! فدعا كاتبه فكتب: من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمد إلى حيّ بنى مخزوم ففتشه داراً داراً حتى تأتي إلى دار فلانة المخزومية، فاستخرج عبد الله بن هاشم المرقال منها، فأحلق رأسه وألبسه جبة شعر وقيده وغلّ يده إلى عنقه واحمله على قتب بعير بغير وطاء ولا غطاء، وانفذ به إليَّ...

فاقتحم الدار واستخرج عبد الله منها، فأنفذه إلى معاوية، فوصل إليه يوم الجمعة وقد لاقى نصباً كثيراً، ومن الهجير ما غير جسمه، وكان معاوية يأمر بطعام، فيتخذ في كل جمعة لأشراف قريش ولأشراف الشام و وفود العراق.

فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه وقد ذبل وسَهمَ وجهه فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص، فقال معاوية: يا أبا عبد الله، أتعرف هذا الفتى؟ قال لا، قال: هذا ابن الذي كان يقول في صفين:

إني شَرَيْتُ النفس لما اعتلاَّ ❊ وأكْثَرَ اللوم وما أقلاَّ
أعور يبغي أهله محلاَّ ❊ قد عالج الحياة حتى ملاَّ
لا بد أن يفُلَّ أو يُفَلا ❊ أشلُّهم بذي الكعوب شلا
لاخير عندي في كريمٍ ولَّى

فقال عمرو متمثِّلاً:

وقد ينبتُ المرعى على دمن الثرى

وتبقى حَزازاتُ النفوس كما هيا

وهذا البيت نسبه صاحب لسان العرب في حرف الدال: دمن، إلى زفر ابن الحرث، يعتذر من هزيمة انهزمها.[١]

قال عمرو بن العاص: دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب، فاشخب أوداجه على أسباجه، ولا تردَّه إلى أهل العراق، فإنه لايصبر على النفاق، وهم أهل غدر وشقاق، وحزب إبليس ليوم هيجاء، وأنّ له هوى سيرديه، ورأياً سيطغيه، وبطانة ستقويه، وجزاء سيئة سيئة مثلها.

فقال عبد الله: ياعمرو إن أُقتَل فرجلٌ أسلَمه قومه وأدركه يومه، أفلا كان هذا منك إذ تحيد عن القتال، ونحن ندعوك إلى النزال، وأنت تلوذ بسمال النطاف، وعقائق الرصاف، كالأمة السوداء، والنعجة القوداء، لا تدفع يد لامس!

فقال عمرو: أما والله لقد وقعت في لهاذم شَذقم للأقران ذي لبد، ولا أحسبك منفلتاً من مخاليب أمير المؤمنين.

فقال عبد الله: أما والله يا ابن العاص إنك لبطر في الرخاء، جبان عند اللقاء، غشوم إذا وليت، هيابة إذا لقيت، تهدر كما يهدر العَوْد المنكوس المقيد، بين مجرى الشول لا يستعجل في المدة، ولا يرتجى في الشدة، أفلا كان هذا منك إذا غمرك أقوام لم يعنفوا صغاراً، ولم يمزقوا

---

١. لسان العرب، ابن منظور١٤ : ١٢.

كباراً، لهم أيدٍ شداد، وألسنة حداد، يدعمون العوج، ويذهبون الحرج، يكثرون القليل، ويشفون الغليل، ويعزون الذليل، ويذهبون الحرج، يكثرون القليل، ويشفون الغليل، ويعزون الذليل!

فقال عمرو: أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه، وتبق أمعاؤه، وتضطرب أطلاؤه، كأنما انطبق عليه صمد.

فقال عبد الله: يا عمرو، إنا قد بلوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوباً غادراً، خلوت بأقوام لا يعرفونك، وجند لا يسامونك، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام لجحظ إليك عقلك، ولتلجلج لسانك، ولاضطرب فخذاك اضطراب القَعود الذي أثقله حمله. فقال معاوية: إيهاً عنكما، وأمر باطلاق عبد الله.

فقال عمرو لمعاوية:

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتني

وكان من التوفيق قتل ابن هاشم

أليس أبوه يا معاوية الذي

أعان عليّاً يوم حزِّ الغَلاصم

فلم ينثني(فما برحوا)حتى جرت من دمائنا

بصفين أمثال البحور الخضارم

وهذا ابنه والمرء يُشبه شيخه(أصله)

ويوشك أن تقرع به سن نادم!

(ستقرع إن أبقيته سِنّ نادم)

فقال عبد الله يجيبه:

معاويَ إن المرء عمراً أَبَتْ له
ضغينةُ صدرٍ غشُّها غير نائم
يرى لك قتلي يا ابن هند وإنما
يرى ما يرى عمرُو ملوك الأعاجم
على أنهم لا يقتلون أسيرهم
إذا منعت عنه عهودُ المسالم
وقد كان منا يوم صِفّين نفرةٌ
عليك جناها هاشم وابن هاشم
قضى ما انقضى منها وليس الذي مضى
ولا ما جرى إلا كأضغاث حالم
فإن تعْفُ عني تعفُ عن ذي قرابةٍ
وإن تَرَ قتلي تستحل محارمي

فأطرق معاوية طويلاً حتى ظنّ أنه لن يتكلم، ثمّ قال:

أرى العفو عن علياقريش وسيلة*إلى الله في اليوم العبوس القماطر
ولست أرى قتلى فتى ذا قرابة * له نسب في حي كعب وعامر
بل العفو عنه بعد ما خاب قدحه*وزلت به إحدى الجدود العواثر
وكان أبوه يوم صفين محنقاً * علينا فأردته رماح يحابر

ثم قال له: أتراك فاعلاً ما قال عمرو من الخروج علينا!

قال: لاتسل عن عقيدات الضمائر، لاسيما إذا أرادت جهاداً في طاعة الله.

قال: إذن يقتلك الله كما قتل أباك!

قال: ومن لي بالشهادة!

فأحسن معاوية جائزته، وأخذ عليه موثقاً ألا يساكنه بالشام فيفسد عليه أهله.[١]

صفات هاشم:

من صفات هاشم الجسدية: أنه كان ضخم الجسم، فقد قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر عن السّديّ عن عبد خير الهمداني، قال: قال هاشم قبل مقتله: أيّها الناس، إنّي رجل ضَخْم، فلا يَهولَنّكم مَسقَطي إذا سقطت...

كما أنه امتاز بصفات كبيرة ورائعة فهو فارس مقدام، وشاعر بارئع، وخطيب مفوّه، نجد كلَّ هذا فيما يأتينا من فصول حياته.[٢]

كنيته:

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد٨ : ٣٣-٣٤؛ وقعة صفين٣٤٨-٣٤٩.

٢. وقعة صفين، لنصر بن مزاحم (ت٢١٢هـ): ٣٢٨،٣٤٠؛ وعنه شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد٨ : ٣٤.

يُكنّى أبا عمرو وأبا عُتبة.

أما لقبه: فيعرف بالمرقال. والمرقال: هو ضَربٌ من العَدْو، وقد نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يقول له: «أرقِلْ يا ميمون». وفي مختصر تاريخ دمشق: لقب بالمرقال؛ لأنّ علياً رضي الله عنه أعطاه الراية بصفين، فكان يرقل بها؛ أي يسرع.. وعن الدولابي في الإصابة: لقب هاشم بالمرقال؛ لأنه كان يُرقل في الحرب أي يُسرع، من الإرقال وهو ضربٌ من العَدْو، وفي المعجم: والمرقال: السريعُ أو الكثيرُ الإرقال. يُقال: جملٌ مِرقال، وناقةٌ مِرقال. ويُقال: هو مرقالٌ في النوازل والحروب وغيرهما، (جمعه:) مراقيل.

ومما جاء في تاج العروس للزبيدي في رقل وأرْقَلَ: أسْرَعَ وقد أرْقَلَتِ النَّاقَةُ إرْقالاً وقيلَ: الإرْقالُ ضَرْبٌ مِنَ الخَبَبِ ورَوَى أبوعُبَيْدٍ عن أصْحابهِ : الإرْقالُ والإجذامُ والإجْمازُ: سُرْعَةُ سَيْرِ الإبل. وفي حديثِ قُسٍّ ذِكْرُ الإرْقالِ وهو ضَرْبٌ مِن العَدْوِ فَوْقَ الخَبَب؛ وقالَ النَّابغَةُ:

إذا اسْتُنْزِلُوا للطَّعْنِ عَنْهُنَّ أرْقَلُوا * إلَى المَوْتِ إرْقالَ الجمالِ المَصاعِبِ

وفي قصِيدَةِ كَعْب بن زُهَيْر:

فيها عَلى الأَيْنِ إرْقالٌ وتَبْغِيلُ

وناقَةٌ مِرْقَالٌ كمِحْرَابٍ ومُرْقِلٌ ومُرْقِلَةٌ كمُحْسِنٍ ومُحْسِنَةٍ: مُسْرِعَةٌ الأخِيرَةُ عن ابنِ سيده أي كَثِيرَةُ الإرْقال قالَ طَرَفَةُ:

وإنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عندَ احْتِضارِهِ * بعَوْجَاءَ مِرْقالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي

ثم ذكر التالي: والْمِرْقالُ: لَقَبُ هاشِمِ بنِ عُتْبَةَ ابنِ أبي وَقَّاصٍ الزُّهريِّ ابن أخي سَعْدٍ من مُسْلِمَةِ الفَتْح لأَنَّ عَلِيّاً رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُ أعْطَاهُ الرَّايَةَ بصِفِّينَ فكانَ يُرْقِلُ بها أي يُسْرِعُ، وقد قُتِلَ بصِفِّينَ رَضِيَ اللهُ تَعالى عنه.

وأرْقَلُوا في الحَرْب: أسْرَعُوا وهو مَجازٌ. وفُلانٌ يَرْقُلُ في الأمور وهو مِرْقالٌ؛ واسْتَعارَ أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُ الإرْقالَ لِلرِّماح فقالَ:

أمَا إنهُ لو كانَ غَيْرُكَ أرْقَلَتْ ... إليهِ الْقَنا بالرَّاعِفاتِ اللَّهازم

يَعْنِي الأَسِنَّةَ.

وفي معركة صفين قال معاوية لعمرو: ويحك، إنّ اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة، وقد كان من قبل يُرقل به إرقالاً،... وفي موضع آخر: ولم يزل عمار بهاشم ينخُسه حتى اشتد القتال، وزحف هاشم بالراية يُرقل بها إرقالاً...[1]

وكذا يعرف بالأعور

لأنه فقد عينه اليمنى في معركة اليرموك حتى صار العور أو كاد أن يكون له صفة يفتخر بها، ويحب أن يُنادى بها؛ لأنها إصابة حدثت في سبيل الله تعالى، حتى راح الإمامُ عليٌّ عليه السلام وبعضُ أصحابه يمازحونه بها،

---

١. أنظر مختصر تاريخ دمشق٢٧ : ٥٠ وذكر مصادره في هامشها؛ و الإصابة٦ : ٨٩١٨ و المعجم الوسيط و تاج العروس...

وهو يخوض وقائع معركة صفين، فقد جاء في كتاب وقعة صفين: ودفع عليٌّ الرايةَ إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وكانت عليه [ذلك اليوم] درعان، فقال له عليٌّ عليه السلام كهيئة المازح:

أيا هاشم، أما تخشى من نفسك أن تكون أعور جباناً؟

قال: ستعلم يا أمير المؤمنين، والله لألفن بين جماجم القوم لفَّ رجل ينوى الآخرة...

ولما دفع عليٌّ عليه السلام الراية إلى هاشم، قال له رجل من بكر بن وائل من أصحاب هاشم: أقدم هاشم ـ يكررها ـ ثم قال: مالك يا هاشم قد انتفخ سحرك، أعوراً وجُبناً؟... وأخذ الراية فهزها فقال له رجل من أصحابه: امكث قليلاً ولا تعجل.

فقال هاشم:

قد أكثروا لومى وما أقلاَّ ❊ إنى شريتُ النفس، لن أعتلاَّ

أعورُ يبغى نفسه محلاَّ ❊ قد عالج الحياة حتى ملَّا

لا بد أن يفُلَّ أو يُفلاّ ❊ أشدهم بذى الكعوب شلاَّ

وقد كان عليٌّ عليه السلام قال له: أتخاف أن تكون أعورَ جباناً أيا هاشم المرقال؟

قال: يا أمير المؤمنين، أما والله لتعلمنِّي ـ إن شاء الله ـ ألفُّ اليوم بين جماجم القوم. فحمل يومئذ يرقل إرقالاً.

وكانت هذه الصفة من أرجوزته، وهو يجول في صفين:

أعور يبغى نفسه خلاصا * مثل الفنيق لابساً دلاصا

قد جرب الحرب ولا أناصا * لادية يخشى ولا قصاصا

كل امرئ وإن كبا وحاصا * ليس يرى من موته مناصا

وحمل صاحب لواء ذي الكلاع من جند معاوية ـ وهو رجل من عذرة ـ وهاشم حاسر وهو يقول:

يا أعور العين وما بى من عور * أثبت فإنى لست من فرعى مضر

نحن اليمانون وما فينا خور * كيف ترى وقع غلام من عُذر

ينعى ابن عفان ويلحى من غدر*سيان عندي من سعى ومن أمر.

نصر، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت قال:

لما كان قتال صفين والراية مع هاشم بن عتبة ـ قال ـ جعل عمار بن ياسر يتناوله بالرمح ويقول: أقدم يا أعور.

لا خير في أعورَ لا يأتي الفزع

قال: فجعل يستحي من عمار، وكان عالماً بالحرب، فيتقدم فيركز الراية، فإذا تتامّت إليه الصفوف قال عمار: أقدم يا أعور.

لا خير في أعورَ لا يأتي الفزع

ولم يزل عمار بهاشم ينخسه حتى اشتد القتال، وزحف هاشم بالراية يرقل بها إرقالاً، وكان يسمى المرقال. قال: وزحف الناس بعضهم

إلى بعض، والتقى الزحفان فاقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع الناس بمثله، وكثرت القتلى في الفريقين كليهما.[١]

من صفاته الجسدية:

أشرنا سابقاً أنه كان ضخم الجسم، فقد قال نصر: وحدثنا عمرو ابن شمر عن السّديّ عن عبد خير الهمداني، قال: قال هاشم قبل مقتله: أيّها الناس، إنّي رجل ضَخْم، فلا يَهولَنّكم مَسقَطي إذا سقطت...

إسلام المرقال:

لقد وفق هذا الرجل لاعتناق الإسلام، يوم فتح مكة في العشرين من شهر رمضان سنة ٨ هجرية، و عمره كما قد يبدو أكثر من ثلاثين سنة، و مع أنّ إسلامه تأخر حتى يوم فتح مكة، إلاّ أنه آمن إيماناً صادقاً شهد له الكثيرون، و شهدت بذلك مواقفه المتصفة بالوفاء لله تعالى و لرسوله صلى الله عليه وآله و في الدفاع عن الإسلام، و ولائه لمنهج الحق و العدل المتمثل بإمامة علي عليه السلام، و هو خير دليل على عمق إسلامه و صدق إيمانه. رغم أنّ أباه عتبة بن أبي وقاص كان من عتاة قريش، و من أشدّ الناس على النبيّ صلى الله عليه وآله. و هو الذي كسر رباعيته صلى الله عليه وآله يوم أحد كما ذكرنا،

---

١. أنظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري: ٣٢٦ـ ٣٢٨، ٣٤٧ـ ٣٤٨، وسنذكر تفاصيل مواقفه الكبيرة حين نتحدث عن دوره في معركة صفين.

و قد بقي أبوه هذا على شركه وعداوته لرسول الله صلى الله عليه وآله و لدينه الحنيف حتى مات.

مواقفه: ذكرت له مصادر التاريخ مواقف عديدة اتسمت بالوعي و الإخلاص، وراحت تتمثل عبر:

خطبه و أشعاره.

و قتاله المتصف بشجاعته و فروسيته.

و معاركه العديدة.

حتى كانت دليلاً واضحاً على ذلك، فقد قضى حياته منذ أن آمن جندياً نذر نفسه في الدفاع عما اعتقد به من مبادئ الإسلام وقيمه ورموزه المخلصين الصادقين، فقد شارك الرجل في الشام في معركة اليرموك ضدَّ الروم، وحين أراد أبو عبيدة بن الجرّاح اختياره على الرجّالة في هذه المعركة، قال: «أولّيها إن شاء الله مَن لا يُخاف نكولُه ولا صدوده عند البأس، أولّيها هاشمَ بن عتبة بن أبي وقّاص». وقد فُقِئت فيها إحدى عينيه..

ثم التحق بعمّه سعد بن أبي وقاص مع ألف فارس في معركة القادسية التي وقعت سنة ١٥ هجرية في عهد الخليفة الثاني، وقد تولى هاشم فيها ميسرة الجيش، «وأبلى فيها بلاء حسناً وقام منه في ذلك ما لم يقم من أحد وكان سبب الفتح على المسلمين وكان بهمة من البهم فاصلاً خيراً».

وهكذا هو في فتح العراق، وفي فتح المدائن، وجلولاء، وحلوان، وأذربيجان، وختمها بل وختم حياته الجهادية الطويلة هذه بوسام الشهادة بين يدي إمام المتقين عليٍّ عليه السلام في معركة صفين التي خاضها ضدَّ القاسطين معاوية وأتباعه، وكانت له في جميع مشاهده مواقف حاسمة حتى عدَّ بسببها من كبار القادة، وذوي الخبرات القتالية، ورسم خططها وكيفية إدراتها.. وفيه يقول عامر بن واثلة:

يا هاشم الخير جُزيت الجنة

قاتلت في الله عدوَّ السّنة * أفلج بما فُزت به من مِنّه.[1]

ولاؤه للإمام عليٍّ عليه السلام:

عرف الرجل بأنه من أتباع الإمام وخواصه، وكان من المبادرين لبيعته عليه السلام، فقد ذكر في الإصابة أنّ المرزباني قال: لما جاء قتل عثمان إلى أهل الكوفة، قال هاشم لأبي موسى الأشعري: تعال يا أبا موسى بايع لخير هذه الأمة عليٍّ. فقال: لا تعجل.

فوضع هاشم يده على الأخرى، فقال: هذه لعلي عليه السلام وهذه لي، وقد بايعت علياً عليه السلام، وفي لفظ المرزباني: ... كان شيعياً، وقال لما قتل

---

١. أنظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبدالبرّ (ت٤٦٣ هـ) ٢ : باب الأفراد في حرف الهاء؛ ومختصر تاريخ دمشق٨ : ٥١؛ وانظر ترجمته في أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين١٠ : ٢٥٠-٢٥٢.

عثمان: هذه يميني لعلي عليه السلام وشمالي لي وقد بايعته وكان بالكوفة، كان هذا منه بعد أن دخل على أبي موسى الأشعري، وهو أمير الكوفة يومئذ فقال: يا أبا موسى بايع لخير هذه الأمة بعد نبيها علي بن أبي طالب عليه السلام فقال:

لا تعجل حتى تنظر ما يصنع الناس وعلى من يكون اجتماعهم، فخرج من عنده وهو واضع يده اليمنى على اليسرى يقول: هذه بيعتي لخير الأمة بعد نبيها علي بن أبي طالب عليه السلام وأتى منزله فجرد معه من بنيه من كان منهم قد انبت، وخرج بهم إلى أمير المؤمنين إلى ذي قار فكان أول من قدم عليه، واستشهد بين يديه في صفين، ثمَّ أنشد:

أبايع غير مكترث عليّاً * ولا أخشى أميراً أشعريا

أبايعه وأعلم أن سأرضي * بذاك الله حقّاً والنبياً.[1]

ثمَّ راحت مواقفه الولائية للإمام علي عليه السلام تتوالاً، مدعومةً ببصيرة منه وإخلاص، فهذا هو في:

معركة الجمل، التي وقعت في البصرة بين الإمام علي عليه السلام، ومَن نكثوا بيعتهم له بالخلافة: الزبير وطلحة ترافقهم أمُّ المؤمنين عائشة، طلب منه الإمام عليه السلام وهو في ذي قار أن يستنفر الناس في الكوفة لقتال الناكثين.

---

١. أنظر الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ٦: حرف الهاء رقم ٨٥٢٦؛ ومختصر أخبار شعراء الشيعة، للمرزباني الخراساني (ت٣٨٤ هـ) : ٣٨ ـ ٣٩.

ففي الخبر: ما إن انتهى إليه أمرُ اجتماع هؤلاء الثلاثة، حتى وجّه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ـ وكان على قول ممن نزل الكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ـ ليستنهض أهل الكوفة، ثم أردفه بابنه الحسن وبعمار بن ياسر، فساروا حتى دخلوا الكوفة، وأبو موسى يومئذ بالكوفة...

وفي خبر أنه حمل كتاباً من الإمام عليٍّ عليه السلام لأبي موسى الأشعري، فقد جاء في كتاب الجمل، وتحت عنوان: كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري: ثم دعا هاشم بن عتبة المرقال، وكتب معه كتاباً إلى أبي موسى الأشعري ـ وكان بالكوفة من قبل عثمان ـ وأمره أن يوصل الكتاب إليه؛ ليستنفر الناس منها إلى الجهاد معه، وكان مضمون الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم: «من عليٍّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس: أما بعد، فإني أرسلت إليك هاشم بن عتبة المرقال؛ لتشخص معه من قبلك من المسلمين، ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي، وقتلوا شيعتي، وأحدثوا في هذه الأمة الحدث العظيم، فأشخص بالناس إليَّ معه حين يُقدم بالكتاب عليك فلا تحبسه، فإني لم أقرك في المصر الذي أنت فيه إلا أن تكون من أعواني وأنصاري على هذا الأمر، والسلام».

فقدم هاشم بالكتاب على أبي موسى الأشعري، فلما وقف عليه، دعا السائب بن مالك الأشعري، فأقرأه الكتاب، وقال له: ما ترى؟ فقال

السائب: اتبع ما كتب به إليك. فأبى أبو موسى ذلك وكسر الكتاب ومحاه، وبعث إلى هاشم بن عتبة يخوّفه ويتوعّده بالسجن!

فقال السائب بن مالك: فأتيت هاشماً فأخبرته بأمر أبي موسى.

فكتب هاشمٌ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام: أما بعد: يا أمير المؤمنين، فإني قدمت بكتابك على امرئ عاقٍّ شاقٍّ بعيد الرحم، ظاهر الغلِّ والشقاق، وقد بعثت إليك بهذا الكتاب مع المحلِّ ابن خليفة أخي طيّءٍ، وهو من شيعتك وأنصارك، وعنده علم ما قبلنا فاسأله عما بدا لك، واكتب إليَّ برأيك أتبعه والسلام.

فلما قدم الكتاب إلى عليٍّ عليه السلام وقرأه، دعا الحسن ابنه وعمار ابن ياسر وقيس بن سعد، وبعثهم إلى أبي موسى، وكتب معهم...[1]

نفوره و أهل الكوفة:

ولما قرر هذا الصحابي الجليل وأهل الكوفة النفور إلى الإمام عليٍّ عليه السلام والإلتحاق بجيشه نحو البصرة، اصطحب معه من أولاده من كان منهم قد أنبت، راح يذكر نفورهم إلى عليٍّ عليه السلام:

وسِرْنا إلى خيرِ البريّة كلِّها * على عِلمنا أنّا إلى الله نَرجعُ

---

١. أنظر الأخبار الطوال، للدينوري (ت٢٨٢ هـ)؛ وكتاب الجمل، للشيخ المفيد (ت٤١٣ هـ) تحقيق السيدعلي مير شريفي: ٢٤٢ ـ ٢٤٣ مع مصادره في هامش الصفحتين المذكورتين.

نُـوقِّـرهُ فـي فَـضلهِ ونُجِلُّه * وفـي الله مـا نَرجو وما نَتوقّعُ
ونَخصفُ أخفافَ المِطيّ على الوجا*وفي اللهمانُزجي وفي الله نُوضعُ
دَلَفْنا بجمعٍ آثروا الحقَّ والهدى * إلـى ذي تُقىً في نَصرهِ نتسرّعُ
نُكافحُ عنه والسيوفُ شـهـيرةٌ * تُصافحُ أعناقَ الرجالِ فتَقطَعُ

فلما قدم أهل الكوفة على عليٍّ عليه السلام، سلّموا عليه، وقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، الذي اختصنا بموازرتك، وأكرمنا بنصرتك، قـد أجبنـاك طائعين غير مكرهين، فمرنا بأمرك. فقام فحمد الله وأثـنى عليـه وصـلّى على رسوله، وقال:

«مرحباً بأهل الكوفة، بيوتـات العـرب ووجوهها، وأهـل الفضـل وفرسانها، وأشدّ العرب مودة لرسول الله صـلى الله عليـه ولأهـل بيتـه، ولذلك بعثت إليكم واستصرختكم عند نقض طلحة والزبير بـيعتي، عـن غير جور مني ولا حدث، ولعمري لو لم تنصروني بأهل الكوفة، لرجـوت أن يكفيني الله غوغاء الناس، وطغام أهل البصرة».

مع أنّ عامة من بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قـد اعتزلوهـا، ورغبوا عنها. فقام رؤوس القبائل فخطبـوا وبـذلوا لـه النصـر، فـأمرهم بالرحيل إلى البصرة.[1]

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد؛ الاستيعاب٢ : باب الأفراد في حرف الهاء.

وبات الفريقان يكتبون الكتائب، وقد أوقدوا النيران في العسكرين، فلما أصبحوا تزاحفوا، وقد استعمل عليٌّ عليه السلام على الخيل عمار ابن ياسر...، ودفع الراية العظمى إلى هاشم بن عتبة المرقال، وفي قولٍ أنه كان على خيل قريش وكنانة...

وعن أيامها... وخرج يوماً آخر المرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في خيل، فخرج إليه أبو الأعور السلمي في مثل ذلك، فاقتتلوا بين الصفين جُلَّ النهار، فلم يفرّ أحدٌ من أحدٍ...

وجاء في معجم تراجم أعلام الجمل، الذي ألحقه المحقق بآخر كتاب الجمل للشيخ المفيد: «هاشم بن عتبة... كان من كبار أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وشهد معه الجمل وقتل بها».

ويبدو أنّ هذا اشتباه من المحقق، فهو على خلاف ما نقلته المصادر الأخرى من أنه كان له دور كبير في وقعة صفين التي حدثت بعد الجمل، وأنه استشهد فيها رضوان الله عليه.[1]

وفي معركة صفين:

لما أراد الإمام عليٌّ عليه السلام أن يتوجه نحو الشام، دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار، ووقف خطيباً فيهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى

---

١. الأخبار الطوال، للدينوري: ١٧١ و١٧٤؛ وكتاب الجمل، للمفيد :٣٢١ ، ٥٠٧.

عليه: «أما بعد فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل الحقّ، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم»...

فانبرى هاشم خطيباً: فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أمّا بعدُ يا أمير المؤمنين، فأنا بالقوم جِدُّ خبير، هم لك ولأشياعك أعداء، وهم لمن يطلب حَرثَ الدنيا أولياء، وهم مُقاتلوك ومُجادلوك لا يُبقون جهداً، مشاحّةً على الدنيا، وضَنّاً بما في أيديهم منها، وليس لهم إربة غيرها إلاّ ما يخدعون به الجهّال من الطلب بدم عثمان بن عفان كذِبوا ليسوا بدمه يثأرون، ولكنّ الدنيا يطلبون، فسِرْ بنا إليهم، فإنّ أجابوا إلى الحقّ.. فليس بعد الحقّ إلاّ الضَّلال، وإن أبَوا إلاّ الشِّقاق.. فذلك الظنّ بهم. واللهِ ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممّن يُطاع إذا نهى، ويُسمَع إذا أمر».

وهكذا قام عمار بن ياسر فقيس بن عبادة وسهل بن حنيف...[1]

دعاء الإمام عليه السلام لهاشم بالشهادة وبالرفقة لرسول الله صلى الله عليه وآله:

كان هذا بعد أن قام هاشم خطيباً قبل بداية المعركة بقليل، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

---

١. أنظر وقعة صفين : ٩٢.

«سربنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله، فأحلّوا حرامه وحرّموا حلاله، واستولاهم الشيطان، ووعدهم الأباطيل ومناهم الأماني، حتى أزاغهم عن الهدى وقصد بهم قصد الردى، وحبب إليهم الدنيا، فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها كرغبتنا في الآخرة إنجاز موعود ربنا. وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله عليه السلام رحماً، وأفضل الناس سبقة وقدماً. وهم يا أمير المؤمنين منك مثل الذي علمنا. ولكن كتب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء وكانوا ظالمين. فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة، وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة، وأنفسنا تنصرك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك. والله ما أحب أن لي ما في الأرض مما أقلت، وما تحت السماء مما أظلت، وأني واليت عدواً لك، أو عاديت ولياً لك».

فقال عليٌّ عليه السلام: «أللهم ارزقه الشهادة في سبيلك، والمرافقة لنبيك صلى الله عليه وآله»!

ثم إنّ عليّاً عليه السلام صعد المنبر فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بالحمد لله والثناء عليه ثم قال:

«إنّ الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه،... ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه، وتناول ما ليس له وما لا يدركه: معاوية وجنده، الفئة الباغية الطاغية، يقودهم

إبليس، ويبرق لهم ببارق تسويفه، ويدليهم بغروره. وأنتم أعلم الناس بحلاله وحرامه، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان، وارغبوا فيما أنالكم من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى»...

فلما انتهى الإمام عليه السلام من خطبته، قام الإمامان الحسن فالحسين عليهما السلام، فألقى كل واحد منهما خطبته...

وهكذا هو مبادر أيضاً في ميدان القتال، وقد كان معه لواء علي عليه السلام يرقل به إرقالاً، حتى قال معاوية لعمرو: «ويحك، إنّ اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة، وقد كان من قبل يرقل به، وإنه إن زحف به اليوم زحفاً إنه لليوم الأطول لأهل الشام، وإن زحف في عنق من أصحابه إنى لأطمع أن تقتطع».

وهو على أربعة آلاف قد شروا بأنفسهم الموت، وكانت راياتهم سوداً، وكان في ساحات صفين يدب دبيباً. وقد وجدت هذا في بيت من أرجوزة للإمام علي عليه السلام، حيث يخاطب جنده، وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم، وتقدمهم، قائلاً:

دبوا دبيب النمل لا تقوتوا ❊ وأصبحوا بحربكم وبيتوا

ولما رأى عمرو بن العاص ذلك قال: إن كان ذا دأب صاحب الرايات السود تفانت العرب اليوم.. «أو» إنى لأرى لصاحب الراية السوداء عملاً، لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم.

لقد كان واحداً من أصحاب عليٍّ عليه السلام، الذين أنزلوا الغمَّ على معاوية؛ ولما تعاظمت الأمور على معاوية [قبل قتل عبيد الله بن عمر ابن الخطاب] دعا عمرو بن العاص، وبسر بن أرطاة وعبيد الله بن عمر ابن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقال لهم: إنه قد غمني رجال من أصحاب عليٍّ، منهم سعيد بن قيس في همدان، والأشتر في قومه، والمرقال وعدي بن حاتم وقيس بن سعد في الأنصار..

ومن فصول معركة صفين، أن خرج عمرو بن العاص، لملاقاة هاشم المرقال، فجعل يقول:

لا عيش إن لم ألق يوماً هاشما ❊ ذاك الذي أجشمني المجاشما

ذاك الذي يشتم عرضي ظالما ❊ ذاك الذي أقام فينا المأتما

ذاك الذي إن ينج مني سالما ❊ يكن شجى حتى الممات لازما

فسمعه هاشم ، فخرج إليه وهو يرتجز ويقول:

لا عيش إن لم ألق يومي عمرا ❊ ذاك الذي نذرت فيه النذرا

ذاك الذي أغدرت فيه الغدرا ❊ ذاك الذي ما زال ينوي الغدرا

أو يحدث الله لأمر أمرا ❊ لا تجزعي يا نفس صبرا صبرا

ضربا إذا شئت وطعنا شزرا ❊ يا ليت ما تحتي يكون قبرا!

ثم حمل على عمرو بن العاص واختلفا بطعنتين، فطعنه هاشم طعنة جرحه منها جراحة منكرة، فرجع عمرو إلى معاوية وجراحته تشخب دماً.. وفي يوم آخر من أيام صفين غدا عمرو بن العاص في حماة الخيل،

فقصد المرقال، ومع المرقال لواء عليٍّ الأعظم، في حماة الناس، وكان عمرو من فرسان قريش، فتقدم وهو يقول:

لا عيش إن لم ألق يوماً هاشما ❊ ذاك الذى أجشمني المجاشما

ذاك الذى أقام لى المآتما ❊ ذاك الذى يشتم عرضى ظالما

ذاك الذى إن ينج منى سالما ❊ يكن شجا حتى الممات لازما

فطعن في أعراض الخيل مزبداً، فحمل هاشم وهو يقول:

لا عيش إن لم ألق يومى عمروا ❊ ذاك الذى أحدث فينا الغدرا

أو يحدث الله لأمر أمرا ❊ لا تجزعي يا نفس صبراً صبرا

ضربا هذا ذيك وطعنا شزرا ❊ يا ليت ما تجنى يكون قبرا

فطاعن عمروا حتى رجع. واشتد القتال وانصرف الفريقان [بعد شدة القتال]، ولم يسر معاوية ذلك...[1]

استشهاده رضوان الله عليه

وفي قصة استشهاده رضوان الله عليه ، جاء في الأخبار الطوال:

فلما أصبح عليٌّ عليه السلام غادى أهل الشام القتال، ودفع رايته العظمى إلى هاشم بن عتبة، فقاتل بها نهاره كله، فلما كان العشي انكشف أصحابه انكشافة، وثبت هاشم في أهل الحفاظ منهم والنجدة، فحمل

---

١. أنظر كتاب الفتوح، لابن الأعثم (ت٣١٤هـ) ٣ : ٤٣؛ وقعة صفين ٤٠٣ ، ٤٢٦ ـ ٤٢٨.

عليهم الحارث بن المنذر التنوخي، فطعنه طعنة جائفة، فلم ينته عن القتال، ووافاه رسول عليٍّ يأمره أن يقدم رايته.

فقال للرسول: «انظر إلى ما بي» فنظر إلى بطنه، فرآه منشقاً، فرجع إلى عليٍّ عليه السلام، فأخبره، ولم يلبث هاشم أن سقط، وجال أصحابه عنه، وتركوه بين القتلى، فلم يلبث أن مات. وحال الليل بين الناس وبين القتال. فلما أصبح عليٌّ عليه السلام غلَّس بالصلاة، وزحف بجموعه نحو القوم على التعبية الأولى، ودفع الراية إلى ابنه عبد الله بن هاشم بن عتبة، وتزاحف الفريقان فاقتتلوا. فروي عن القعقاع الظفري أنه قال: «لقد سمعت في ذلك اليوم من أصوات السيوف ما الرعد القاصف دونه» وعليٌّ عليه السلام واقف ينظر إلى ذلك، ويقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، والله المستعان، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقِّ، وأنت خير الفاتحين».

ثم حمل عليٌّ عليه السلام بنفسه على أهل الشام حتى غاب فيهم، فانصرف مخضباً بالدماء، فلم يزالوا كذلك يومهم كله والليل حتى مضى ثلثه، وجرح عليٌّ عليه السلام خمس جراحات، ثلاث في رأسه واثنتان في وجهه، ثم تفرقوا وغدوا على مصافهم، وعمرو بن العاص يقدم أهل الشام، فحمل عبدالله بن جعفر ذو الجناحين في قريش والأنصار في وجه عمرو فاقتتلوا، وحمل غلامان أخوان من الأنصار على جموع أهل الشام حتى انتهيا إلى سرادق معاوية، فقتلا على باب السرادق، ودارت رحى الحرب إلى أن

ذهب ثلث الليل، ثم تحاجزوا، ولما أصبح الناس اختلط بعضهم ببعض، يستخرجون قتلاهم، فيدفنونهم.[١]

وفي قصة أخرى:

أنه ما إن قطعت رجله يوم صفين قبل أن يقتل، حتى جعل يقاتل من دنا منه وهو بارك ويتمثل قائلاً:

الفحل يحمي شولَه معقولاً

يضرب هذا مثلاً في احتمال الحُر الأمر الجليل في حفظ حرمه، وإن كانت به علة. والشول: جمعه شائلة على غير قياس: النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها، وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية، ولم يبق في ضرعها إلا شول من اللبن أي بقية.[٢]

لقد قاتل هاشم الحارثَ بن المنذر التنوخي، حمل عليه بعد أن أعيا وكل، وقتل بيده، فطعنه بالرمح فشقَّ بطنه فسقط، وبعث إليه عليٌّ عليه السلام وهو لا يعلم: أقدم بلوائك، فقال للرسول: أنظر إلى بطني، فإذا هو قد انشق..

ثم حمل فصرع،فمرَّ عليه رجل وهو صريع بين القتلى، فناداه: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وقل له: بركات الله ورحمته عليك

---

١. أنظر الأخبار الطوال، للدينوري (ت٢٨٢هـ) : ١٨٣ ـ ١٨٤.

٢. المستقصى١ : ٣٣٨؛ مجمع الأمثال٢ : ٧٢؛ ولسان العرب: شول.

يا أميرالمؤمنين، أنشدك الله إلا أصبحت وقد ربطت مقاود خيلك بأرجل القتلى، فإنّ الدبرة تصبح غداً لمن غلب على القتلى. فأخبر الرجل علياً عليه السلام بما قاله، فسار في الليل بكتائبه حتى جعل القتلى خلف ظهره، فأصبح والدبرة له على أهل الشام..

وما إن وقع المرقال شهيداً حتى جاءه الإمامُ عليٌّ عليه السلام ووقف عليه، وحوله عصابة من أسلم قد صرعوا معه، وقوم من القراء، فجزع عليه، وقال يُرثيه وصحبه الشهداء:

جزى الله خيراً عصبة أسلمية * صباح الوجوه صُرعوا حول هاشم
يزيد وسعدان وبشر ومعبد * وسفيان، وابنا معبد ذي المكارم
وعروة لا يبعد نثاه وذكره * إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم.[1]

وبكى عليه السلام على المرقال وعلى عمّار رضوان الله عليهما، ودفنهما بثيابهما إلى جنب بعض في المكان الذي فاضت روحاهما فيه، ولم يغسِّلهما إذ هما شهيدان.

ففي الفقيه للصدوق رحمه الله: «إن عليّاً عليه السلام لم يغسل عمار بن ياسر ولا هاشم بن عتبة ـ وهو المرقال ـ و دفنهما في ثيابهما بدمائهما ولم يُصلِّ عليهما».

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد٨ : ٣٤ ـ ٣٥، بتصرف.

يقول الشيخ الطوسي رحمه الله: «هكذا روي، ولكن الأصل أن لا يترك أحدٌ من الأمة إذا مات بغير صلاة». وكذا في التهذيب في ذيل هذه الرواية قوله: ولم يصل عليهما وهم من الراوي لأن الصلاة لا تسقط عنه على كل حال، يدل على ذلك... وذكر روايات..

وقد روى أبوالبختري، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام: «أنّ علياً عليه السلام لم يغسل عمار بن ياسر ولا هاشم بن عتبة يوم صفين، ودفنهما في ثيابهما وصلى عليهما».[1]

هذا وقد جعل عمّاراً ممّا يلي المرقال وهاشماً أمام ذلك مما يلي القبلة،وصلّى عليهما.

وقد بلغ هاشم المرقال رضوان الله عليه أُمنيّته التي أنشدها بيتاً:

يا ليتَ ما تحتي يكون قبراً!

فسلام عليه في الصالحين!

وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة، وهو من الصحابة، وقيل: إنه آخر من بقي من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهد مع عليٍّ عليه السلام صفين، وكان من مخلصي الشيعة:

يا هاشم الخير جزيت الجنة ❊ قاتلت في الله عدو السنه

---

١. قرب الإسناد، الحميري القمي :١٣٨.

والتاركي الحق وأهل الظنه * أعظم بما فزت به من منه
صيرني الدهر كأنى شنه * ياليت أهلى قد علوني رنه

من حوبة وعمة وكنه

والحوبة القرابة، يقال: لي في بني فلان حوبة، أي قربى.

لقد كان قتله وقتل عمار بن ياسر وغيرهم رضوان الله عليهم سروراً وافتخاراً لمعاوية وعمرو وجنودهما:

فهذا عمرو يفخر بذلك في أبيات له، كان منها:

ونحن قتلنا هاشماً وابن ياسر * ونحن قتلنا ابني بديل تعسفا

ويردُّ عليهم جَريش السكوني في قصيدة يخاطب معاوية حين رأى فرح أهل الشام مقتل هاشم، منها:

فإن تفخروا بابني بديل وهاشم * فنحن قتلنا ذا الكلاع وحوشبا
وإنهما ممن قتلتم على الهدى * ثواء فكفوا القول ننسى التحوبا

ولما استشهدت هذه الثلة المؤمنة المجاهدة، اندفع عدي بن حاتم بلوائه يتبع الإمام عليّاً عليه السلام، وهو يقول:

أبعد عمار وبعد هاشم * وابن بديل فارس الملاحم
نرجو البقاء مثل حكم الحالم * وقد عضضنا أمس بالأباهم
فاليوم لا نقرع سن نادم * ليس امرؤ من يومه بسالم.[1]

---

١. وقعة صفين : ٣٥٩ ـ ٣٨٥، ٤٠١ ـ ٤٠٣.

قالوا عنه :

وردت بحقّه أقوال عديدة تثني عليه:

فهذا ابن الأثير في أسد الغابة يقول فيه: كان من الشجعان الأبطال، والفضلاء الأخيار.

وهذا ابن عبد البر في الاستيعاب يقول عنه: كان من الفضلاء الخيار، وكان من الأبطال البُهْم. فُقئت عينه يوم اليرموك، وشهد القادسيّة وأبلى فيها بلاءً حسناً، وقام منه في ذلك ما لم يَقُم من أحد، وكان سببَ الفتح على المسلمين.

وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: بأنه كان موصوفاً بالشجاعة والإقدام.

وقال عنه ابن قتيبة الدينوري في المعارف: كان مع عليٍّ عليه السلام في صفين، وكان من أشجع الناس.

قال الخوارزميّ في مناقبه ـ وهو يتحدث عن هؤلاء الثلاثة ـ : هاشم المرقال، وعمّار بن ياسر، وعبدالله بن بُدَيل، كانوا فرسان العراق، ومَرَدة الحرب، ورجال المعارك وحُتوف الأقران، وأمراء الأجناد، وقد فعلوا بأهل الشام ما بقي ذكره على ممرّ الأحقاب.

وفي مستدرك الحا كم: ولما سألت عائشة عمن قتل من الناس في صفين، فقيل لها فيما قيل: هاشم بن عتبة، فقالت: ذاك رجل ما كادت أن تزلّ دابّته!

هاشم المرقال في أقوال بعض علماء الرجال عند الشيعة:

وأما هاشم في أقوال بعض علماء الرجال عند الشيعة، فقد عدّه الشيخ الطوسي في رجاله في أصحاب عليٍّ عليه السلام، وقال: «وسمي المرقال؛ لأنه كان يرقل في الحرب». وفي نسخة الميرزا زيادة جملة: «وكان صاحب راية ليلة الهرير».

وعن الكشي في ترجمة محمد بن أبي بكر، أنّ هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال، كان أحد الخمسة الذين كانوا مع أميرالمؤمنين عليه السلام من قريش.

فيما عدّه ابن شهرآشوب في مناقبه من وجوه الصحابة وخيار التابعين. قال عنه في فصل في حرب صفين: «وخرج حمزة بن مالك الهمداني قائلاً لهاشم المرقال:

يا أعور العين وما فينا عور * نبغي ابن عفان ونلحي من عذر

فقتله المرقال، فهجموا على المرقال فقتلوه.[1]

* * *

١. أنظر معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي رحمه الله ٢٠ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩، رقم: ١٣٢٩٥بتصرف.

أخبار الحرمين الشريفين

١ـ نداء قائد الثورة الإسلامية، الإمام الخامنئي إلى حجاج بيت الله الحرام في موسم ١٤٣٥هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم والحمدُ لله ربّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

تحيّة شوق وسلام تكريم لكم أيها السعداء، الذين لبيتم دعوة القرآن الكريم، وسارعتم لضيافة بيت الله الحرام.

أول الحديث هو أن تقدروا هذه النعمة الكبرى حقّ قدرها، وأن تجهدوا للاقتراب من أهداف هذه الفريضة الفريدة بالتأمل في أبعادها الفرديّة والاجتماعيّة والروحيّة والعالميّة، وأن تتضرّعوا الى المضيّف الرحيم القدير أن يعينكم على ذلك.

وأنا معكم ـــ قلباً ولساناً ـــ أسأل الربّ الغفور والمنّان أن يتمّ نعمته عليكم، وأن يمنّ عليكم بأداء حجّ كامل كما منّ عليكم بتوفيق الرحال إلى حجّ بيته الكريم، وأن يتقبل منكم بكرمه ويعيدكم غانمين سالمين إلى دياركم إن شاء الله تعالى.

في الفرصة المغتنمة لهذه المناسك الغنيّة الفريدة، إضافة إلى التطهير والبناء المعنوي والروحي الذي هو أسمى وأعمق معطيات الحج، فإنّ الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي والنظرة الرفيعة الشاملة لما هو أهم وأرقى في سلّم أولويات الموضوعات ذات الصلة بالأمة الإسلامية هو في صدر واجبات الحجاج وآدابهم.

إنّ مسألة اتحاد المسلمين وحلّ العقد المفرّقة بين أجزاء الأمة الإسلامية من جملة هذه الموضوعات الهامة ذات الأولوية في يومنا الراهن.

الحج مظهر الوحدة والتلاحم وساحة الإخاء والتعاضد. وعلى الجميع أن يتلقوا درس التركيز على المشتركات وإزالة الخلافات.

فالسياسات الاستعمارية وضعت بيدها الآثمة منذ القدم مهمة التفرقة في قائمة أعمالها لتحقق مقاصدها الخبيثة. وبعد أن تبيّن للشعوب الإسلامية اليوم بوضوح عِداء جبهة الاستكبار والصهيونية بفضل الصحوة الإسلامية واتخذت منها الموقف اللازم، قد ازدادت سياسة التفرقة بين المسلمين شدّة وعنفًا.

إنّ العدوّ المخادع بإشعاله نيران الحروب الأهلية بين المسلمين يستهدف جرّ مقاومتهم ومجاهدتهم إلى الانحراف، كي يبقى العدوّ الصهيوني وعملاء الاستكبار وهم الأعداء الحقيقيون في هامش من الأمن، وإنّ تجهيز المجاميع الإرهابية والتكفيرية وأمثالها في بلدان منطقة غرب آسيا يأتي في سياق هذه السياسة الغادرة.

إنّ هذا لهو تحذير لنا جميعاً أن نضع اليوم مسألة اتحاد المسلمين في رأس قائمة واجباتنا الوطنية والدولية.

قضية فلسطين هي الموضوع المهم الآخر إذ بعد مرور ٦٥ عاماً على إقامة الكيان الصهيوني الغاصب والمنعطفات المختلفة التي مرّت على هذه القضية الهامة والحساسة، وخاصة الحوادث الدامية في السنوات الأخيرة، فإنّ حقيقتين قد اتضحتا للجميع:

الحقيقة الأولى: هي أنّ الكيان الصهيوني وحماته المجرمين لا يعرفون حدّاً لفظاظتهم وقسوتهم ووحشيتهم وسحقهم لكل المعايير الإنسانية والأخلاقية. يبيحون لأنفسهم كل جريمة وإبادة جماعية و تدمير وقتلٍ

للأطفال والنساء والأبرياء العزل، بل كل اعتداء وظلم بمقدورهم ارتكابه، ثم هم يفخرون بما ارتكبوه. و المشاهد المبكية في حرب الخمسين يوماً على غزّة هي آخر نموذج من هذه الجرائم التاريخية التي تكررت طبعاً في نصف القرن الأخير مراراً.

الحقيقة الثانية: هي أنّ هذه المجازر والمآسي لم تستطع أن تحقّق هدف قادة الكيان الغاصب وحماته. وخلافاً لما كان يجول في ذهن لاعبي الساحة السياسية الخبثاء من آمال حمقاء بشأن سطوة النظام الصهيوني ومنعته، فإنّ هذا الكيان يقترب يوماً بعد يوم من الإضمحلال والفناء. إنّ مقاومة غزّة المحاصرة والوحيدة لمدّة ٥٠ يوماً أمام كلّ ما أجلبه الكيان الصهيوني من قوّة إلى الساحة، وماحدث في النهاية من فشل وتراجع لهذا الكيان واستسلامه أمام شروط المقاومة، لهو مشهد واضح لهذا الضعف والهزال والانهيار.

إنّ هذا يعني أنّ الشعب الفلسطيني يجب أن يزداد فيه الأمل أكثر من أيّ وقت مضى، وأن يزيد المناضلون من الجهاد الإسلامي وحماس من سعيهم وعزمهم وهمّتهم، وأن تتابع الضفة الغربية مسيرة العزّ الدائمة بقوة و صلابة أكثر، وأن تطالب الشعوب المسلمة حكوماتها اتخاذ مواقف مساندة حقيقية وجادّة من قضية فلسطين، وأن تقطع الدول الإسلامية بصدق خطوات على هذا الطريق.

الموضوع الثالث المهم وذو الأولوية، هو ما ينبغي للناشطين المخلصين في العالم الإسلامي أن يفرّقوا بنظرة واعية بين الإسلام المحمدي الأصيل والإسلام الأمريكي، وأن يحذروا ويحذّروا من الخلط بين هذا و ذاك.

لقد اهتمّ إمامنا الراحل لأول مرّة بالتمييز بين المقولتين. وأدخل ذلك في القاموس السياسي للعالم الإسلامي.

فالإسلام الأصيل هو إسلام النقاء والمعنوية، إسلام التقوى والسيادة الشعبية، إسلام أشداء على الكفار رحماء بينهم. وإنّ الإسلام الأمريكي هو أن تقمّص العمالة للأجانب و معاداة الأمة الإسلامية بزي الإسلام.

إنّ الإسلام الذي يشعل نيران التفرقة بين المسلمين، ويضعُ الثقة بأعداء الله بدلاً من الثقة بالوعد الإلهي، و يشنّ الحرب على الإخوة المسلمين بدلاً من مكافحة الصهيونية والاستكبار، ويتحد مع أمريكا المستكبرة ضد شعبه أو الشعوب الأخرى ليس بإسلام، إنه نفاق خَطر مُهلك يجب أن يكافحه كلّ مسلم صادق.

إنّ نظرة مقرونة بالبصيرة وعمق التفكير توضّح هذه القضايا والموضوعات الهامة في واقع العالم الإسلامي لكل باحث عن الحق، وتحدّد الواجبات والتكاليف الراهنة بلا غموض.

إنّ في الحج ومناسكه وشعائره فرصة مغتنمة لاكتساب هذه البصيرة، ومن المؤمّل أن تحظُوا أنتم أيها الحجاج السعداء بهذه الموهبة الإلهية بصورة كاملة.

أستودعكم الله العظيم جميعاً، وأسأله تعالى لكم قبول الطاعات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد علي الخامنئي

٥ ذي الحجة ١٤٣٥ هجرية قمرية

٨ مهر ١٣٩٣ هجرية شمسية.

* * *

٢ ـ إقامة مراسم البراءة من المشركين في عرفات

هذه المراسم التي أقيمت برعاية ممثل الولي الفقيه ـ المشرف على الحجاج الإيرانيين ـ سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد علي قاضي عسكر، بدأت في الساعات الأولى من صباح اليوم الجمعة بشعارات البراءة التي أطلقها حجاج بيت الله الحرام.

واتسمت هذه المراسم بتنظيم رائع للغاية حيث غصّت الشوارع بالمشاركين، خاصة بعد قراءة نداء ولي أمر المسلمين سماحة آية الله السيد علي الخامنئي الذي وجّهه إلى ضيوف الرحمن حجاج بيت الله

الحرام، والذي تخللته شعارات: الموت لأمريكا ـ الموت لإسرائيل؛ لتشهد بذلك صحراء عرفات اليوم أعظم المراسم في شعيرة الحج، إذ أطلق المسلمون كافة شعار البراءة من الاستكبار ومن أذنابه المجرمين، وأعلنوا تضامنهم مع الشعوب الإسلامية، التي ترزح تحت نير الظلم والعدوان...

مراسم البراءة من المشركين

كما أقيمت هذه المراسم بمشاركة حشد كبير من الحجاج الإيرانيين وغير الإيرانيين، وممثّلي مراجع التقليد، والسفير الإيراني، ومسؤولي القنصلية الإيرانية في جدة، ورئيس منظمة الحج والزيارة.

وتلا سماحة ممثل الولي الفقيه السيد علي قاضي عسكر نداء قائد الثورة الإسلامية، الذي وجّهه إلى حجاج بيت الله الحرام؛ وتلي باللغة العربية أيضاً.

إنّ قائد الثورة الإسلامية، أكد في ندائه أنّ فلسطين أولويتنا الثانية وقال: لابد أن نضاعف الأمل لدى الشعب الفلسطيني أكثر من أي وقت مضى، وأن يعزز المناضلون من الجهاد الإسلامي وحماس سعيهم وعزمهم وإرادتهم، كما لابد أن تتابع الضفة الغربية مسيرة العزّ الدائمة بقوة وصلابة أكثر، فيما على الشعوب المسلمة مطالبة حكوماتها اتخاذ مواقف مساندة حقيقية وجادّة.

* * *

٣ ـ مدير عام الخطوط الحديدية يكشف عن ملامح «قطار الحرمين»

نشر مدير المؤسسة العامة للخطوط الحديدية، محمد بن خالد السويكت، عبر حسابه في «تويتر» الصور الأولى لـ «قطار الحرمين»، من داخل الشركة الإسبانية المصنعة. تضمنت الصور مقدمة القطار، وهيكله الخارجي ذا اللون اللؤلؤي، وصور مقاعد الركاب. وأوضح السويكت أن

القطار الذي سيربط مكة المكرمة بالمدنية المنورة، والمزمع تشغيله بشكل رسمي منتصف عام ٢٠١٦م، ستصل سرعته إلى ٣٠٠ كلم في الساعة، وتنخفض حتى تصل ٢٠٠ كلم في الساعة على مشارف الحرمين، لافتاً إلى أنّ القطار سيكون مزوداً بشبكات للاتصال بالإنترنت.

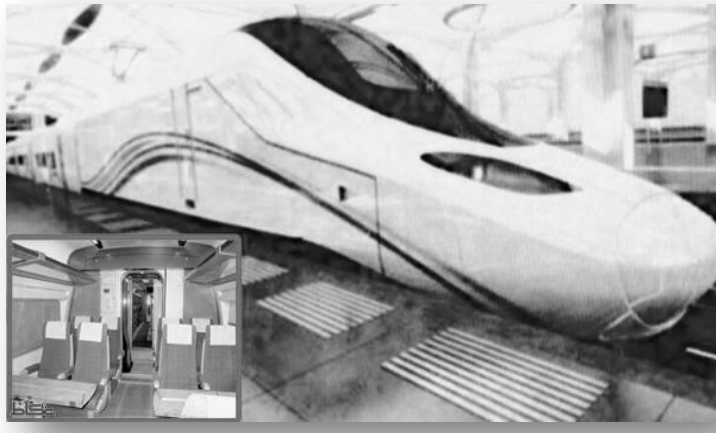

وأضاف: أنّ القطار مصمم لتحمل ارتفاع درجات الحرارة، وامتصاص الصدمات في حال الحوادث، وسيمر بـ٥ محطات واحدة في المدينة المنورة وأخرى في مكة وثالثة في رابغ واثنتين في جدة، إحداهما في مطار الملك عبدالعزيز الدولي.

ويتكون قطار الحرمين من ٣٦ قطاراً كهربائياً، بواقع ١٣ عربة في كل قطار، وسيبدأ التشغيل التجريبي للقطار مطلع العام المقبل بين المدينة المنورة ورابغ، على أن يشغل بالكامل رسمياً في منتصف عام ٢٠١٦م.

العكاظ، الأحد ١٤٣٥/١٠/٢١ هـ العدد : ٤٨٠٩

* * *

٤ ـ شاذروان البيت العتيق..جدار لتقوية الأساس وحماية من السيول؛ اختلاف حول كونه جزءاً من الكعبة

على الرغم من أنّ كثيراً من الطائفين ربما لا يتابعون بدقة الشاذروان، وهو الوزرة المحيطة بأسفل جدار الكعبة المشرفة من مستوى الطواف، إلا أنّ المختصين يؤكدون أنه مفيد جداً وغرض بنائه تقوية لأصل الجدار كعادة الناس في بنائهم، وخاصة الكعبة المشرفة التي كانت بحاجة إلى هذه التقوية؛ لتعرضها للسيول الكثيرة.

والشاذروان ليس من البيت، وهو مسنم الشكل ومبني من الرخام في الجهات الثلاث، ما عدا جهة الحجر ومثبت فيه حلقات يربط فيها ثوب الكعبة المشرفة، ولا يوجد أسفل جدار باب الكعبة المشرفة شاذروان.

وعليه فإنّ مؤرخ عبدالله باسلامة في كتابه تاريخ الكعبة المعظمة أشار إلى أنّ مذهب أبي حنيفة أنّ الشاذروان ليس من البيت؛ وهناك قول آخر: إنّ الشاذروان من البيت، وأنه ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة، حتى ظهر على الأرض، كما هو عادة الناس في الأبنية.

كما أشار إلى ذلك أبو حامد الإسفراييني وابن الصلاح والنووي، ونقل ذلك عن جماعة من الشافعية وغيرهم كالمحب الطبري، حتى إنه نقل عن الشافعي أنه قال: إن طاف عليه، أعاد الطواف.

وقريش وإن كانت اقتصرت في البناء من الطول والعرض، لم يقتصر ابن الزبير في بنائه على ما فعلت، بل أعاده إلى قواعد

إبراهيم عليه السلام، إذ حفر الأساس حتى وصل إلى أساس إبراهيم عليه السلام، وأشهد عليه العدول من أهل مكة، وأيضاً الحَجَّاج حينما هدم البيت من جهة الحجر ترك الباقي على أصله، وبقي البيت على بناء ابن الزبير وأساسه إلى سنة ١٠٤٠هـ في الدولة العثمانية.

والشاذروان كان موجوداً في عهد أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) والشافعي (ت٢٠٤هـ) لأنهما تعرضا للكلام عن الشاذروان، فعلى ذلك فربما يكون الشاذروان من بناء قريش، ولم يتعرض لبناء الكعبة بعد قريش إلا عبدالله ابن الزبير وبعده الحَجَّاج، أو أنه من عمل عبد الله بن الزبير.

قال المؤرخ الأزرقي في ذرع وقياسات الشاذروان: «وعدد حجارة الشاذروان التي حول الكعبة ثمانية وستون حجراً في ثلاثة وجوه، من ذلك من جدار الركن الغربي إلى الركن اليماني خمسة وعشرون حجراً، ومنها حجر طوله ثلاثة أذرع ونصف، وهو عتبة الباب الذي سد في ظهر الكعبة، وبينه وبين الركن اليماني أربعة أذرع، وفي الركن اليماني حجر مدور.

وبين الركن اليماني والركن الأسود تسعة عشر حجراً، ومن حد الشاذروان إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود ثلاثة أذرع واثنا عشر أصبعاً ليس فيه شاذروان، ومن حدّ الركن الشامي إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود ثلاثة وعشرون حجراً، ومن حد الشاذروان الذي يلي

الملتزم إلى الركن الذين فيه الحجر الأسود ذراعان، ليس فيهما شاذروان، وهو الملتزم.

وطول الشاذروان في السماء ستة عشر أصبعاً وعرضه ذراع وقال النووي: «والشاذروان بفتح الذال المعجمة وسكون الراء، هو بناء لطيف جداً ملصق بحائط الكعبة، وارتفاعه عن الأرض في بعض المواضع نحو شبر ونصف، وعرضها في بعضها نحو شبرين ونصف، وفي بعضها شبر ونصف».

أما ذرعه الحديث، فقد ذرعه إبراهيم رفعت باشا، فقال: ويلاصق جدر الكعبة من أسفلها بناء من الرخام يسمى الشاذروان، أقيم تقوية للجدران، وهو يحيط بها من جهاتها الأربع، وارتفاعه في الجهة الشمالية (٥٠) سم، في عرض (٣٩) سم، ومن الجهة الغربية ارتفاعه (٢٧) سم في عرض (٨٠) سم، ومن الجهة الجنوبية ارتفاعه (٢٤) سم في عرض (٨٧) سم، ومن الجهة الشرقية ارتفاعه (٢٢) في عرض (٦٦) سم، كما حققته بالمقاس في حجّاتي الأربع.

ومن لطائف ما ذكر عن الشاذروان ما نقله الفاسي عن القاضي بدر الدين ابن جماعة حيث ذكر أنه رأى الشاذروان في سنة ست وخمسين وستمائة وهي مصطبة يطوف عليها العوام، ورآه في سنة إحدى وستين وقد بني عليه ما يمنع من الطواف عليه على هيئة اليوم وقد جدد بناء

الشاذروان في سنوات عديدة منها في سنة (٥٤٢هـ) وسنة (٦٣٦هـ) وسنة (٦٦٠هـ) وسنة (٦٧٠هـ) وسنة (١٠١٠هـ) وبين ذلك وقبله وبعده.

وآخر تجديد للشاذروان كان في عهد الملك فهد بن عبد العزيز أثناء الترميم الثاني للكعبة المشرفة في عام ١٤١٧هـ، حيث جدد رخام الشاذروان القديم برخام جديد يحاكي ألوان ونوعية الرخام القديم، مع المحافظة على الرخامات القديمة الموجودة تحت ناحية باب الكعبة، وهي رخامات جميلة ونفيسة ومحافظة على جودتها ومتانتها.

العكاظ / السبت ١٤٣٥/٠٩/٢٨ هـ العدد : ٤٧٨٧

* * *

٥ ـ مقبرة المعلاة تحتضن رفات الملايين عبر آلاف السنين

تعدّ مقبرة المعلاة التي تقع في شمال المسجد الحرام، مقبرة المكيين منذ العصر الجاهلي إلى اليوم، وهي تضمّ قبور بني هاشم من أجداد الرسول صلى الله عليه وآله وأعمامه وقبور بعض الصحابة والتابعين، ويوجد بها قبر زوجة الرسول صلى الله عليه وآله أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها السلام وقبر عبدالله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر والخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.

وبحسب ما تذكره بعض الروايات التاريخية، فإنّ كثيراً من أعلام الإسلام من الصحابة والتابعين وكبار العلماء والصالحين جرى دفنهم في ثراها.

وتقع مقبرة المعلاة على سفح جبل الحجون في الجنوب الغربي الذي يمتد من ريع الحجون شمال مكة المكرمة، ويشرف على المقبرة من الجهة الغربية جبل السليمانية، ومن الجهة الشرقية جبل الحجون، ويطلق عليها اسم مقبرة المعلا بدون التاء المربوطة، أو باسم مقبرة أهل مكة الذين يفضلون دفن موتاهم فيها وكذلك الحجاج والمعتمرون.

يقول الدكتور فواز بن علي الدهاس المشرف على وحدة الآثار والمتاحف بجامعة أمّ القرى، إنّ مقبرة المعلاة هي مقبرة أهل مكة المكرمة في العصرين الجاهلي والإسلامي، مشيراً إلى أنها في العهود السابقة كانت خارج النطاق العمراني لمكة المكرمة حتى العهد الأموي حيث تقول الروايات التاريخية إنّ رجال الحرس في تلك العهود كانوا يجوبون أطراف

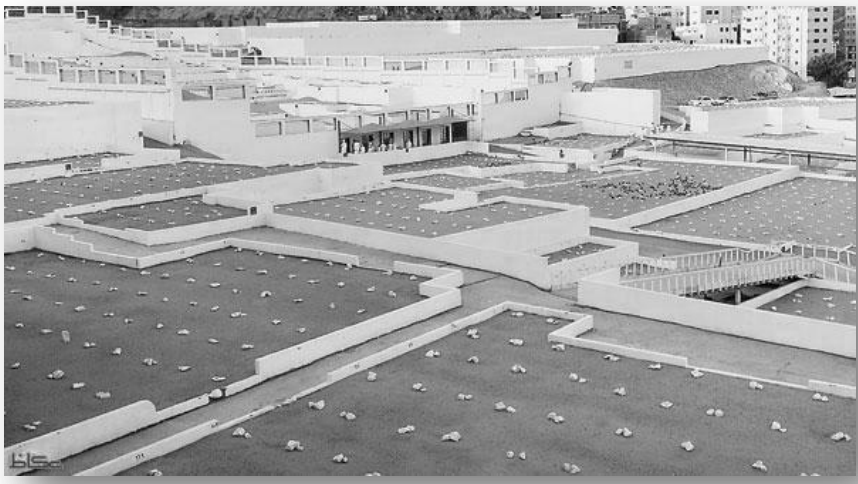

مكة المكرمة للحفاظ على الأمن ويجتمع رئيس الحرس مع أفراده بعد انتهاء أعمال الحراسة عند مسجد الجن أو ما يعرف بمسجد الحرس ثم يدخلون مكة المكرمة في دلالة على أن المقبرة كانت خارج النطاق العمراني.

ويضيف الدهاس قائلاً: سميت المعلاة نظراً لأنها تقع في أعلى مكة، مشيراً إلى أنها في نفس الموقع القديم الذي كانت عليه في الجاهلية والإسلام.

وتعدّ مقبرة المعلاة من أكبر المقابر ولا يزال الدفن فيها جارياً إلى اليوم لقربها من المسجد الحرام، وسهولة الوصول إليها في الزيارة للدعاء للأموات ويستخدم القبر الواحد عدة مرات حيث إنه كلما امتلأت المقبرة ينظف القبر ويستخدم مرة أخرى. ونظراً لتضرر المقبرة في مدة سابقة لقدمها ولتسرب مياه الصرف الصحي داخل القبور لانخفاض منسوبها عن مستوى الشوارع المحيطة بها فقد قام فيها مشروع إعادة تجهيز القبور ورفع مستوى أرضية المقبرة بحيث يصبح أعلى من منسوب الطرق المحيطة بها.

وقد حوت هذه المقبرة منذ بدء الإسلام رفات كثير من الصحابة والتابعين وتابعيهم، من الأئمة والعلماء وكان عندما يدفن الميت توضع على قبره علامة تميز مكانه كشاهد وعادة ما تكون من حجر مستطيل

غير منتظم الأضلاع تقطع من جبال المنطقة، وينقش اسم المتوفى بخط غائر أو بارز، مع بعض الآيات والأدعية.

العكاظ ـ الثلاثاء ١٤٣٥/٠٩/٢٤ هـ العدد : ٤٧٨٣

❊ ❊ ❊

٦ ـ الحرم المكي الجديد متحف مفتوح ...

مجرد الدخول إلى الحرم المكي الجديد ومن أيّ الاتجاهات، يعني الدخول إلى أفخم عمارة دينية في العالم، وتحفة معمارية جمعت فنون العمارة التاريخية والعمارة الإسلامية بشكل خاص.

ارتفاع المبنى لتوفير التهوية مع الاعتماد على تكسية الجدران بالرخام الفاخر

وعلى أنقاض منطقة فندقية قديمة وشوارع ضيقة وأزقة حلزونية قامت عمارة دينية شامخة تؤسس لتوسعة تاريخية فيما تميزت هذه العمارة بثوابت مهمة منها تحقيق شرط الاتصال بين المصلين وتراص الصفوف وخلوّ أماكن الصلاة من الأعمدة التي تقطع صفوف المصلين.

روعة البناء تتلألأ في عيون قاصدي البيت العتيق

وكشفت قراءة الرياض أمس للطرز المعمارية المنفذة في الحرم الجديد تركيز التخطيط الهندسي على تحقيق أبعاد أمنية وصحية منها توسعة ممرات المشي المؤدية إلى صحن الطواف وارتفاع المبنى لتوفير التهوية الجيدة مع الاعتماد على تكسية جدران المبنى الضخم بالرخام الفاخر الذي لا يخرج عن اللونين الأبيض والرمادي.

مآذن الحرم المكي تفننت التقنية الحديثة في مجال المعمار في صناعتها وأدخلت عليها عناصر جمالية زادت من روعة رونقها فيما زادت عمليات إسقاط الإضاءة عليها من وهج جمالها الشاهق، وتبلغ منارات التوسعة أربع منارات، منها منارتان رئيستان على الباب الرئيس باب «الملك عبدالله» ومنارتان الأولى في الركن الشمالي الشرقي والثانية جهة الركن الشمالي الغربي، ليصبح عدد منارات المسجد الحرام بعد اكتمال التوسعة (١٣) منارة ..

ويتلخص تفوق العمارة الإسلامية في الحرم المكي من خلال الاستخدام الأفضل للفراغ وتوظيف التقنيات الهندسية في مجال الإنشاء

والإضاءة والتبريد والتهوية والصوت بكل توافق وانسجام مما خلق روحانية وطمأنينة أضفت على المكان هيبته.

استخدام تقنية شرب ماء زمزم من خلال صنابير من برادات رخامية ثابتة

الحرم المكي ظهر وكأنه كتلة معمارية من الابتكارات الهندسية والحلول البديلة لطبوغرافية صعبة تختلف عن أيّ مدينة في العالم كون قبلة الدنيا تقع في واد ضيق منحسر بين جبال شاهقة دكتها آليات التطوير وتحول مجرى الوادي غير ذي الزرع إلى واد تمت تكسية أرضيته بالمرمر والرخام المضاد لحرارة الشمس الحارقة. ومن الملامح المعمارية التي رصدتها الرياض أمس في الحرم المكي الجديد الاعتماد على الدواليب

الرخامية الثابتة والبيضاء لحفظ المصاحف واتجاه المبنى إلى استخدام تقنية شرب ماء زمزم من خلال صنابير من برادات رخامية ثابتة مرتبطة بشبكة لمياه زمزم المبارك في ملمح تجاهل حافظات الماء التقليدية بما يكتنف عملها من صعوبة وجهد.

تحفة عمارة الحرم المكي الجديد وفرت حلولاً هندسية لإيجاد التواصل الحركي المأمون للحشود، وأمنت منظومة متكاملة من عناصر الحركة الرأسية حيث تشمل سلالم متحركة وثابتة ومصاعد روعي فيها أدق معايير الاستدامة، من خلال توفير استهلاك الطاقة والموارد الطبيعية، وكذلك اعتماد أفضل أنظمة التكييف والإضاءة التي تراعي ذلك.

البناء المبهر.. والعمارة الفاخرة.. العبارات التي يمكن أن تطلق على الحرم المكي الجديد الذي ظهر في أعين قاصدي بيت الله الحرام من المعتمرين والمصلين وهو يتلألأ جمالاً وروعة.

جريدة الرياض ـ السبت ٧ رمضان ١٤٣٥ هـ ـ العدد: ١٦٨١٢.

* * *

٧ ـ بن حميد: قريباً أنهي تراجم مؤذني الحرمين

كشف الدكتور صالح بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام في محاضرته التي ألقاها مساء أمس بنادي مكة الثقافي الأدبي، بعنوان قراءة

تاريخية في تراجم أئمة المسجد الحرام، أنه على وشك الانتهاء من كتاب ألفه في تاريخ مؤذني الحرمين منذ العهد النبوي وحتى الآن أسوة بكتابه الذي أصدره سابقاً عن أئمة الحرمين، إضافة إلى كتاب آخر عن من خطب لهم من منبر الحرمين من الولاة والخلفاء.

وأشار بن حميد إلى أنّ الإمامة والخطابة مرّت بمراحل عديدة، حيث كانت الإمامة مرتبطة بالولاية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وآله حتى القرن الخامس، ثم بعد ذلك أصبح الوالي هو الذي يعين الأئمة والخطباء واستمر ذلك ثم ظهرت أئمة المقامات، حيث إنّ في المسجد الحرام أكثر من إمام على كلّ مذهب، هذا في المسجد الحرام أما في المسجد النبوي فكان لكل عائلة أو طبقة إمام، واستمر ذلك حتى جمع الملك عبدالعزيز المصلين على

إمام واحد، واختتمت المحاضرة بعدد من المداخلات من قبل الدكتور عبدالوهاب أبوسليمان عضو هيئة كبار العلماء والدكتور محمد الخزيم نائب رئيس شؤون الحرمين.

العكاظ، العدد : ٤٧٤٨ ، الثلاثاء ١٤٣٥/٠٨/١٩ هـ

* * *

٨ ـ الاستفادة من مشروع توسعة المسجد الحرام في رمضان

انطلقت الجهات الخدمية الإشرافية التابعة للرئاسة العامة لشؤون المسجدالحرام والمسجد النبوي في تنفيذ الاستعدادات الخدمية المبكرة على مدار الساعة، استعداداً لاستقبال أعداد المعتمرين والزائرين خلال شهر رمضان المبارك.

و رصدت عدسة «عكاظ» البدء في تنظيف و تجهيز الأماكن التي أوقفت بعد موسم الحج الماضي استعدادا لموسم رمضان، و كذا تغير البلاط المتهالك في سطح المسجد الحرام.

وكشفت مصادر لـ «عكاظ» أنه سيتم الاستفادة من مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله لتوسعة الساحات الشمالية، حيث سيهيئ كامل الدور الأرضي، وميزانين الدور الأرضي والدور الأول، وميزانين الدور الأول بالإضافة إلى جزء يسير من الدور الثاني والميزانين التابع له.

كما سيتم استخدام مساحات كبيرة من الساحات الداخلية، كما روعي أيضاً في هذا المشروع جميع معايير السلامة المتعارف عليها عالمياً ابتداءاً من وسائل السلامة الخاصة بالحريق، وانتهاءاً بأجهزة الرصد الخاصة بقياس قوة ومتانة المنشآت، إنشاء وتهيئة عدد كبير من دورات المياه التي تخدم بشكل مباشر المسجدالحرام وساحاته الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية، تزويد الساحات بعدد من اللوحات الإلكترونية والعادية للتوعية والإرشاد موزعة على مداخل الساحات والمشايات الرئيسية.

كما أولت الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي اهتماماً بالاستعداد في النظافة والفرش للحرم من حيث التهيئة للفرش ونظافته ووضعه باتجاه القبلة نحو عين الكعبة المشرفة تهيئة الساحات لتقديم أفضل الخدمات للمعتمرين الزائرين.. ومنع ما يؤثر سلباً على رواد الحرمين كمظاهر التدخين والبيع والتسول وغيرها، وتقديم كل التسهيلات بما تقوم به لجنة السقاية والرفادة من الإطعام الخيري للمعتمرين وفق الضوابط المعتبرة في هذا المجال.

يشار إلى أنّ الرئاسة تعنى بتأمين ماء زمزم المبارك في الحرمين الشريفين والساحات المحيطة بهما تحقيقاً للطلب المتزايد من قاصدي المسجد الحرام والمسجد النبوي والاهتمام بالاستعداد لاستقبال المعتمرين عن طريق الأبواب والمنافذ المؤدية للمسجد الحرام والمسجد النبوي وذلك بتسهيل انسيابية الدخول ومنع تسرب المخالفات التي تؤثر على نظافة الحرمين أو تؤدي إلى الإضرار بروادهما وتكثيف عدد العاملين بالأبواب والموظفين على مدار الساعة والذين اجتازوا وأهّلوا بدورات تدريبية

لتنمية المهارات وحسن التعامل وزيادة عدد المؤقتين لمواجهة التزايد المستمر في أعداد المعتمرين والزائرين.

العكاظ، العدد: ٤٧٤٦ ، الأحد ١٤٣٥/٠٨/١٧ هـ

* * *

٩ ـ بدء إنشاء مدينة الملك عبدالله للحجاج الشهر المقبل

يبدأ الشهر المقبل إنشاء مدينة الملك عبدالله بن عبدالعزيز للحجاج في المدينة المنورة، وتجري هذه الأيام الترتيبات الخاصة باطلاق العمل لتنفيذ المدينة، وذلك من خلال تحليل التربة والمرور بكافة المراحل التي تهيئ لإطلاق المشروع من قبل وزارة المالية.

وأوضح مدير فرع وزارة الحج بالمدينة المنورة محمد البيجاوي أنّ المشروع سيكون على طريق الهجرة ويطلق عليه بعد إكماله محطة استقبال الحجاج، مشيراً إلى أنه بتعليمات أمير منطقة المدينة المنورة جار التنسيق مع أمانة المنطقة لاستلام أرض على مدخل المدينة المنورة على طريق الهجرة مساحتها ٣٤٠ ألف متر مربع، كبديل مؤقت لاستقبال حجاج الجوّ والبحر، تتواجد فيها وزارة الحج والجهات التي تشرف عليها، مثل المؤسسة الأهلية للأدلاء، والنقابة العامة للسيارات، وإرشاد

الحافلات، إضافة للجهات الحكومية الأخرى المشاركة في خدمة استقبال الحجاج.

وأضاف أنّ مدينة الملك عبدالله للحجاج في حال اكتمالها ستكون نقلة نوعية كبيرة، ستوضح مدى اهتمام ولاة الأمر بأمر الحجاج والعمل على راحتهم وفق أعلى المستويات، مشيراً إلى أنّ مدينة الحجاج سيكون فيها فرع لوزارة الحجاج ومحطة مترو.

من جهته، أوضح عبدالغني بن حماد الأنصاري نائب رئيس المجلس البلدي بالمدينة المنورة أنّ هذا المشروع يأتي كون الوضع الحالي للفنادق المحيطة بالمنطقة المركزية لا يتناسب مع النمو السكاني على المستويين

الداخلي والخارجي والزيادة الهائلة للزوّار التي تصل إلى ثلاثة ملايين في وقت الزيارة فقط، وسوف يوفر ٢٠ ألف فرصة عمل جديدة كحد أدنى.

يذكر أنّ مدينة الحجاج الجديدة التي صدرت الموافقة السامية على إنشائها بالمدينة المنورة على مساحة ١.٦ مليون مترمربع تستوعب ٢٠٠ ألف حاج، وتحتوي على فنادق ودور إيواء لاستيعاب شرائح متعددة من النزلاء إضافة إلى محطة للنقل والقطار ومقرات للجهات المساندة ومستشفى بسعة ٤٠٠ سرير، وتأتي بديلاً للصالة التي تمّ افتتحها قبل حوالي ثلاث سنوات أمير المدينة السابق، والمقامة على مساحة ١٥ ألف مترمربع بمساحة مغطاة تبلغ ٢٧٠٠ مترمربع.

العكاظ، الإثنين ١٤٣٥/٠٧/٢٧ هـ

* * *

١٠ ـ كبير السدنة لـ «عكاظ»:

لا أنام ليلة غسل الكعبة و٩٠ دقيقة لإنجاز المهمة

أوضح الشيخ عبدالقادر بن طه الشيبي، كبير سدنة بيت الله الحرام، أنّ غسل جدار الكعبة يتم من الداخل بـ٤٥ لتراً من ماء زمزم، و٥٠ تولة

من الورد الطائفي والعود الكمبودي الفاخر، باستخدام قطع قماش مبللة بماء زمزم الممزوج بدهن الورد.

وقال لـ «عكاظ» إنّ فتح باب الكعبة الشريفة يتمّ بعد صلاة الفجر بساعة في يوم غسلها، حيث يدخل الملك أو من ينيبه إلى داخل الكعبة الشريفة ويصلي ركعتين داخلها في المكان الذي صلى فيه الرسول ﷺ، كذلك يدخل ضيوف الدول الإسلامية الكعبة المشرفة للصلاة فيها بعد ذلك، ويشارك سمو الأمير مع سدنة بيت الله الحرام في غسلها، وبعد الانتهاء من مراسم الغسل التي تستمر من ساعة إلى ساعة ونصف، يطوف سموّ أمير منطقة مكة المكرمة بالكعبة الشريفة.

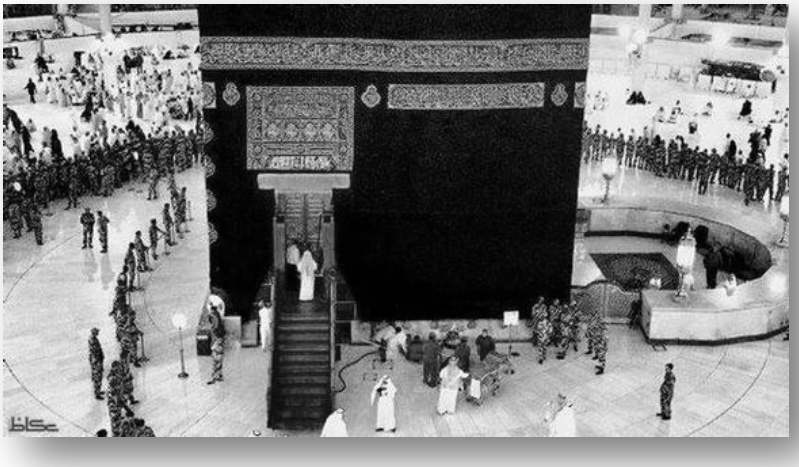

وأوضح كبير السدنة أنه لا يستطيع أن ينام ليلة غسل الكعبة المشرفة لاهتمامه بهذه الشعيرة، كونها المناسبة الروحية التى ينتظرها بفارغ الصبر، حيث يحرص على الذهاب إلى المسجد الحرام قبل صلاة الفجر، ويستمر حتى انتهاء مراسم الغسل وإغلاق باب الكعبة المشرفة.

وعن دور السدنة في خدمة مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول الشيخ الشيبي: نتولى عملية تنظيف المقام وتبخيره وعادة ما يكون فتح باب مقام إبراهيم محدداً للتنظيف فقط.

ووصف الشيخ عبدالقادر الشيبي الكعبة من الداخل بأنها: أرض عادية وبها ثلاثة أعمدة وسقف، وفي السابق كان هناك من يقدم هدايا للكعبة عبارة عن أباريق وسطول من النحاس والفضة تستخدم للغسيل ثمّ تباع عند الحاجة لإصلاح شيء بالكعبة، ولكن الآن وفي عهد حكومتنا الرشيدة أصبحت عملية إصلاح وترميم الكعبة المشرفة تحظى باهتمام كبير من الدولة أيدها الله فلم يعد هناك حاجة لمثل هذه الهدايا.

ورفع الشيخ عبدالقادر الشيبي شكره وتقديره لمقام خادم الحرمين الشريفين على ما يبذله من رعاية كريمة واهتمام لا محدود بالحرمين الشريفين...

العكاظ، الخميس ١٤٣٥/٠٧/٣٠هـ ـ ٢٠١٤/٠٥/٠٩م

❊ ❊ ❊

١١ ـ أمير مكة يغسل الكعبة بماء زمزم

و دهن الورد و العود

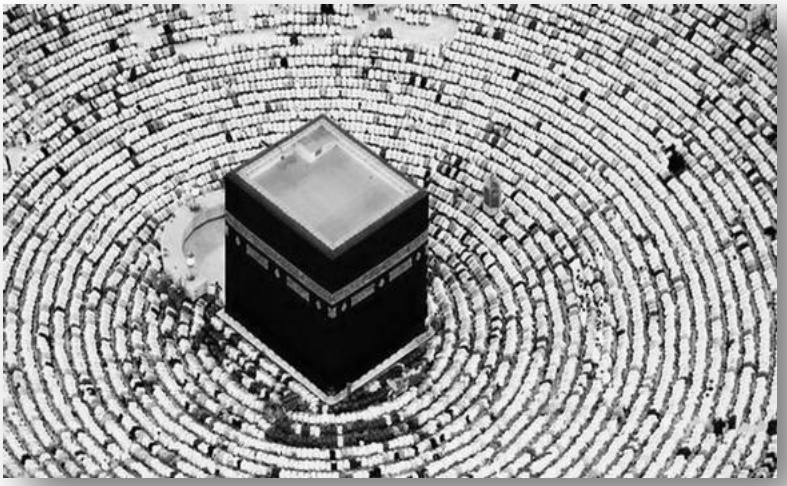

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، يتشرف أمير منطقة مكة المكرمة بغسل الكعبة المشرفة، بمشاركة الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ونائبه لشؤون المسجد الحرام، وعدد من أصحاب المعالي الوزراء وأصحاب الفضيلة العلماء، وسدنة بيت الله الحرام، وأعضاء السلك الدبلوماسي الإسلامي المعتمدين لدى المملكة، وجمع من المواطنين وقاصدي بيت الله الحرام. ويقوم سموه

ومرافقوه بتدليك جدران الكعبة المشرفة من الداخل بقطع القماش المبللة بماء زمزم الممزوج بدهن الورد.

وقال الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي: إنّ غسل الكعبة سنة نبوية، وسيرة مصطفوية، فعلها رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، حينما دخل عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام، وقام بغسلها تطهيراً لها، معنوياً وحسياً، كما نقلت ذلك كتب الحديث والأثر والتاريخ والسير، وسار على ذلك النهج النبوي الصحابة والأئمة والخلفاء والولاة عبر التاريخ، فلم تزل الكعبة المشرفة محل عنايتهم واهتمامهم...

عكاظ، الخميس ١٤٣٥/٠٧/٣٠هـ ـ ٢٠١٤/٠٥/٠٩م

* * *

١٢ ـ قطار معلق ومترو وحافلات

في مخطط النقل العام بالمدينة

تجري هيئة تطوير المدينة المنورة دراسة كبرى على آلية تنفيذ مخطط شبكة النقل العام ومحطات المترو، المتضمن تطوير شبكة نقل متكاملة وحديثة على أرقى المواصفات العالمية للنقل العام، لتستوعب

الطلب المتزايد على النقل في المدينة من قبل الأهالي والحجاج والزوار، وتساهم في التقليل من الآثار السلبية لحركة المرور وتحقيق الربط مع قطار الحرمين الشريفين السريع، ومشروع توسعة مطار الأمير محمد ابن عبدالعزيز الدولي، وكذلك خدمة حركة الحجاج والمعتمرين عبر ميقات ذي الحليفة.

ويتضمن المخطط، الذي حصلت «عكاظ» على نسخة منه، تطوير شبكة النقل المتكاملة وشبكة محطات المترو وحافلات سريعة وما يرتبط بهما من مواقف مساندة ومحطات ومراكز خدمة وصيانة وأنظمة نقل ذكية، لتستوعب الشبكة الطلب المتزايد على النقل في المدينة المنورة من

قبل الأهالي والحجاج والزوار، وتسهم في التقليل من الآثار السلبية لحركة المرور وتحقيق الربط مع قطار الحرمين الشريفين السريع.

من جهته، أوضح مدير عام إدارة مرور منطقة المدينة المنورة، أنّ مشروع النقل العام في المدينة المنورة نقلة نوعية ستساهم في انسيابية الحركة المرورية وخدمة الزوار وضيوف الرحمن. وعلمت «عكاظ» أنّ مسار القطار المعلق سينطلق من مطار الأمير محمد بن عبدالعزيز الدولي إلى المدينة المنورة ومنها إلى المسجد النبوي الشريف، ثمّ إلى مدينة الملك عبدالله لاستقبال وتوديع الحجاج والمعتمرين والزوار، مع إنشاء شبكة متكاملة حول المنطقة المركزية تتضمن شبكة مترو وقطاراً معلقاً وشبكة للحافلات ترتبط بمواقف وحافلات فرعية ومراكز خدمة وصيانة وأنظمة ذكية إلى جانب استكمال الطرق الرئيسية التابعة لوزارة النقل.

وأوضح المهندس زهير كاتب مدير عام إدارة النقل والطرق في المدينة المنورة، أنّ العمل يجري على دراسة مشروع جديد على دوار طابة في طريق الملك عبدالعزيز وإعادة تصميمه بالكامل، وذلك من خلال التنسيق مع هيئة تطوير المدينة المنورة لدراسة تصميمه بحيث يتماشى مع مسار «المونيريل» وهو القطار المعلق بين محطة القطار والمطار مروراً بالمسجد النبوي الشريف.

العكاظ، السبت ١٤٣٥/٠٨/٠٢هـ

* * *

١٣ ـ الأوضاع المزرية لمسجد الحديبية!

يرتبط مسجد الحديبية الواقع على خط مكة ـــ جدة القديم بصلح الحديبية الذي جرى بين الوفد الإسلامي برئاسة المصطفى وبين وفد قريش، وهو صلح تاريخي عظيم في بنوده إلهام وعبقرية كتبت حولها العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في تخصص التاريخ الإسلامي.

ولذلك فإنّ العديد من المعتمرين والحجاج لاسيما المثقفين منهم وذوي الاهتمام بالمواقع التاريخية، يركبون الحافلات ويقفون على الموقع ويتذكرون ذلك الصلح العظيم الذي كان بداية فتح ونصر للإسلام والمسلمين وتمهيداً للفتح المبين فتح مكة المكرمة، وتهاوى ما كان فيها من أصنام وقضاء على الوثنية إلى يوم الدين، فإذا جاء أولئك الزوار واحتاجوا لدورة مياه المسجد من أجل الوضوء للصلاة فيه ظهراً أو عصراً أو مغرباً أو عشاءاً أو سنة، فإنّ دورات المياه في مسجد الحديبية تروع الفؤاد وتقلب المعدة بسبب أوضاعها السيئة التي تفوق في سوئها كل وصف، وقد نقل لي من أثق فيهم أنهم شاهدوا زواراً من تركيا وإندونيسيا وماليزيا ومن دول عربية وقد غطوا أنوفهم هرباً من الروائح التي تزكم الأنوف، فهل من اللائق أن يكون مسجد الحديبية أو غيره من المساجد بهذا الوضع غير المقبول وأين عنه إدارة الأوقاف والمساجد في العاصمة المقدسة..

أليس لديها مفتشون يكتبون تقارير عن المساجد وأوضاعها لاسيما التي تكون موجودة في مواقع تاريخية أو على الطرق الواصلة بين أقدس مدينتين في العالم مكة المكرمة والمدينة المنورة أو في المواقيت الخمسة أو في مناطق الزيارة، ويوجد من أهل الخير من هم مستعدون للتعاون معها للاضطلاع بهذا الدور والتبرع لإعادة تأهيل المساجد الموجودة في المواقع التاريخية أو على الطريق مكة المكرمة ـ المدينة المنورة.

كما أنّ المأمول من الهيئة العامة للسياحة أن تلاحظ وتتابع أحوال المساجد الموجودة في المواقع الأثرية والتاريخية، وأن تتعاون مع إدارات الأوقاف ومع من لديه استعداد من رجال الأعمال لانتشال تلك المساجد

والمواقع من أوضاعها المزرية، فهذا جزء أساسي من مهام الهيئة لأنها مسؤولة عن الارتقاء بالسياحة عموماً والسياحة الدينية على وجه الخصوص .. فهل تتحرك الهيئة وتقوم بما لم يقم به غيرها..؟ أرجو ذلك!

محمد أحمد الحساني

العكاظ ـ الأحد ١٤٣٥/٠٨/١٠ هـ العدد: ٤٧٣٩.

* * *